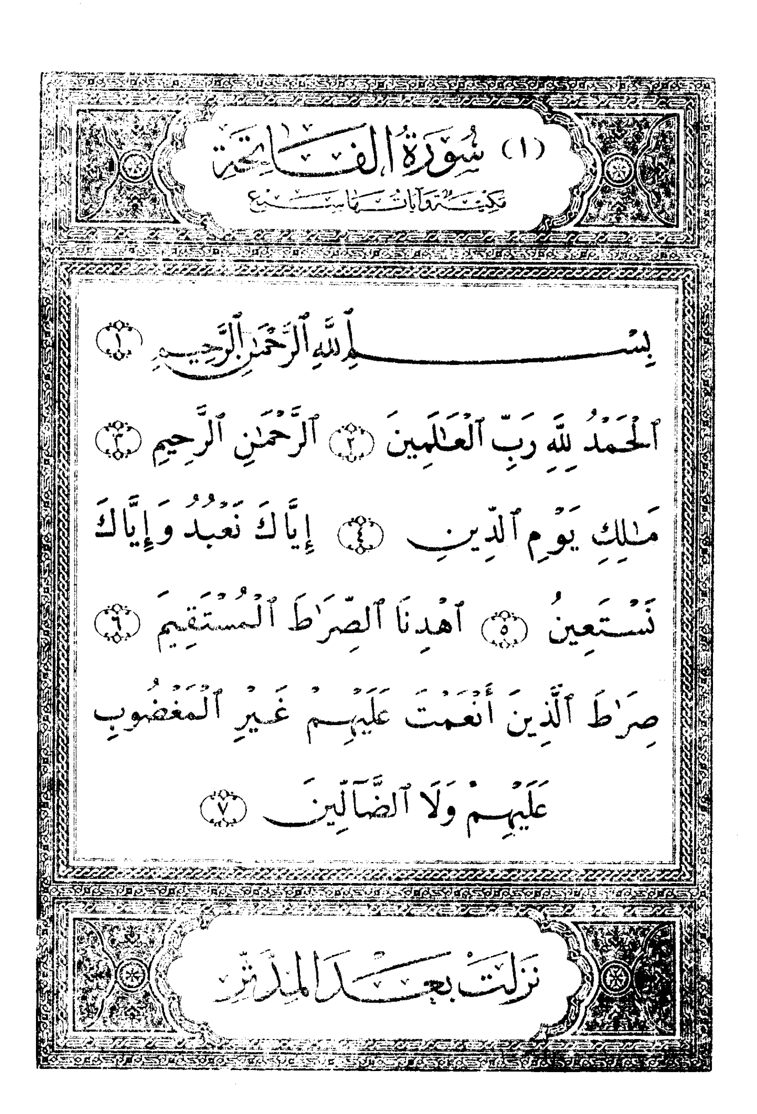
محمد عبد المنعم خفاجه

تفسير القرآن الحكيم

أحدث التفاسير ، وأجمعها للفكرة الإسلامية ،
وأفهم العصر الحاضر لكتاب الله

(١)



(١) سُورَةُ الفَاتِحَةِ

مكية وآياتها سبع

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾

مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾

صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ

عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

نزلت بعد المدثر

تصدير

بقلم حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ
الأكبر حجة الاسلام الشيخ إبراهيم
حمروش شيخ الأزهر الأسبق .

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .. وبعد :

فإن الله سبحانه وتعالى أرسل محمداً رحمة للعالمين ، وأنزل عليه كتابا مبينا ، وقرآنا كريما ، لهداية الناس ، وإصلاحهم فى الشأنين ، وسعادتهم فى الدارين .

ولقد عنى العلماء فى مختلف العصور بدراسة هذا الكتاب العظيم ، وتفسيره وتبيين معانيه ، وتوضيح مراميه . وقد أكثر الناس فى تفسيره ، وظهرت المؤلفات فى شرحه وتأويله ، وهم ما بين مطيل ممل ، ومقصر مخل ، ومتوسط تحجبه العبارة عن الفهم ، واستخلاص المراد .

وقد اطلعت على كتاب « تفسير القرآن الحكيم » ، الذى وضعه الأستاذ الشيخ محمد عبد المنعم خفاجى ، فوجدته سهل العبارة ، جزل الأسلوب ، كثير الفوائد ، سينتفع به كل من العالم والشادى فى تحصيل حاجته ، وإدراك طلبته ، والوصول إلى غايته ، بأيسر جهد ، وأقصر وقت .

وإنا لنضرع إلى الله سبحانه وتعالى أن يوفق الناس للانتفاع بما فيه ، والإفادة بما يحتويه ، وأن يوفق مؤلفه إلى صالح القول والعمل ، آمين ؟

ابراهيم حمروش

هذا التفسير

بسم الله الرحمن الرحيم : لقد كانت مفاجأة سارة لى إلى أقصى درجات السرور ، وموفقه إلى أبعد مدى ، حين عرض على صديق العلامة الأديب صاحب المؤلفات الذائعة ، والشهرة المطبقة ، الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى ، حين عرض على فكرته فى تفسير القرآن الكريم ، ثم صوراً مما كتب فى ذلك التفسير ، بما أوتى من ثقافة وحكمة وتقدير لهداية الكتاب الكريم ، وكيف ينتفع به المسلمون فى آفاق الأرض ، بل العالمون جميعا فى كل بقعة ومكان ، كما يقول الله عز اسمه فى وصفه : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » .

وإذا كان الإمام محمد عبده قد أرضى الله والناس بما تناول فى تفسيره للقرآن الكريم من تطبيقه على أحوال العصر ومشكلاته ، فان الأستاذ خفاجى يرضينا كل الرضى فى تفسيره هذا الذى يبين فيه غزير علمه وفضله وبصره بالمجتمع وحاجته إلى هداية السماء . إلى ما أوتى من قوة فهم لأسلوب الكتاب الحكيم ، ومن بصر عميق بمراميه ، ومن ثقافة واسعة بمعارف الإسلام وتاريخه ، مما يظهر جليا فى هذا التفسير الجديد الجيد الموفق فى عرض كتاب الله الكريم ، وإن له نظراً بعيداً ، وإدراكا عميقا ، لإعجاز القرآن العلمى والبيانى والفكرى والروحى ، مما يتجلى فى هذا التفسير واضحا دون خفاء أو غموض ، وقد بلغ الخفاجى فيه الذروة فى روعة العرض ودقة الفهم وعمق الشرح والبيان ، وفى الالتفات القوى لخصائص بلاغة القرآن الكريم وأسلوبه ، ولمراميه فى تشريعاته وأحكامه ومقاصده .

وإنى إذ أهنىء المؤلف بجهاده الصادق فى سبيل الإسلام والمسلمين ، وبهذا العمل الجبار المضنى والمثمر الموفق فى تفسير كتاب الله ، أدعو الله عز وجل بأن يؤيد خطاه ، وأن يمنحه توفيقه ورضاه ، فى سبيل خدمة كتابه الحكيم ، وأضرع إلى الله أن يعينه على إخراج هذا التفسير الضخم بأجزائه الثلاثين ، خدمة لدستور الإسلام الخالد ، وللثقافة الإسلامية الرفيعة ، وأرجو أن يكون فى ذلك خير وهدى وصلاح للمسلمين ، وإعزاز لجهود الأئمة الداعين إلى الله والحق وإلى طريق مستقيم ، هو طريق الإسلام ، وشريعته الحكيمة . . والسلام على من اتبع الهدى ؟

محمود النواوى

شيخ معهد منوف الدينى

مقدمة

(١)

يحلو لكثير من المؤلفين أن يشغلوا وقت الناس بالتافه من القول ، والمعاد المكرور من الأحاديث ، وخاصة إذا تناولوا كتاب الله العزيز بالشرح والتفسير .

فلا زالت هناك طائفة تتعمق فى عرض الوجوه العديدة لإعراب الآيات ، وأخرى تتعرض لمشكلات المجاز والاستعارة والكناية فى القرآن الكريم ، وثالثة تعرض اصطلاحات العلوم كلها من خلال التفسير ، فإذا جاءت مشكلة نحوية أفاضت فى مسائل النحو وأصوله ، وإذا ظهرت مشكلة بلاغية أطنبت فى شرح قواعد البلاغة ومسائلها ، وإذا رأت أن الآية تفهم قياسا أو حدا أو قضية استعرضت مسائل المنطق ، وهكذا عندما تلوح مسائل الكلام والفلسفة وآراء الفرق وأحكام التشريع وسائر مشكلات الفنون والعلوم ، كأن تفسير القرآن عند هذه الطائفة لا بد أن يكون معرضا لسائر المعارف العقلية واللغوية ،

ويتناسى هؤلاء وهؤلاء مشكلات المجتمع البشرى ، وقضايا التطور الإنسانى ، واصطراع المذاهب والأفكار والآراء ، قديمها وحديثها جميعاً . فلا يتعرضون لشىء من ذلك إذا فسروا كتاب الله الحكيم ، وتناولوه بالشرح والتحليل .

إنهم ينظرون إلى القرآن نظرة القدماء له ، أما أن ينظروا إليه نظرة جديدة ، على أنه دستور كامل للحياة الإنسانية فى عهد الحضارة الكونية المعاصرة فلا ، إنهم لا يطبقون آيات القرآن الكريم على ما جد فى عصرنا من مشكلات الاجتماع والسياسة والاقتصاد والفكر ، ولا يحاولون أن يربطوا بين القرآن الكريم والعقل البشرى المتطور مع ثقافات القرن العشرين ، كأن القرآن فى رأيهم لا يعدو أن يكون كتابا إلهيا أمرنا بالتعبد بتلاوته فحسب ، أما أن يكون كتاب الإنسانية ، دستور العالم فى عصر العلم ، ومرجع

المفكرين إذا ماحزبهم الأمر ، وأشكل عليهم الصواب ، فلا . . إنهم يبعدون القرآن عن الحياة ، ويطبقونه على مسائل العلوم القديمة وحدها، لا على مسائل الحياة المتجددة المتطورة المسايرة لركب التقدم العلمى الجبار الذى شاهدناه فى عصر الذرة .

إن عظمة القرآن وإعجازه وجلاله . لتبدو واضحة كل الوضوح فى سبقه إلى الكثير من المعارف الإنسانية التى لم يصل العلم إليها إلا بعد قرون وأجيال من نزول القرآن الكريم ؛ وفى أنه وضع أصول التفكير الصحيح ، ونشر الوعى العلمى ، وبث روح الحضارة فى عقول المؤمنين به والموقنين برسالة نبى الإسلام ، محمد عليه الصلاة والسلام ، وتظهر كذلك فى أنه مهد لعصر المدنية تمهيداً قويا جبارا ، بما اشتمل عليه من تشريعات تعد قمة سامقة فى التشريع المساير لروح التقدم والحضارة والمدنية المهذبة الخالية من بذور الحقد والكراهية والتعصب والجمود والرجعية .

إن القرآن الكريم ليروعنا بإعجازه العقلى أكثر مما يروعنا بإعجازه البيانى ، ونحن عندما نتأمل فى آيات كتاب الله تأملا عميقـــا نعجب أشد العجب لهذه العظمة الكاملة التى وصل إليها القرآن ، بما اشتمل عليه من تصوير دقيق لخطرات النفوس ، ونوازع الأفئدة ، ولنفسيات الطبقات والطوائف والجماعات والأفراد ، وبما تضمنه من روائع الأصول لبناء حضارة إنسانية مثالية كريمة على نفسها وعلى الناس ، وبما احتواه من تفصيل لماضى الحياة وحاضرها ومستقبلهـا . فالإنسان ليس وحده على ظهر الأرض ، بل معه عون الله ورعايته ، ومعه ماض طويل من الكفاح والجهاد من أجل مستقبل البشر وخيرهم وسعادتهم ، ومعه الطموح الإنسانى لبلوغ مستقبل عظيم ، ترنو إليه نفوس الأخيار الأبرار الأحرار فى هذه الحياة وبعد هذه الحياة .

إن القرآن الكريم سجل حافل لتطور الأمم فى مدارج المدنية ، ولمصائر الأمم والشعوب ونتائج سياستها وسلوكها . وللعقل وتطور تفكيره منذ خلق الله آدم على ظهر الأرض حتى اليوم . إنه كتاب الله الخالد العظيم الذى

لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من الله الرحمن الرحيم .
فأجدر بنا ونحن نتناول كتاب الله العزيز بالتفسير أن نتعرض لكل ما فيه من شئون الاجتماع والمدنية والثقافة والتطور ، بما يلائم حياتنا الحاضرة . وتفكيرنا المعاصر ، لنأخذ مما احتوى عليه أصولا لقواعد سلوكنا ، ومناهج تفكيرنا ، ولنسترشد به في بناء الأمة وطريق الوصول بها إلى جادة الخير والسداد والسلام ، وكيف نبني منها أمة عزيزة قوية مرهوبة الجانب .

وإن القرآن الكريم - مع ذلك كله - ليمدنا في كل وقت بالقوة الروحية والمعنوية التي تنفحنا دائما بالعزم والتصميم وحب الكفاح من أجل التقدم ، والفوز برضاء الله ومحبته .

ومن ثم فقد لاحظت كل هذه الاعتبارات وأنا أكتب هذا التفسير ، وجعلته مبرأ من مشكلات النحو والبلاغة والكلام والمنطق والفلسفة ، بل وقفا على شرح كتاب الله وما تضمنه من أصول وقواعد ، في اتباعها الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة ، وفي البعد عنها الهلاك والبوار والعذاب الدائم والخزى المقيم .

(٢)

وهذا هو الجزء الأول من هذا التفسير الكبير ، الذي سيقع بإذن الله ومشيئته في ثلاثين جزءا ، سوف تصدر تباعا بحول الله وقوته وفضله وتوفيقه ولم أقصد من كتابة هذا التفسير إضافة كتاب جديد إلى كتب التفسير ، إنما أردت أن يكون تفسيري هذا وافيا بحاجات العصر ، ومطالب الفكر ، وقريبا إلى عقول الناس وأفهامهم ، وسهلا في مطالعته وفهمه ، ومقربا لما خفي على الناس من كتاب الله ، ولما غاب عن المفسرين تناوله من شئون الدين والدنيا والآخرة والأولى ، وإني لأحمد الله على فضله ، وأدعوه مخلصا أن ينفع به ، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم ، إنه أجل مأمول ، وأكرم مسئول ، وما توفيقنا إلا بالله ؟ .

المؤلف

تمهيد

(١)

بسم الله نحمده ونستعينه ونصلي ونسلم على رسوله، محمد صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وأصحابه ومن آمن برسالته، وجاهد فى سبيل حماية دعوته، إلى يوم الدين.

وبعد فإن أجل ما يمكن أن تتطلع إليه الهمم، ويستشرف للنهوض به أولو العزم من العلماء والمفكرين، هو تجلية معانى كتاب الله الحكيم، وتفسير آياته الجليلة، وشرح ما تضمنه أسلوبه من مثل رفيعة، وأحكام نافعة، وآداب فاضلة، وسنن اجتماعية دقيقة، ونذر قدمت بين يدى الأمم عظة وتبصرة وذكرى، حتى تسير على الطريق السوى، وتتجنب مصارع الدول التى سبقتها فى مضمار الحياة والحضارة الإنسانية.

إن القرآن الكريم دستور إلهى خالد، نزل من السماء على خاتم الأنبياء محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه، وقد تضمن من نواميس الاجتماع، وشرائع الحياة، وأصول العقائد، وأركان الحضارة، مالم يتضمنه كتاب آخر، وفيه تفسير لكثير مما غمض علينا فهمه من أسرار الكون والوجود، ومن الدعائم التى تحفظ للأمم قوتها ومجدها إذا حافظت عليها، وعملت بها، ومن كل مايعود على الإنسان والإنسانية بالخير العميم، والتوفيق الشامل.

إنه كتاب الإنسانية عامة، قبل أن يكون كتاب المسلمين وحدهم، وهو جدير بالتأمل والاعتبار والفهم والتدبر وأحكامه وآدابه وعظاته ماهى إلا سور منيع يحمى الفرد والمجتمع والشعوب من الانهيار، ومن الضلال فى مهامه العيش، وبيداء الحياة، وتيه الحيرة، وجحيم الذل والهوان.

وإننا ننادى بأن لا أمل فى أن يسود السلام العالم، وأن تطمئن الشعوب إلى مصايرها وحياتها، إلا بالعمل بالقرآن الكريم، وبما تضمنه من كل عظيم من التشريع، وبليغ من القول.

جاء القرآن ومهمته أن يبلغ العقل البشرى رشده ، وأن ينتفع به الناس فى دينهم ودنياهم، ويهتدوا به إلى سواء السبيل فى شئون حياتهم ، وقد اتخذ هذا نهجا له فى إصلاح العقائد ، وتهذيب الأخلاق ، وترسيخ قواعد التنظيم الإجتماعى، والعمل على إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وهدايتهم إلى الطريق الأمثل، وتبشيرهم بالحياة الطيبة إن هم تمسكوا به وبمبادئه المثلى .

أيها المسلمون عندما تلفكم الحيرة من جميع الجهات بأغطيتها ، وعندما يضللكم ويجور بكم المشرفون على مصائركم ، وعند ما تظلم الحياة أمامكم وتستحيل إلى ليل دامس بهيم ، وعندما تهزكم مصارع الدول والعروش هزا عميقا ، وتعصركم الأحداث والخطوب عصراً لا هوادة فيه ، ارجعوا إلى القرآن الكريم ، إلى كتاب الله الحكيم ، إلى هذا الكنز الثمين الذى اشتمل على كل شىء ، واحتوى على جميع مقومات التقدم والنهضة ، فلن يذل من عمل به ، ولن يهون من اهتدى بشريعته .

(٢)

وهذا تفسير جديد للقرآن الكريم ، يحتوى على تحليل جميع العناصر التى اشتمل عليها هذا الكتاب المعجز العظيم ، وشتى الأصول الفكرية والروحية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، التى يقوم عليها بناء الدول . وهو تفسير جديد النزعة والاتجاه ، وقد جرى المفسرون المعاصرون على التفاهة فيما يقدمون من شرح وتحليل ، وعلى تنقص جهود علمائنا الأقدمين فى تفسير كتاب الله ، هذه الجهود الرائعة التى هى ثمرة كفاح طويل وتعب متصل ، ونصب ما بعده من نصب . ونحن هنا نقتبس من شعاعهم، ونستنير بضوئهم ، ولكننا نتجه بعد ذلك اتجاها جديداً هو تحليل القرآن الكريم معجزة الله الخالدة تحليلا كاملا يتضمن شرح توجيهه الرفيع للكون والحياة وللانسانية عامة ، وللمسلمين خاصة ، مع عنايتنا بعرض الآراء فى آيات القرآن ، وبيان أسباب النزول ، والابتعاد عن التعقيد والإغراب والتكلف، وعن الخوض فى ذكر مصطلحات العلوم من نحو وصرف وبلاغة وما إليها ، معتمدين على

أسلوب العصر الحاضر فى فهم كتاب الله الكريم .

وحسبنا هنا أننا نتمم جهوداً قدمها علماء المسلمين فى كل عصر ، وفى سبيل القرآن وشرحه وتفسيره ، سواء منهم من عاش فى عهد الصحابة من مثل على ابن أبى طالب وزيد بن ثابت المتوفى عام ٤٥ هـ وابن عباس المتوفى عام ٦٨ هـ ، وابن مسعود المتوفى عام ٤٤ هـ ، أو عاش فى عصر التابعين : كمجاهد المتوفى عام ١٠٣ هـ ، وعكرمة المتوفى عام ١٠٥ هـ ، وطاوس المتوفى عام ١٠٦ هـ ، وعطاء بن أبى رباح المتوفى عام ١١٤ هـ ، وسعيد بن جبير المتوفى عام ٩٤ هـ ، وسعيد بن المسيب ، وسواهم ، ويؤثر عن سفيان الثورى قوله : خذوا التفسير عن أربعة : سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة والضحاك .. كما يؤثر عن قتادة قوله : كان أعلم التابعين أربعة : كان عطاء بن أبى رباح أعلمهم بالمناسك ، وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير ، وكان عكرمة أعلمهم بالسير ، وكان الحسن البصرى أعلمهم بالحلال والحرام .. ومن التابعين كذلك طبقة تتلمذت فى الكوفة على ابن مسعود ، من أمثال الشعبى المتوفى عام ١٠٥ هـ وإبراهيم النخعى المتوفى عام ٩٥ هـ ، أما الطبقة السابقة فهم تلامذة عبد الله بن عباس ، وهناك طبقة ثالثة من التابعين ، ومنهم مالك بن أنس المتوفى عام ١٥٠ هـ والحسن البصرى المتوفى عام ١١٠ هـ ، وقتادة المتوفى عام ١١٧ هـ ، وسواء منهم كذلك من عاش بعد عصر التابعين مباشرة ، أو بعده بأمد كبير . ومن أجل المفسرين لكتاب الله ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى عام ٣١٠ هـ ، والقرطبى ، والزمخشرى المتوفى عام ٥٣٨ هـ ، والرازى المتوفى عام ٦٠٦ هـ ، والخازن علاء الدين بن محمد البغداد المتوفى عام ٧٤١ هـ ، والبيضاوى المتوفى عام ٦٩٢ هـ والجلالين : المحلى والسيوطى ، والجمل ، وابن كثير الدمشقى الحافظ المتوفى عام ٧٧٤ هـ ، والنيسابورى المتوفى عام ٤٦٨ هـ ، وأبو حيان الأندلسى المتوفى عام ٧٤٥ هـ ، والخطيب الشربينى المتوفى نحو عام ٩٨٠ هـ ، والشهاب الخفاجى المتوفى عام ١٠٦٩ هـ ، ومحمد رشيد رضا فى تفسير المنار ، والطنطاوى جوهرى فى تفسيره الجواهر ، ومحمد فريد وجدى

فى تفسيره الموجز ، والشيخ أحمد مصطفى المراغى فى تفسيره المسمى تفسير المراغى ، والشيخ محمد حجازى فى تفسيره المشهور بتفسير حجازى ، وسواهم فضلا عما كتب فى تفسير سورة أو أكثر من سور القرآن الكريم ، كتفسير جزء « عم » للإمام محمد عبده ، وتفسير جزء تبارك للشيخ عبد القادر المغربى ، وكتاب الذكر الحكيم تأليف محمد عبد المنعم خفاجى وهو تفسير سور ثلاث من سور القرآن وهى : الحج ، لقمان ، ق ، وتفسير سورة النور للشيخ إبراهيم الجبالى ، وتفسير سورة يوسف للشيخ محمد رشيد رضا ، وتفسير سورة لقمان والحديد والحجرات للشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر الأسبق .

وبعد ، فهذا هو تفسير ما نقدمه للقارىء المسلم دون أن نبالغ فى الحديث عنه وعن الجدة فيه ، وحسبنا أن نقول : إنه نهج مستقل فى تفسير كتاب الله لم نسبق إلى مثله ، إذ توخينا فيه عرض أصول القرآن العامة وشرحها ، وخاصة ما يتصل بحياة الأمم ونهضتها وأسباب قوتها وازدهارها ، وتوخينا فيه كذلك عرض نظريات القرآن الكريم بأسلوب البحث العلمى فى القرن العشرين .

وما توفيقنا إلا بالله عليه نتوكل وإليه ننيب . .

دراسات عن القرآن الكريم

كتاب البشرية

القرآن كتاب الله المعجز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

آيات وسور اشتملت على أمور الدين والدنيا ، وانتظمت سعادة الأولى والآخرة ، ونزلت هدى ونورا للبشر كافة ، وقضت على الأوهام الباطلة والأساطير الكاذبة ، والعبادات الضالة والأديان المنحرفة ، وأحالت الظلام ضياء والشقاء سعادة واليأس أملا ، والضلال هدى ، والهمجية مدنية ، والجهل علما ومعرفة وفنا وأدبا وثقافة ، نبع من معينها الزاخر كل من رغب فى الخير وطمح إلى الإسلام والنور ، ونقلت الإنسانية من عصر تسوده الفوضى وتذيع فيه مبادىء الطغيان والعبودية وسفك الدماء ونهب الأموال والأعراض ، إلى حياة فيها رضى وأمن ، وطمأنينة وسلام وحرية وعدل وإخاء ، ومعرفة وعمران وحضارة ، وحدود محدودة وضعت لسعادة الناس والجماعات والشعوب والإنسانية قاطبة .

قبس من الهدى والنور ، نزل به جبريل من السماء إلى الأرض ، على سيد الخلق ، وأكرم الرسل ، وأشرف من فى الوجود ، محمد صلوات الله عليه . فبلغه الناس ، وبشر بدعوته العرب والبشر كافة ، وأذاع مبادئه فى كل مكان ، فحملت إلى العالم السلام والعدل والحرية ، وفتحت صفحة جديدة فى تاريخ الإنسانية ، وأنقذت الناس من ضلال الجاهلية الأولى ، فتبارك الله رب العالمين .

« ألفاظ إذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة ، وإذا هى لانت فأنفاس الحياة الآخرة ، ومعان يتناهى عذوبة ترويك من البيان ، ورقة تستروح منها نسيم الجنان ، إذا هى بعد ذلك اطباق السحاب . توهموا السحر ما توهموه ، فلما أنزل الله كتابه قالوا هو السحر المبين » (١) وتصوروا الشعر ما تصوروه ، فلما سمعوا آياته البينة ، وبلاغته المتدفقة ، ورأوا هدايته النادرة ، وفصاحته

(١) إعجاز القرآن للرافعى

الباهرة ، وما فيه من روعة التصوير ودقة التعبير وشدة التأثير قالوا : أى والله إنه لشعر شاعر ، وسحر ساحر ، إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر ، كلا والقمر ، والليل إذا أدبر ، والصبح إذا أسفر ، إنها لإحدى الكبر ، وما هو بقول بشر ، إن هو إلا وحى يوحى ، ومعجزة تتحدى ، وبلاغة تتلى وتروى أشرقت بنوره السماء والأرض ، واهتدت بهديه الملائكة والبشر أجمعون .

نزول القرآن

وبينما كان الرسول الأعظم محمد بن عبد الله صلوات الله عليه يتعبد فى غار حراء ، فى يوم الإثنين لسبع عشرة خلت من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده الكريم ، وسنه أربعون سنة وستة أشهر وثمانية أيام ، أى فى السادس من شهر أغسطس عام ٦١٠ (١) ، نزل عليه جبريل بالرسالة الإلهية العظمى التى اصطفاه الله من بين الخلق لأدائها للبشر كافة : هدى ونورا وشفاء لما فى الصدور .

قال جبريل : يا محمد اقرأ

قال : ما أنا بقارىء

قال : اقرأ

قال : ما أنا بقارىء

قال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم » .

فكانت أول سورة نزلت من القرآن الكريم (٢) .

---

(١) سار على ذلك كثير من الباحثين ومنهم المرحوم الخضرى بك فى الجزء الأول من تاريخ الأمم الاسلامية ، وإن كان الرافعى يقول : إن ابتداء الوحى كان بمكة عام ٦١١ م (٣٤ إعجاز القرآن) .

(٢) يروى السيوطى آراء أخرى لبعض العلماء ، فبعض يزعم أن « ن » كانت أيضا أول ما نزل من القرآن ، وآخرون يقولون « المدثر » ، وآخرون يقولون إنها الفاتحة الخ (راجع ٢٩ وما بعدها ج ١ من الاتقان ط ١٩٤١) .

وأول سورة أعلنها الرسول بمكة هي « والنجم إذا هوى » .

وأول سورة نزلت بالمدينة بعد الهجرة هي « ويل للمطففين » .

استمر نزول القرآن بعد البعثة في مكة قبل هجرة الرسول صلوات الله عليه ، ثم بعد الهجرة والرسول الأكرم بالمدينة ، حتى توفى إلى رحمة الله عام ١١ هـ - ٦٣٢ م .

كان القرآن الكريم ينزل منجما مفرقا وفق الوقائع ، ومسايرة للحوادث وتدرجا في التكاليف ، وتنقلا بالتشريع حسب الطباع ومدى استعداد النفوس وكانت آخر آية نزلت من القرآن الحكيم قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا (١) » ، حيث نزلت في حجة الوداع ، ونزل قبلها بقليل سورة براءة .

وتم نزول القرآن الكريم قبل وفاة الرسول صلوات الله عليه في ثلاثة وعشرين عاما ، ما بين بعثته إلى وفاته ، كان في ثلاث عشرة سنة منها يقيم بمكة ، وطنه الذي ولد وربي ونشأ فيه ، وفي عشر السنين الأخرى يقيم بالمدينة بعد هجرته صلوات الله عليه من مكة حيث نشر الدعوة وحماها وأيدها .

ومجموع سور القرآن الكريم أربع عشرة ومائة سورة ، منها الطويل والقصير ، ومنها ، ما نزل في الموعظة والهداية ، وما نزل في التوحيد ومحاربة الشرك والأهواء ، وما نزل في التشريع ونظم العبادات والمعاملات وقوانين الأسرة والجماعة والحكومة الإسلامية ، وما نزل في أمور الآخرة والغيب وشرح تطور الإنسانية وقصص الأمم الماضية وبغيها ومصيرها المحتوم ، وتشتمل السور على كثير من هذه الأغراض .

---

(١) وفي الاتقان خلاف كثير حول آخر ما نزل من القرآن ، فقيل آخر آية نزلت : « يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة » ، وآخر سورة نزلت « سورة براءة » ، وقيل اخر اية نزلت اية الربا ، وقيل : « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله » — وكان بين نزولها وبين موت الرسول واحد وثمانون يوما ، و قيل تسع ليال وقيل اخر براءة الخ (٤٤:١ الاتقان وما بعدها).

والسور قسمان : مكى ومدنى .

فالمكى منها أرجح الآراء فيه أنه هو ما نزل قبل الهجرة ، والمدنى ما نزل بعدها(١) والسور المدنية اثنتان وعشرون سورة تبلغ نحو ثلث القرآن الكريم وهى : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال والتوبة والنور والأحزاب والقتال والفتح والحجرات والحديد والمجادلة والحشر والممتحنة والصف والجمعة والمنافقون والتغابن والطلاق والتحريم والعصر .

وما عدا هذه السور — وهى اثنتان وتسعون سورة — مكى .

سور القرآن مكية ومدنية

أما السور المكية فأظهر موضوعاتها هى :

١ — الدعوة إلى توحيد الله ومحاربة الشرك والأوثان .

٢ — تأييد رسالة محمد صلوات الله عليه وتحدى العرب بهذه المعجزة الخارقة وهى القرآن الكريم :

٣ — إثبات البعث والحساب والنشور واليوم الآخر والرد على من ينكر ذلك فى إفاضة وقوة حجة وتأثير .

٤ — قص قصص الأمم القديمة وعنادها وحجاجها مع الرسل والأنبياء وأصرارها على الضلال وما حل بها من المثلات تبصرة وذكرى لقوم يؤمنون .

٥ — محاربة التقليد ودعوة العقل البشرى إلى الاستقلال بالتفكير واتباع الحق من العقائد والطاعات ونبذ الأوهام والأساطير والخرافات والتفكير فى نواميس الله فى الكون .

وأما أهم موضوعات السور المدنية فهى ما يلى :

١ — تشريع النظم والقوانين للفرد والأسرة والجماعة والأمة لتسيير

---

(١) راجع ١٣ : ١ الاتقان للسيوطى ، وقيل المكى ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة ، والمدنى ما نزل بالمدينة . وقيل المكى ما كان خطابا لأهل مكة ، والمدنى ما كان خطابا لأهل المدينة (١٣ و ١٤ : ١ الاتقان) هذا وتسمى السورة مكية إذا كان أغلبها مكيا وتسمى مدنية إذا كان أكثرها مدنيا .

الإنسانية، إلى حياة كريمة مهذبة تليق بكرامة الإنسان خليفة الله فى الأرض إلى الفضيلة والخير والعدل والحق والأمن والسلم والعمران والحضارة .

٢ — الدعوة إلى الفضائل ومحاربة الرذائل بكل سلاح وكل وسيلة .

٣ — تقرير وحدة الإنسانية والأخوية البشرية العامة ،وتعزيز الصلات الاجتماعية بين الإنسان والإنسان ، وإلغاء الفروق بين الطبقات والجماعات والشعوب ، ورفع كرامة الإنسان الأدبية فى الحياة ، وتعزيز شخصية الإنسان وإيضاح رسالته،ورسم الأهداف الكريمة التى يجب أن يسير إليها ويعمل لها فى الحياة .

٤ — وضع شرائع الحرب والسلام ، التى تسير مع الإنسانية العالية ، وتوافق مصالح البشر فى الحياة الدنيا على اختلاف الزمان والمكان .

وعلى العموم ، فالسور المدنية قد احتوت على أكثر التشريع الإسلامى وأودعت أعظم الآداب الاجتماعية والسياسية ، التى تؤلف القلوب ، وتحوط الملك ، وتصون الشعوب .

وقصارى الكلام أن القرآن كتاب هداية ونور ، ودين ودنيا ، وخير عام ، وهو دستور الإنسانية المهذبة ، ووثيقة الحرية والمساواة والإخاء ، التى نالها الانسان على طول الأيام والأحقاب .

جمع القرآن

(١)

كان بعض الصحابة يكتبون ماينزل من القرآن ـ ابتداء أو بأمر الرسول صلوات الله عليه ـ على مايتفق لهم من العسب والألواح والرقاع واللخاف(١) وقطع الأديم وعظام الأكتاف والأضلاع وكل ماصلح للكتابة .

كان كلٌّ يكتب ماتيسر له كتابته ، وكان منهم بعضٌ قليل كتبوا القرآن

(١) العسب : جمع عسيب وهو جريد النخل، وكانوا يكشطون الخوص عنه ويكتبون فى الطرف العريض . واللخاف جمع لخفة بفتح فسكون وهى صفائح الحجارة .

كله ، والإجماع على : على بن أبى طالب ومعاذ بن جبل وعبدالله بن مسعود وزيد بن ثابت (١) ، وقبل وفاة الرسول عرض زيد القرآن عرضة على رسول الله صلوات الله عليه ، فنى عهده صلوات الله عليه كان القرآن مرتب السور والآيات ، ولكنه غير مجموع فى كتاب واحد .

وكان يحفظ القرآن كله أو بعضه كثير من الصحابة فى عهده عليه الصلاة والسلام ، وتوفى الرسول والقرآن محفوظ فى صدور الصحابة ، وفى الرقاع التى كانوا يكتبون آياته وسوره فيها .

وتقلد أبو بكر خلافة المسلمين ، ونهض بعبء الدعوة النبوية ، وأخذ يحارب أهل الردة فى معارك كثيرة ، كان منها غزوة أهل اليمامة التى مات فيها كثير من الصحابة والقراء رضوان الله عليهم ، ويقال: إن عدد من قتل فيها سبعون قارئا من الصحابة ، وخيف أن يكثر موتهم فى الغزوات والحروب .

ففزع أبو بكر وعمر عليهما رحمة الله من ذلك ، ورأى عمر جمع القرآن من صدور الصحابة ومن الألواح والعسب والأكتاف ، ويروى أنه دخل على أبى بكر فقال له : يا خليفة رسول الله إن أصحاب الرسول باليمامة يتهافتون تهافت الفراش فى النار وإنى أخشى أن لا يشهدوا موطنا إلا فعلوا ذلك حتى يقتلوا ، وهم حملة القرآن ، فيضيع القرآن وينسى ، فلو جمعته وكتبته(٢) .

ففكر أبو بكر فى الأمر واستشار فيه الصحابة ، وكان يفزع من أن يضع شيئا لم يأمر به الرسول الأعظم صلوات الله عليه ، ولذلك قال أبو بكر لعمر: أفعل مالم يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم !!

وأرسل أبو بكر إلى زيد بن يزيد يستشيره فى الأمر ، فكره ذلك ، فقال عمر لهما : وما عليكما لو فعلتما ذلك حتى ألهمهما الله به ، فأمر أبو بكر زيد ابن ثابت بجمع القرآن كله من الرقاع وصدور الرجال ، ونسخه فى قطع الأديم

(١) يروى أن زيد بن ثابت تعلم الفارسية من رسول كسرى ، والرومية من حاجب النبى والحبشية من خادم النبى ، والنبطية من خادمه أيضا (ص٦ ج ٣ العقد الفريد) . وكان كتاب الوحى حول رسول الله نحو الأربعين ، منهم جلة الصحابة رضوان الله عليهم .

(٢) راجع فى ذلك الإتقان ٩٨ : ١ وما بعدها .

والأكتاف والعسب ، وسمى أبو بكر هذه الألواح المكتوبة التى جمع فيها جميع القرآن الكريم مصحفا ، وحفظت هذه الصحف عند أبى بكر حتى توفى ثم عند عمر طول حياته ، ثم حفصة بنت عمر صدرا من ولاية عثمان .

وهذا هو الجمع الأول ، وقد حدث فى عهد أبى بكر على يد زيد بن ثابت(١) وبإشراف الخليفة وعمر وكبار الصحابة ، وكان الغرض منه جمع نص القرآن الكريم فى مجموعة واحدة . حتى لا يضيع شىء منه بموت الصحابة والقراء فى الغزوات والحروب .

(٢)

وفى عهد عثمان تفرق الصحابة والقراء فى الأمصار ، فكان ابن مسعود فى الكوفة وأبو موسى الأشعرى فى البصرة والمقداد بن الأسود فى دمشق ، وأخذ عنهم أهل تلك البلاد وجوه القراءة والترتيل مما أدى إلى تعدد القراءات واختلاف المسلمين فى قراءة القرآن اختلافا كثيرا ، حتى كان الواحد منهم يقول للآخر : قراءتى خير من قراءتك ، والآخر يقول : بل قراءتى ، واستمر الأمر على ذلك إلى أن شهد حذيفة ابن اليمان وهو صحابى جليل غزوة أذربيجان وغزوة أرمينية وشاهد هذا الاختلاف الوبيل وحذر من سوء المصير إذا استمر هذا الاختلاف .

فأرسل عثمان إلى حفصة يستأذنها فى أخذ الصحف التى جمع فيها أبو بكر القرآن فأذنت له . فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام وسعيد بن العاص بأن ينسخوها فى المصاحف ، وأمرهم بأن يرجعوا فيما اختلفوا فيه إلى زيد بن ثابت ، وما اختلفوا فيه جميعاً أن يكتبوه بلسان قريش ، فإن القرآن نزل بلسانهم ، فكتبوا مصحفا عرضوه على صحف حفصة ، فلم يختلف فى شىء . فرد عثمان صحف حفصة إليها ، وفرح بما عمل فرحا شديداً ، وهذا هو الجمع الثانى للقرآن الكريم .

---

(١) وكان يعاونه بعض كتاب الوحى وفيهم سالم مولى أبى حذيفة كما يروى .

حروف القرآن

الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن كانت مفرقة فيه ، فبعضه نزل بلغة قريش ، وهو معظمه ، ومانزل بهذه اللغة كتب بها أيضا ، وبعضه نزل بلغة هذيل ، وبعضه نزل بلغة اليمن فكتب بلغتها ، وهكذا . ولا يخفى أن القبائل التى نزل بعضه بلغتها يجوز لها أن تقرأ جميعه بهذه اللغة، لأن فى نزول بعضه بلغتها ترخيصا لها فى قراءته جميعه بهذه اللغة ، فالذى حصل فى زمن أبى بكر رضى الله عنه هو أنه جمع الآيات المتفرقة سورا ، فجعل كل آية بجوار صاحبتها طبقا للمحفوظ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بدون زيادة ولا نقص ، فجعل كل سورة على حدة ولم يرتبه اكتفاء بترتيبه فى صدور الحفاظ ، على أنه لم يغير شيئا من المكتوب بل أبقاه على حاله ، وأما عثمان رضى الله عنه فقد كتب مصحفا بلغة قريش خاصة ورتبه طبق المحفوظ .

فالأحرف السبعة كان بعض القرآن مكتوبا بها فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم كما أنها كانت محفوظة يتداولها الحفاظ فى القبائل ، ولم يوجد منها شيء فى مصحف عثمان ، لأنه كان مقصوراً على لغة قريش .

أما السبب فى اختلاف القراءات السبع بعد أن جمع عثمان الناس على قراءة واحدة ، فقد أجاب عنه بعضهم بأن القرآن قد تواتر عن النبى صلى الله عليه وسلم بلغات العرب على الوجه الذى تقدم ، ونقله القراء من الصحابة إلى الجهات المختلفة على هذه الحالة ؛ فتواتر نقله بلغات متعددة ، فلما كتب المصحف العثمانى وبعث به إلى تلك الجهات التى كان بها بعض القراء من الصحابة ، عملوا بما يمكنهم العمل به من ذلك المصحف ، فكل ما تلقوه متواترا عن الصحابة مما لا تدل عليه كتابة المصحف ثبتوا عليه وتركوا ما يخالف المصحف . قال الحافظ ابن حجر فى هذا البحث : إن السبب فى اختلاف القراءات السبع وغيرها أن الجهات التى وجهت إليها المصاحف كان بها من الصحابة من حمل عنه أهل تلك الجهة ، وكانت المصاحف خالية من النقط والشكل ، قال : فثبت أهل كل ناحية على ما كانوا تلقوه سماعا من الصحابة بشرط موافقة الخط ،

وتركوا مايخالف الخط امتثالا لأمر عثمان الذى وافقه عليه الصحابة ، لما رأوا فى ذلك من الاحتياطات للقرآن ، فمن ثم نشأ الاختلاف بين قراء الأمصار .

وقد يكون عثمان رضى الله عنه لم يحرم قراءة القرآن باللغات التى تواترت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا لما عساه أن يترتب على ذلك من فرقة بين المسلمين ، فكتب مصحفه ليكون مرجعاً يرجع إليه الناس عند الاختلاف ، فإذا قرأت قبيلة بلغتها المتواترة وأنكرت عليها الأخرى أمكنهم الرجوع إلى الأصل . وظاهر أن غرض عثمان ومن وافقه حفظ أصل القرآن وصون عباراته من التبديل والتحريف ، وذلك يحصل حتما بالإجماع على التمسك بنص ما كتب فى مصحفه ، أما غيره من المد والتسهيل والإدغام والإظهار ونحو ذلك مما لا يترتب عليه تغيير فى نص القرآن فلذلك مالاضرر فيه البتة ، وإلى ذلك يشير قوله صلى الله عليه وسلم لعمر : « ياعمر : القرآن كله صواب مالم تجعل رحمة عذابا أو عذابا رحمة » .

ويروى أن عمر سمع هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان ، فإذا هو على حروف لم يتلقنها عمر من رسول الله قال : فكدت أساوره فى الصلاة وتصبرت حتى سلم فلببته بردائى ، وانطلقت به أقوده إلى رسول الله ، فسمع منى وسمع منه ، وقال لكل منا : كذلك أنزلت ، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه .

وبعد ، فقبائل العرب التى نزل القرآن بلهجاتها هى :

قريش ـ سعد ـ ثقيف ـ خزاعة ـ هذيل ـ كنانة ـ أسد ـ ضبة ـ قيس وأحلافها . ثم ارتفعت هذه اللغات وبقيت لغة قريش ، وأصبح القرآن يقرأ بلغة قريش .

والقراء السبع الذين رووا القراءات السبع هم :

نافع بن أبى نعيم م ١٦٩ هـ	عبد الله بن كثير م ١٢٠ هـ
أبو عمرو بن العلاء م ١٥٤ هـ	عبد الله بن عامر اليحصبى م ١١٨ هـ

عاصم بن بهدلة الأسدى م ١٢٨ ﻫ حمزة بن حبيب الزيات م ١٥٦ ﻫ
على بن حمزة الكسائى م ١٨٩ ﻫ .

وهنالك سبع روايات تم عليها الاجماع ، وثلاث قوية السند ولم تصل إلى الإجماع ، وأربع أخرى بين القوة والضعف ، فجملة ذلك كله أربع عشرة قراءة .

آثار القرآن فى اللغة والأدب

القرآن كتاب العربية وناموس شريعة محمد صلوات الله عليه . . تعبد به المسلمون منذ بدأ الإسلام حتى اليوم ، وحفظوه ورددوه وقرأوه بلغات قريش التى نزل بها . وكان له أثر عظيم فى اللغة العربية وآدابها مما يمكن تصويره فيما يلى :

أما أثره فى اللغة فظاهر فيما يلى :

١ — وحدة اللغة واللهجات العربية فى لغة قريش ، وهى أفصح لهجات العرب لفظا وأبلغها أسلوباً وأعظمها نظماً ، وكان ذلك من أسباب وحدة المسلمين كافة ، إذ اتخذوا هذه اللغة القرشية لغتهم ، فزادتهم وحدة فى اللغة فوق وحدتهم فى الدين .

٢ — حفظ القرآن الكريم العربية من العفاء والانقراض ، كما انقرضت من قبل لغات كثيرة أصبحت فى عداد اللغات الأثرية ، فأصبحت العربية لغة القرآن الذى كفل الله بقاءه إلى يوم الدين .

٣ — والقرآن أول عامل فى ذيوع اللغة العربية وانتشارها فى شتى البلاد والأصقاع وأصبحت هى لغة الدين والسياسة والأدب والثقافة والقراءة والكتابة فى شتى بلاد العالم الإسلامى الواسعة ، وكثير من البلاد التى فتحها المسلمون هجر أهلها لغتهم الأصلية وتعلموا العربية واتخذوها لهم لساناً ليفهموا بها القرآن قانون الدين الخالد ، وليتفاهموا بها مع الحاكمين ، ومن يعاشرونهم ويخالطونهم من العرب .

٤ - بتأثير القرآن عكف الأدباء والرواة على جمع اللغة وآدابها وأشعارها وحكمها وبلاغتها وأمثالها ووصاياها وخطبها مما كان مادة للثقافة العربية على مر الأيام .

٥ - وقد ساعد القرآن على تهذيب ألفاظ اللغة وأساليبها ، فهجر المسلمون الكثير من الحواشي والغريب والمتنافر ، واختاروا العذوبة والسلاسة والسهولة والرقة فى اللفظ والنظم .

٦ - وسع القرآن الكريم نطاق اللغة باستحداث الألفاظ الإسلامية التى نقلت من معانيها إلى معان جديدة أتى بها القرآن الكريم . كلفظ المؤمن والمنافق والإسلام والصلاة والصوم الخ .

٧ - والقرآن هو الذى دفع المسلمين إلى العناية بشتى العلوم الدينية والعربية ووضعها ، مما كانت هى أساس صرح المدنية الإسلامية الباهرة .

وللقرآن أثر كبير فى الأدب العربى :

١ - فقد تأثر به المسلمون فى بلاغته وفصاحته وعذوبته . فلانت أساليبهم وعذبت ألفاظهم ورقت طباعهم ، واقتبسوا منه فى شعرهم ونثرهم ، والحق أنه هو الذى خرج أعلام البلاغة وفحول البيان والأدب من قديم .

٢ - أحيا القرآن الكريم فنوناً أدبية جديدة ، كالقصص وأدب الزهد وأدب التاريخ ، وأبطل سجع الكهان والهجاء الكاذب والفخر بغير العمل الصالح والخلق الكريم ، إلى غير ذلك من شتى الفنون الأدبية المرذولة .

٣ - رفع القرآن من شأن النثر بعد أن كان المقام الأول للشعر وحده من بين سائر فنون الأدب .

٤ - وبسببه وضعت علوم النقد والبلاغة لمعرفة وجه إعجاز الذكر الحكيم ، وكيف تحدى به العرب والناس كافة ، فملكهم الإعياء والعجز والقصور .

ولا غرو فالقرآن الكريم أول كتاب كتب باللغة العربية وهو مصدر آداب العرب جميعها .

رأى جديد فى فواتح سور القرآن

الآراء فى معانى ابتداءات سور القرآن الكريم كثيرة ؛ والاختلافات حولها متعددة ؛ أهى أسماء الله تعالى ، أم هى أسماء للسور نفسها ، أم هى حروف لا أسماء ، وما معناها حينئذ ؟ . أم أن الله تعالى هو الذى ينفرد بعلم ذلك ، وعقل الإنسان يعجز عن فهم أسرار الله تعالى فيها ، أم هى رموز لمعان دينية أو صوفية . الخ .

اختلاف كثير لا حصر له، ولقد رجح من قبل الإمام جارالله الزمخشرى أن هذه الفواتح عدة حروف هجائية صدر الله بها الكثير من سور قرآنه ليقول للعرب : « إن هذا القرآن المنزل على محمد من جنس كلامكم ، مكون من مثل هذه الحروف الميسورة لكم ، نستفتح بها الحديث معكم ، فإن كنتم فى ريب من إلهية هذا الكتاب وقدسيته فدونكم مجال التحدى والإعجاز ، فأتوا بمثله إن استطعتم » ، وسبقه إلى ذلك الباقلانى .

ولقد عرض لى رأى جديد فى هذا الموضوع ، وخلاصته هى : افتتح الله سبحانه وتعالى تسعا وعشرين سورة من سور القرآن بهذه الابتداءات : ألم ألمر - المص - كهيعص - طسم - طس - يس - حمعسق - حم - ص - ق - ن - طه - ألر : وهى كلمات مكونة من بعض حروف الهجاء ، وتقرأ هذه الكلمات بقراءة الحروف الهجائية المركبة منها مع إسكان هذه الحروف ، فمثل « ألم » تقرأ هكذا « ألف لام ميم » ، والحروف التى كررت فى هذه الفواتح هى أربعة عشر حرفا من حروف الهجاء البالغة تسعة وعشرين ، ومجموع عدد الحروف المكررة ثمانية وسبعون حرفاً .

فما معنى بدء بعض سور القرآن بهذه الحروف المفردة أو المركبة ، يريد الله عز وجل بذلك التنويه بالعربية التى هذه بعض حروفها ، والإشادة بالقرآن الكريم - كتاب العربية الخالد - الذى تلك بعض آياته .

وكان الله عز وجل يقول للناس : هـذه هى اللغة العربية لغة البيـان والفصاحة وهذا هو القرآن كتاب الله المعجز ، وكتاب العربية المبين الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

والصلة بين العربية والقرآن الكريم صلة معروفة لا يجهلها إنسان ، فقد نزل القرآن الكريم باللغة العربية ، وجاء فى أعلى درجاتها بلاغة وبيانا وفصاحة نزل على محمد النبى العربى العظيم ، فكان معجزته الباقية الخالدة ، وعلى الأمة العربية التى اختارها الله لتكون جنود الله والحق ومحمد فى نشر الهدى والنور والتوحيد والعلم والثقافة فى العالم كافة ، وكان للقرآن الكريم أثره الخالد فى وحدة العربية وحفظها ونشرها وذيوعها فى جميع الأرجاء ، وفى تهذيب أساليبها وألفاظها ، ورقى معانيها وخيالاتها وأفكارها ، وفى السمو بأغراض الكلام فيها ، إلى ماسوى ذلك من آثاره الباقية على العرب كافة ، فكأن الله عز وجل يشير بذلك إلى أن هذا القرآن الكريم أنزله من عنده مجداً للعربية وآدابها ، وتكريماً للعرب وسمواً بمنزلتهم فى قيادة الحياة الإنسانية ، فالقائد الأعظم الذى اختير لنشر هداية السماء فى الأرض هو محمد صلوات الله عليه وهو عربى ، وذلك الناموس الكريم والدستور الخالد الذى بين الله فيه رسالة محمد ودعا فيه إلى الخير والحق والعدل والتوحيد والطهر والإحسان هو القرآن وهو كتاب عربى مبين ، وكأنه يوحى إلى هذه الأمة العربية : أن آمنوا بمحمد ودعوته وبكتابى ورسالته ، فهما فخر لكم على مر الأيام ، ومجد سيطوق أعناقكم طوال الأجيال والأحقاب .

وخلاصة رأيى هذا أن هذه الابتداءات تشير إلى الصلة الوثيقة بين القرآن والعربية ، وإلى أن هذه الرسالة السماوية وهى آخر الرسالات نزل بها القرآن العربى المبين ، واختير لنشرها محمد أكرم العرب والخلق أجمعين ، وإلى أنها ستكون مجداً للعرب والعربية طوال العصور .

مناهج المعرفة فى القرآن الكريم

يقول الله تعالى : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ، ويتبع كل شيطان مريد(١) » ، ويقول : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، وإذا قيل لهم : اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ؟(٢) » ، ويقول : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثانى عطفه ، ليضل عن سبيل الله ، له فى الدنيا خزى ، ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت يداك ، وأن الله ليس بظلام للعبيد(٣) » .

فى هذه الآيات الكريمة تحديد واضح لمناهج المعرفة ، ومذاهب التفكير والفهم عند البشر ، وقد عنى القرآن الكريم فى هذه الآيات ؛ وفى سواها مما لم نذكره ، أن يوضح للبشر دون لبس منابع الحقيقة واضحة بينة ، حتى لا يضلوا فى بيداء الحياة ، أو يتشعب بهم الظن فى مجال البحث واليقين ، وحتى يبنوا عقائدهم وآراءهم على أساس سليم مستقيم .

والقرآن الكريم يذكر فى الآية الأولى صنف بعض المشركين المتمردين على عقيدة التوحيد ، الدائبين على الحجاج والجدل فى الله ، دون أن يرتكز جدلهم على دعامة من العلم والبرهان والمنطق ، ودون أن يخضع نقاشهم لحكم العقل والإنصاف ، وإنما يخبطون خبط عشواء ، ويسيرون فى صحراء ظلماء ، لا يفرقون بين حق وباطل ، ولا يحاولون الرجوع إلى الحق أو التزامه أو الدفاع عنه .. فهم ينازعون فى ذات الله وفيما يجوز عليه وما لا يجوز من صفات وأفعال ، ويقولون من الأباطيل ما يقولون ، ملابسين للجهل ، ويتبعون فى أقوالهم وأعمالهم وعقائدهم كل شيطان عات ضال مضل عن سبيل الله .
وذلك من أشباه : أبى جهل ، والأخنس بن شريق والنضر بن الحارث وسواهم ، وكان النضر يقول : الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين ، ويقول :

(١) أى متمرد متجرد للفساد والاضلال — آية ٣ سورة الحج .
(٢) آية ٢٠ و ٢١ سورة لقمان . (٣) الآيات ٨ و ٩ و ١٠ سورة الحج .

« إن ما يأتيكم به محمد هو ما كنت أحدثكم به عن القرون الماضية » ، ويقول « الله غير قادر على إحياء من بلى وصار ترابا » ، وكان يذهب إلى فارس فيشترى كتب الفرس وأساطيرهم فيحدث بها قريشا ، ويقول : « إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بحديث رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة » ، والآية عامة فى كل من أمعن فى الجدال دون علم أو برهان ، ومن يضل ويضل بذلك عن سبيل الله ودينه وشريعته .

وكذلك الآيتان الأخريان من سورة لقمان تؤكدان هذه المعانى ، وأن من الناس من يدأب على الجدل فى ذات الله وصفاته ، أو فى دينه وشرائعه ، دون علم واستبصار ويقين مأخوذ من دليل عقلى ، ودون هدى وإرشاد مستفاد من هاد ومرشد من الرسل والأنبياء ، ودون كتاب منير واضح جلى هاد لاخفاء فى هديه ، منزل من الله عز وجل إلى رسول من رسله المكرمين فهو لايؤمن بالدين ، وإنما يؤمن بالأوهام والتقاليد والعادات الموروثة والأساطير الكاذبة ، يتخذها منهاجا له فى البحث ، ويهمل عقله إهمالا ، ويفسد فطرة الله فى نفسه إفسادا شديداً ، وهل هناك ماهو أضر على الإنسانية من ذلك التقليد الأعمى ، والاتباع المرذول ، وهل حارب القرآن الكريم شيئا كما حارب التقليد وصنيع المقلدين ؟ ولذلك ذهب الأئمة إلى أن التقليد فى أصول العقائد غير جائز ، حتى قال الرازى : « وأكثر العلماء على أن التقليد لا يكفى فى أصول العقائد » ويؤكد القرآن أن مثل هؤلاء إنما يتبعون سبيل الشيطان وأن الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير .

أما الآيات الثلاثة الأخيرة وهى من سورة الحج ، فهى كذلك تأكيد لهذه المعانى الشريفة وتقرير لها ، وتوضيح لصنيع هؤلاء الناس ؛ الذين يتخذون الجدل بالباطل وسيلة للضلال والإضلال عن سبيل الله ، ولا يرجعون فى جدلهم فى الله إلى العلم أو الهدى أو الكتاب المنير ، وهنا يفسر المفسرون العلم بالعلم الضرورى ؛ والهدى بالاستدلال والنظر الذى يهدى إلى المعرفة ، والكتاب المنير بالوحى ، وإن كنا لانرى مانعا فى تفسيرها بما فسرناها به آنفا ،

أو بما فسرها به المفسرون هنا ، أو بتفسير آخر نذهب إليه ونرجحه ، وهو أن المراد بالعلم الحقائق التى لاتستقر فى النفس ، ويرشد إليها التفكير والبحث والدليل والتجربة . والهدى المراد به الإلهام النفسى الذى تمده فطرة الله فى النفس الانسانية التى فطرها الله على التدين والإيمان . والكتاب المنير هو المنزل من السماء على رسـول من الرسل يدعو إلى مبادئه ، ويبشر بشريعته ، وتكون أقواله وأفعاله تفسيراً لما تضمنه من أحكام وآداب ، وشرائع وشعائر وعقائد ومثل . . ويؤكد الله عز وجل هنا أن الإعراض والاستكبار عن السماع من الرسل ، هما ديدن هؤلاء الناس الذين حاربوا الرسالات الإلهية ، وضلوا وأضلوا عن سبيل الله ، وأن لهم خزيا وهوانا فى الدنيا ، وعذابا أليما فى الآخرة ، بما اجترحوا من سيئات وما اقترفوا من آثام فى حق الله والعقل والإنسانية والشعوب والجماعات . والله عادل فى عقابه لا يظلم أحداً ، ولا شك فى أن مثل هؤلاء يستحقون هذا العذاب ، فقد صدوا عن الله ودينه وتوحيده، وجادلوا فى الله بمجادلة عن جهل وعناد واستكبار ، دون أن يخضعوا فى جدلهم وحجاجهم لأصول العقل ، أو برهان العلم ، أو هداية السماء فإذا ما حاولت إقناعهم وإرشادهم وهدايتهم أصروا واستكبروا استكبارا وجادلوا بالباطل وقالوا زوراً وبهتاناً . وأخذوا يثرثرون بما لا يعقله العقل ويهرفون بما يزينون من الشرك والضلال والإضلال .

وهنا نجد القرآن الكريم يبنى صرح الحياة الإنسانية المثلى . ويقيم دعائم المدنية والحضارة ، على أساس رائع عظيم ، من الفطرة والعقل وهداية السماء

فهذه الآيات وإن تضمنت فى عمومها بيان جزاء الصادين عن دين الله ، الذين يضلون ويضلون ويلوون رؤسهم عناداً واستكباراً ، فى الدنيا والآخرة، كما تضمنت التحذير من الجدل والمناظرة فى العقيدة بالهوى والقياس لأن فى ذلك الضلال والابتداع والتحذير من التقليد الأعمى المرذول ، وتعطيل حكم العقـل بالسير على منهج الآباء والأجداد فى كل شىء . حتى فيما يؤدى إلى الضلال والبهتان والشرك ، ومع أنها تضمنت كذلك نفى الظلم عن الله ببيان أن

الإنسان هو الذى يجنى على نفسه بعناده واستكباره ومشايعته للباطل . . فهى كذلك تقرر أصول المعرفة الثلاثة : العلم الفطرى المركوز فى طباع الناس كافة الذى يرشد إلى الخير والفضائل والتوحيد والإيمان ، والعلم النظرى المستفاد من الحجة والاستدلال والبرهان والبحث والتجربة ، والعلم الإلهى المستفاد من الوحى والكتب السماوية المنزلة على الرسل صلوات الله وسلامه عليهم . وتبين الآيات أن المعرفة لا يمكن اقتباسها من غير هـــذه المناهج الثلاثة ، وأن جميع طرق المعرفة توصل إلى الإيمان والتوحيد ومعرفة الله .

فليس اتباع الوهم والخيال والأساطير ونزعات الهوى والشيطان ، مما يرشد إلى معرفة ، أو حق . . وليس كذلك التقليد ومحاكاة الناس واتباع مناهج الآباء والأجداد دون تحكيم للمنطق والعقل والتفكير ، مما يوصل إلى نتيجة يطمئن إليها العقل والقلب جميعاً . . وليس هناك شىء ما يقود إلى حظيرة الحقيقة المقدسة سوى المناهج الثلاثة ، التى تؤدى إلى الخير والهدى والفلاح والفوز فى الدنيا والآخرة .

والفطرة الإنسانية فى البشر تدعو دائماً إلى الإيمان ، وإلى الاعتقاد بالله وبالرسالات ، وهى شاهد صدق على ضلال الماديين والدهريين والالحاديين وغيرهم من فرق الضلال .

والعقل السليم يؤدى دائماً إلى الاعتقاد بأن مسخر السموات والأرض ومافيهما إنما هو إله عظيم قادر على كل شىء يستحق وحده دون سواه العبادة ، ولا شريك له فى الكون . . وهو يرشد بمعونة الوحى إلى ما غمض فهمه من أمور الغيب والآخرة .

ويطول بنا الحديث لو حاولنا أن نشرح هذه الحقائق الأزلية الخالدة التى دعا إليها القرآن الكريم ، وأثرها على الحياة والإنسانية والحضارة ، فلنقف عند هذا الحد ، تاركين للعقل المجال ليحكم ويفهم ويبحث .

إعجاز القرآن فى حكم الذوق الادبى

ونحن لن نتناول الإعجاز من شتى جوانبه ونواحيه ، وإنما نوجز لك القول إيجازاً ، ونتركك لذوقك ونفسك ، حتى تعرف أسرار الإعجاز ، ونقف على خصائصه .

ولعلك قد قرأت تحليل عبدالقاهر وعلماء البلاغة للآية الكريمة : « ربِّ إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً » ، أو شرحهم للآية الحكيمة : « وقال اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها إن ربى لغفور رحيم ، وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ، ونادى نوح ابنه وكان فى معزل : يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ، قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء . قال لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ، وقيل يا أرض ابلعى ماءك وياسماء اقلعى ، وغيض الماء وقضى الأمر ، واستوت على الجودى ، وقيل بعداً للقوم الظالمين » .

ولعلك على ذكر من هذه الوجوه البلاغية التى يذكرونها فى الموازنة بين قوله تعالى : « ولكم فى القصاص حياة » وقول أكثم بن صيفى : القتل أنفى للقتل ، ولعلك قرأت ما كتبه الزمخشرى فى بلاغة كثير من الآيات القرآنية الحكيمة أوما كتبه فى قوله تعالى : « وماقدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ؛ سبحانه وتعالى عما يشركون » إلى قوله تعالى : « وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون » ، أو ما دونه علماء البلاغة فى بلاغة الآية الكريمة : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين »

فكل ذلك لا يضيرك على أى حال فى فهم أسرار بلاغة القرآن وإعجازه ، وهو من جهة أخرى وسيلة لتربية ذوقك وملكتك فى النقد والبيان .

ولكننا نعود بك إلى فطرتك الأدبية وحدها ، فنطالبها بالفهم والنقد والحكم فى قضية الإعجاز . وأنت تعلم أن الأمة العربية أمة تحب البلاغة وتعشقها

وتجيدها ويهزها البيان الجيد والفصاحة الرائعة ، وفيها مقاول البلاغة ومصاقع الخطباء وأعلام الشعراء ، لا ترى لأحد عليها فخراً ، ولا تحسب روعة البيان وسحر الكلام إلا لها . وكانت كما يقول الجاحظ . أكثر ما كانت شاعرا وخطيبا وأحكم ما كانت لغة ، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله وتصديق رسالته ، وهو فى ذلك يحتج عليهم بالقرآن ، ويدعوهم صباح مساء إلى أن يعارضوه إن كان كاذبا بسورة واحدة أو بآيات يسيرة ، فكلما ازداد تحديا لهم بها وتقريعا لعجزهم عنها تكشف عن نقصهم ما كان مستورا ، وظهر منه ما كان خفيا ، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة قالوا له : أنت تعرف من أخبار الأمم مالا نعرف فلذلك يمكنك مالا يمكننا ، قال : فهاتوها مفتريات فلم يرم ذلك خطيب ولاطمع فيه شاعر ولاطمع فيه أحد يتكلفه ، ولو تكلفه لظهر ذلك ، ولو ظهر لوجد من يستجيده ويحامى عليه ويكابر فيه ويزعم أنه قد عارض وقابل وناقض ، فدل ذلك على عجز القوم مع كثرة كلامهم وسهولة ذلك عليهم وكثرة شعرائهم وكثرة من هجاه منهم وعارض شعراءه وأصحابه وخطباء أمته ، والعرب لهم القصيد العجيب والرجز الفاخر والخطب الطوال البليغة والقصار الموجزة ، ولهم الأسجاع والمزدوج واللفظ المنثور ، ثم يتحدى به أقصاهم بعد أن أظهر عجز أدناهم ، وهم أشد الخلق أنفة وأكثرهم مفاخرة ، والكلام سيد عملهم وقد احتاجوا إليه ، والحاجة تبعث على الحيلة فى الأمر الغامض ، فكيف بالظاهر الجليل المنفعة ؟

* * *

وبعد فأى أثر أدبى أعجبك : « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » لامرىء القيس » ، وكمرثية ابن الرومى لولده :

بكاؤكما يشفى وإن كان لا يجدى فجودا فقد أودى نظيركما عندى

وكوصف البحترى لإيوان كسرى :

صنت نفسى عما يدنس نفسى وترفعت عن جدا كل جبس(1)

---

(1) الجدا : العطاء ، الجبس : الجبان اللئيم .

وكمرثية المعرى للفقيه الحنفى :

غير مجد فى ملتى واعتقادى نوح باك ولا ترنم شاد

وكقصيدة بن زيدون :

أضحى التنائى بديلا من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا

وكقصيدة المتنبى فى سيف الدولة :

أتوك يجرون الحديد كأنما سروا بجياد مالهن قوائم
وقفت ومافى الموت شك لواقف كأنك فى جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

أو قصيدته فى كافور :

عيد بأية حال عدت ياعيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد ؟

أو قصيدة أبى تمام فى المعتصم وفتح عمورية :

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب

أليس سر هذا الإعجاب هو خصائص هذه الآثار البيانية والأدبية . وأليس مرجعه إلى الشعور وحرارة العاطفة وروعة التصوير وجمال النظم وإحكام البيان ؟

فإذا وقفت أمام نهج البلاغة للإمام على بن أبى طالب ، أو كليلة ودمنة لابن المقفع . أو أمام البؤساء ترجمة حافظ إبراهيم ، أو حيال «ماجدولين» للمنفلوطى ، أو «مجنون ليلى» لشوقى ، أو «الأيام» لطه حسين ، أو «على هامش السيرة» له ، أو «عبقرية عمر للعقاد . فأعجبك وراعك ، وسحرك ، ماتجد هذه الآثار الأدبية الكاملة من حذق وبراعة ولطف حيلة وبلاغة تصوير ، أفليس مرجع ذلك كله إلى خصائص هذه الآثار الأدبية وشخصية مؤلفه الأديب أو الشاعر أو الخطيب أو الكاتب ، واكتمال فنه الأدبى ، فى أثره المعجب ؟ وألست تجد من ذلك الكثير من الآثار والنصوص ؟

فإذا ما ترقى بك ذوقك فى الحكم الأدبى ، فقلت : أنا لا أستجيد من

الآثار الأدبية إلى الآثار الخالدة على مر الأيام، والتي تقرؤها وتعيد قراءتها فتجد نفسك كما بدأت متلهفة معجبة مأخوذة بجلال هـذا البيان وعظمته وعبقرية صاحبه، وتجد هذا الأثر الأدبي أمام ذوقك وطبعك غضا ناضرا باهرا كأنما كتبه صاحبه لساعتك التي أنت فيها، وتجد ما فيه من حديث عن النفس الإنسانية، وعن الحياة وعبرها وعظاتها وأحداثها، وعن البشر وأخلاقهم ومطامحهم وألوان تفكيرهم في الحياة، وعن الأهداف المثلى للإنسانية كافة، والمبادىء الشريفة التي يجب أن تكون دستور الأمم والجماعات والأفراد تجد ما فيه من ذلك كله جديداً كأنه كتب لهذا العصر، إذ يصف الحياة التي يحياها الناس؛ وتحياها أنت معهم.. فقل لي بربك: هل تجد أثراً ترفعه في نفسك إلى هذه المنزلة؛ وتراه مستوفيا لهذه الخصائص، وتطمئن نفسك حين تقول: هذا هو ضالتي المنشودة وطلبتي المأمولة وبغيتي المرتجاة؟ وهل تجد أثراً سلم له ذلك كله وسلم من القصور والعيب والمؤاخذة وسقطات الطبع والأسلوب والنظم والفكرة؟ وهل تجد له ذلك كله مع طوله وإحكامه وروعته وجدته ونبل دعوته وأهدافه وجلال غايته ورسالته، وبعد مرماه وعمق منزعه، وأنه يتناول الإنسانية كافة والعصور قاطبة، ويصلح لكل مكان وزمان، ولا يبلى مهما توالت الأيام والعصور؟.

إي وربي، إن هذا لهو الغاية البعيدة والأمل المحال، والسر الدفين في ضمير الأيام، والكنز المخبوء في جوف صحراء عرضها الأرض والسماء.

ولن تجده مهما حاولت أن تجده إلا في كتاب واحد وأثر أدبي خالد، وفي هذا البيان ذي المجد الطريف والتالد، إي وربي، إنك لن تجده إلا في القرآن الكريم والذكر الحكيم والكتاب المعجز والأثر الخالد، وفي هذا البيان الكامل والبلاغة الساحرة والفصاحة النادرة والآيات البينات الباهرة.

إي وربي، وهل تجد أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه؟ أو هل ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تشاكلا وروعة من نظمه العجيب وأسلوبه الغريب المخالف لأساليب كلام العرب في نظمها ونثرها؟ أو هل تجد هذه

الروعة التى تجدها له فى قلوب السامعين وأسماعهم سواء المصدق منهم والجاحد ، وتلك الجدة التى تراها له على مر الأيام وتوالى العصور ؟ .

وإذا لم تصمد إلى هذه المرتبة البعيدة إلا بكتاب واحد هو القرآن الكريم ، ثم حاولت الموازنة بينه كله أو بعضه أو القليل الأقل منه وبين ماسواه من الآثار الأدبية ، فلم تجد مجالا للموازنة ولا موضعا للمشابهة لبعد ما بين الأثرين كبعد ما بين السماء والأرض . فهل ذلك إلا لأنه كتاب معجز وأنه آية الآيات والناطق بصدق إعجازه وعظمة بلاغته .

وقد يقول معاند أو مكابر : أين أنت وآداب اللغات ؟ وأين أنت وما فيها من آثار أدبية خالدة ؟ فلشكسبير وجوته وهوجو ولغيرهم من أفذاذ الغرب الكثير من الآثار الخالدات . بل أين أنت من الكتب السماوية المقدسة ؟ وأين أنت من « مزمار داود » وحده ؟ أفلا يشبه أثر من هذه الآثار كلها القرآن الكريم فى مكانته وبلاغته وإعجازه ؟ وأنا أقول لك أيها القارىء الكريم : لعلك قد قرأت بعض الآثار الأدبية لهؤلاء الأعلام الخالدين فى الأدب . ألست تجد شكسبير مثلا فى أية قصة من قصصه وفى جميع آثاره مترجما عن عواطف النفس الإنسانية معبرا عن آمالها وآلامها مجيدا الحديث عنها ؟ ولكن هل تجد له هذا السمو والرفعة ونبل الدعوة وجلال الغاية ، وعظمة الهدف والرسالة ، ودقة التحليل للعواطف والمشاعر والنفوس الإنسانية كافة ؟ وهل تجد له هذا التوجيه الجديد للبشرية جميعا ، وهذا الدعم القوى لمبادىء العدالة والحق والحرية والإخاء والمساواة فى الحياة ، كلا وربك ، ولن تجد لأعظم من شكسبير شيئا من ذلك قليلا أو كثيراً . فضلا عن خصائص الفن الأدبى الرائع الكامل التى لن تجد مايشبهها فى غير القرآن الكريم .

وهاك أروع مافى الكتب السماوية المقدسة بيانا ، وهو مزامير داود . خذ أية قطعة منها وليكن « المزمور الأول » ؛ وهو بنصه كما فى الكتاب المقدس :

« طوبى للرجل الذى لم يسلك فى مشورة الأشرار ، وفى طريق الخطاة لم يقف ، وفى مجلس المستهزئين لم يجلس ، ولكن فى ناموس الرب مشورته، وفى ناموسه يلهج نهارا وليلا ؛ فيكون كشجرة مغروسة عند مجارى المياه، التى تعطى ثمرها فى أوانه ، وورقها لا يذبل ، وكل ما يصنعه ينجح .

ليس كذلك الأشرار ، لكنهم كالعصافة التى تذريها(١) الريح ، لذلك لا يقوم الأشرار فى الدين ، ولا الخطاة فى جماعة الأبرار ، لأن الرب يعلم طريق الأبرار ، أما طريق الأشرار فتهلك » .

ونحن مع تقديرنا لهذا النص الدينى ، ومع علمنا بأنه مترجم ، نعود بك إلى ناحية أخرى فى الموازنة ، وهى أنه شتان ما بين هذه الروح والقرآن الكريم ، ومن المحال الموازنة بين ذلك وبين مثل قوله تعالى : قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين » ، أو مثل قوله تعالى : « ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا » ، أو مثل قوله تعالى : قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون » . . . إلى غير ذلك من روائع بلاغات القرآن الكريم .

وبعد ، فإن القرآن كله معجز . وهو نمط فريد رائع ، ومستوى رفيع شريف ، من البلاغة والفصاحة والبيان والروعة والسحر ، والأخذ بمجامع القلوب ومشاعر النفوس ، فكله منهج واحد فى النظم ، ودرجة واحدة فى الفصاحة ، « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا (٢) » .

وأخيراً نقول لك : إنك أيها الناقد الحصيف حين تحلل أثراً أدبيا ما ، تكشف عن كل ما يتصل بهذا الأثر من عوامل البيئة والعصر ، ومن شخصية

(١) هذا خطأ والصواب : تذروها .

(٢) وذهب بعض علماء البلاغة إلى أن بلاغة القرآن تتفاوت مع الإعجاز ، راجع تفصيل ذلك فى كتب البلاغة وفى الإتقان للسيوطى ص ٢١٠ ج ٢ .

صاحبه ، وتوازن بينه وبين مايشبهه من الآثار ، وتبين خصائص فنه الأدبى ومايوجه إليه من أهداف ، ومايدعو إليه من آراء وأفكار ، ثم تضعه بعد ذلك فى منزلته الصحيحة من البيان والأدب والتفكير الإنسانى . . . ولبحث قضية الإعجاز يكون عليك :

١ — أن تبحث عن البيئة الأدبية التى نزل فيها القرآن الكريم ، وأن تدحض أنه كلام بشر ، وأن تثبت ذلك بالحجج الدامغة .

١ — ثم عليك أن تحلل خصائصه الأدبية والفنية تحليلا كاملا ، وتوازن بينه وبين شتى الآثار الأدبية الخالدة .

وبعد هذه الدراسة تتفهم أسرار إعجازه

آراء فى الإعجاز

(١)

عنى العلماء من قديم بالتأليف فى إعجاز القرآن الكريم ، ومن أشهر هذه المؤلفات :

١ — إعجاز القرآن لأبى عبيدة المتوفى عام ٢٠٧ هـ ، ولعل الذى دعاه إلى تأليفه هو الرد على بعض المعتزلة الذين ذهبوا إلى أن فصاحة القرآن الكريم غير معجزة بنفسها .

٢ — نظم القرآن لإمام العربية الجاحظ المتوفى عام ٢٥٥ هـ ، وقد كشف فيه الجاحظ عن أسرار إعجاز القرآن الكريم بأسلوبه البليغ، وبيانه الفصيح المأثور .

٣ — إعجاز القرآن فى نظمه وتأليفه لأبى عبد الله محمد بن يزيد الواسطى المتوفى عام ٣٠٦هـ ، وقد شرحه عبدالقاهر الجرجانى شرحا كبيرا سماه المعتضد ، وشرحا آخر أصغر منه .

٤ — نظم القرآن لابن الإخشيد ، وكذلك لابن أبى داود م ٣١٦ هـ .

٥ - كتاب إعجاز القرآن للرمانى ٣٨٣ هـ ، وكذلك للامام الخطابى م ٣٨٨ هـ ، وكذلك للإمام القاضى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى م ٤٠٣ هـ

٦ - دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى م ٤٧١ هـ .

٧ - كما ألف فى الإعجاز فخر الدين الرازى م ٦٠٦ هـ ، وابن أبى الإصبع م ٦٥٣ هـ ، والزملكانى م ٧٢٧ هـ . والرافعى المتوفى عام ١٩٣٧ .

(٢)

ولقد كان الجعد بن درهم فى عصر بنى أمية يقول : إن فصاحة القرآن الكريم غير معجزة (١) ، وجاء بعده أبو اسحاق إبراهيم النظام المعتزلى المشهور ، فذهب إلى أن سبب الإعجاز هو الصرفة ، ومعنى هذا أن القرآن لا يرتفع من الناحية البيانية عن طاقة البشر وقدرتهم ، لولا صرف الله لهم أن يأتوا بمثله ، ويروى عنه رأى آخر ، وهو أن الإعجاز إنما كان من حيث إخبار القرآن الكريم بأنباء الغيب الماضية والمستقبلة .

ولكن الجاحظ يثبت الإعجاز للقرآن الكريم ، ويرجعه إلى بلاغته الساحرة ، وخصائصه البيانية الرائعة ، ونظمه العجيب ، وفصاحته الباهرة ، فالقرآن فى الذروة من البلاغة ، وفى القمة من الإعجاز ، وقد تحدوا به فلم يقدروا . وسجل عليهم العجز عن معارضته ، واعترف أساطين البلاغة منهم ببلاغته ، حتى قال الوليد بن المغيرة بعد أن سمع القرآن من الرسول : والله مافيكم رجل أعلم بالشعر منى ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله مايشبه الذى نقول شيئا من هذا ، ووالله إن لقوله الذى يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه » .

وعلى نهج الجاحظ سار عبد القاهر الجرجانى صاحب دلائل الإعجاز ، الذى دافع عن إعجاز القرآن الكريم ، ورجعه إلى خصائص النظم العربى ودقائقه ، وما « تجدد (٢) بالقرآن من عظيم المزية ، وباهر الفضل العجيب

(١) سنعود إن شاء الله فى موضع آخر إلى هذا الرأى بالبحث والنقد

(٢) ص ٦ المدخل إلى دلائل الاعجاز من الطبعة الثانية .

من الوصف ، حتى أعجز الخلق قاطبة ، وحتى لم يحر لسان ، ولم يبن بيان ، ولم يساعد إمكان ، وكما يقول عبدالقاهر أيضا : « أعجزتهم[1] مزايا ظهرت لهم فى نظمه ، وخصائص صادفوها فى سياق لفظه ، وبدائع راعتهم من مبادى آيه ومقاطعها ، ومجارى ألفاظه ومواقعها ، وفى مضرب كل مثل ومساق كل خبر ، وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة ، وعشراً عشراً ، وآية آية فلم يجدوا فى الجميع كلمة ينبو مكانها ، بل وجدوا اتساقا بهر العقول ، وأعجز الجمهور » .

أما القاضى الباقلانى فقد أحصى جملة وجوه إعجاز القرآن فى ثلاثة : مافى القرآن من الإخبار عن الغيب مما لايقدر عليه البشر ، ولا سبيل لهم إليه . ومافيه من أخبار الأمم القديمة ، مع أمية الرسول الكريم وعجيب تأليفه . وتناهيه فى البلاغة إلى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه . . وقد شرح الباقلانى وجوه الاعجاز فى نظم القرآن الكريم ، وتحدث عن التحدى والإعجاز وكل مايتصل بهذا الباب ، وفى كتابه المشهور « إعجاز القرآن الكريم » ، الذى قال فيه ابن العربى : إنه لم يصنف كتاب مثله .

وتحدث القاضى عياض فى كتابه « الشفاء » عن إعجاز القرآن الكريم ، ورجعه إلى وجوه أربعة : أولها : حسن تأليفه والتئام كلمه ، وفصاحته ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة ، وثانيها : صورة نظمه العجيب والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها . وثالثها : ماانطوى عليه من الإخبار بالمغيبات ، ورابعها : ماأنبأ به من أخبار القرون السالفة ، والأمم البائدة ، والشرائع الدائرة (٢) .

ومن العلماء من يذكر من وجوه الإعجاز : جدة القرآن على التلاوة ، وجمعه لعلوم ومعارف لم يحط بها أحد من علماء الأمم ، وماحواه من أخبار الأولى والآخرة ومشاكلة بعض أجزائه بعضا ، وحسن ائتلاف أنواعها

---

(١) ص ٢٢ دلائل الاعجاز .
(٢) ص٢١٧ الشفاء طبعة ١٣١٢ .

والتآم أقسامها ، وحسن التخلص من قصة إلى أخرى ، والخروج من باب إلى غيره .. ومنهم من يرجع الإعجاز إلى خلو القرآن الكريم من التناقض واشتماله على المعانى الدقيقة ، ومنهم من يقول : إن وجه الإعجاز ماتضمنه القرآن من المزايا الظاهرة ، والبـــدائع الرائقة فى الفواتح والمقاصد والخواتيم : فى كل سورة ، وفى مبادىء الآيات وفواصلها .

وقد عرض السيوطى فى كتابه « الإتقان » لإعجاز القرآن الكريم ، وذكر بعضا من آراء العلماء فيه (١) . ورجع الإمام الرازى الإعجاز إلى : الفصاحة ، وغرابة الأسلوب ، والسلامة من جميع العيوب . ورجعه الإمام الزملكانى إلى تأليفه الخاص به . وقال ابن حازم فى « منهاج البلغاء » : وجه الإعجاز فى القرآن من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها فى جميعه استمرارا لا يوجد له فترة ، ولا يقدر عليه أحد من البشر . وقال الإمام الخطابى : ذهب الأكثرون من علماء النظر إلى أن وجه الإعجاز فى القرآن من جهة البلاغة ، لكن صعب عليهم تفصيلها ، وصغوا فيه إلى حكم الذوق، ثم قال : حتى لاترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظما أحسن تأليفا وأشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه ، وأما معانيه فكل ذى لب يشهدله بالتقدم فى أبوابه ، والترقى إلى أعلى درجاته .

إلى ماسوى ذلك من الآراء فى إعجاز القرآن الكريم ، والتى تشعبت كلها ثم تلاقت فى موجه ، فى بحر لجى زاخر ، هو دون القرآن الكريم فى روعته وجلاله ، ودون إعجازه العظيم فى سره وسحره وعظمته . ولقد مضى القدماء فى بحثهم عن الإعجاز ، ثم لم يستطيعوا الوصول إلى غايات الإعجاز ، وأعاد المحدثون الكلام فيه ، وإن كانوا لم يرجعوا بطائل : فبعض جعل وجوه الإعجاز فى ما يشتمل عليه القرآن من قوة روحية خارقة ، ومن أحداث التاريخ المجهولة ، ومن الأسلوب المنطق والأسلوب العلمى . وآخرون يرددون الآراء القديمة : شارحين أو ناقدين .

---

(١) ص ١١٨ ج ٢ الاتقان طبعة القاهرة ١٩٣٥ ، ومابعدها .

(٣)

وهذا كله على أى حال صور من ثقافات العلماء ، وعقلياتهم ، وملكاتهم ، ونزعاتهم فى فهم أسرار بلاغة القرآن الكريم وإعجازه ، ونحن نعود بالقارىء إلى فطرته الأدبية وحدها . فنطالبها بالفهم والنقد والحكم فى قضية الإعجاز :

فقد نزل على محمد صلوات الله عليه كتاب من عند الله ، هو أعظم دستور عرف فى شرائع الإنسانية ، وأروع كتاب أثر فى تاريخ البلاغة الأدبية ، ودعى العرب إلى الإيمان برسالته ، وهو فى ذلك يحتج عليهم بالقرآن صباح مساء ، إلى أن يعارضوه إن كان كاذبا ، بسورة واحدة ، أو بآيات يسيرة . وكلما ازداد تحديا لهم ازدادوا عجزا وخزيا ، مع طول باعهم فى فن البيان ، ومع هذا كانوا أكثر ما يكون خطيبا وشاعرا وبليغا. ثم مضت الأجيال والعلماء والأدباء والبلغاء والنقاد والمؤلفون فى كل عصر يعترفون بإعجازه ، ويقرون بقصورهم عن بلوغ منزلته فى البلاغة والفصاحة والبيان ؛ ولا تزال الفطر الأدبية الخالصة تهتز اهتزاز الإعجاب والإكبار ، كلما سمعت آية من آياته ، أو سورة من سوره ، ولا تزال الموازنة بينه وبين ما سواه من الآثار ، الأدبية والدينية والعقلية مستحيلة ممتنعة ، لبعد ما بينه وبين ما سواه من الآثار كبعد ما بين السماء والأرض ، فهل ذلك إلا لأنه كتاب الله الحكيم ، ومعجزة محمد الباهرة ، ودليل على إعجازه وأنه من عند الله .

وبعد ، فإننا قبل أن نختم هذا البحث نقول : إن أظهر أسرار إعجاز القرآن الكريم يتجلى فيما يلى :

١ — بلاغة القرآن النادرة ، التى لا يحيط بها وصف ، ولا يستطيع أن يكشف خصائصها باحث ، ويكفيك أن علوم البلاغة والنقد والإعجاز قد وضعت للكشف عن مظاهر هذه البلاغة وأسرارها ، ثم هى للآن ، وبعد مضى أكثر من عشرة قرون من الزمان ، لا تزال فى أول الغاية ، على أن بلاغة القرآن أوسع مدى من البحث عن استعاراته وكناياته وتشبيهاته وأمثاله

وحكمته وإيجازه ومجازه ، فهى تشمل كل خصائص الفن الأدبى والبيان فى القرآن الكريم .

٢ ـ روعة القرآن وجدته ، وأخذه بالأفئدة والأسماع والمشاعر والعواطف والنفوس .

٣ ـ عظمة تصويره للحياة الإنسانية فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، وللنفس البشرية فى سلمها وحربها ، ولهوها وجدها وأملها وألمها . وكفرها وإيمانها ، وللمثل العليا فى الحياة المهذبة الكريمة التى يعمل لها الإنسان ، وتسير لشاطئها الأمين الإنسانية .

٤ ـ سمو الروح فى القرآن الكريم ، فهو ليس كتاب قصص أو تسلية ، أو أدب أوحكمة أوفلسفة ، أو تاريخ أو اجتماع ؛ وإنما هو خلاصة لكل ما فى الحياة من ثقافة وحقائق . ويزيد على ذلك بأنه منهج كامل للحياة الروحية والاجتماعية والبشرية الكاملة الصحيحة السليمة ، وما أجدرنا أن نقول : إنه كتاب الإنسانية كافة .

٥ ـ جلال أثره الأدبى فى لغة العرب وأدبهم ، وفى حياتهم ؛ وفى حياة المسلمين والعالم .

٦ ـ خلوده على مر الأيام والأمكنة والعصور ، وعجز الناس عن معارضته ، مع أنه تحدى ولا يزال يتحدى الناس كافة ، ومع مايشتمل عليه تاريخ العالم من أفذاذ المفكرين والأدباء والبلغاء .

٧ ـ بساطة أسلوب القرآن الكريم ووضوحه وجماله وقوته وجزالته وعذوبته .

٨ ـ شرف معانيه ، وسمو حكمه ، وجلال دعوته ، وصدق حجته ، وعمق منزعه ، وعلو تصويره .

٩ ـ والدليل الأخير على الإعجاز هو عظمة أغراضه ومقاصده ، ورفعة مراميه ومناحيه ، وعبقرية غاياته ورسالته ، وتوجيهه البشرية كافة إلى حياة جديدة فيها الأمل والسعادة ، والأمن والسلام ، والخير المطلق ، والإخاء

والحق والعدالة والحرية والمساواة بين الناس ، وصدق الله العظيم حين يقول : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ، ليكون للعالمين نذيراً » .

بلاغة القرآن

إن خصائص القرآن البيانية ، وما اشتمل عليه من روائع الحكم والأمثال ، وبليغ المجاز ، ودقيق التشبيه ، وجيد الاستعارة والكناية ، وساحر الطباق والجناس ، ومحكم الإيجاز والإطناب المفيد ، كل ذلك كثير جدا ، إلى حد يصعب بيانه إلا فى مؤلفات ضخمة .

أما أغراضه ومقاصده فحسبك أنه قد جال فى كل غرض : فى الاجتماع والسياسة والحكمة والقصص والزهد والأدب والتعليم والإرشاد ، والوعد والوعيد ، وفى الدين والتشريع والتوجيه ، وهو فى كل ذلك كتاب الله الحكيم المعجز الصادق .

وأما معانيه، فحسبك ماتشتمل عليه من صدق وحق ووضوح وجلال ، وهى من غير معين العرب الذى ينهلون منه، لاطمئنان النفوس إليها ، وارتياح القلوب لها ، ولما تشتمل عليه من الحجة الباهرة ، والأدلة الساطعة والأحكام الصائبة ، وبحق إنه معجزة البيان ، وآية السماء .

وأما ألفاظه فحسبك جزالتها وقوتها ، مع السلاسة والعذوبة ، ومع البعد عن الوحشى والغريب النافر والسوقى المبتذل والبعيد المعقد ، فوق ماتتحلى به من سحر وجمال ، وما تنطوى عليه من أسرار الفصاحة ، وخصائص البيان والإعجاز .

وأما بلاغة القرآن فهى حديث الدنيا ، والقضية التى سلم بها أساطين البيان ، وفحول البلاغة ، أرأيت هذا التحدى مع العجز الواضح ، ومع الخزى الأليم ، وهل سمعت قصة الوليد بن المغيرة ، وقد تردد على محمد خفية وخيفة ، وسمع منه ثم قال لقومه : والله مافيكم رجل أعلم بالشعر منى ولا برجزه ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ، والله مايشبه الذى تقول شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله

الذى يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة . إنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه . ثم أرأيت هذا الأعرابى وقد سمع قوله تعالى : فاصدع بما تؤمر ، فسجد ، وقال : سجدت لفصاحته .

ولعلك تعلم أن العرب أمة تحب البلاغة ، وتعشقها ، وتجيدها ، ويهزها البيان الجيد ، وفيها مصاقع الخطابة ، ومقاول الفصاحة ، وأعلام الشعر ، لا تحسب سحر البيان إلا لها ، وبلاغة الكلام إلا وقفاً عليها ، وكانت كما يقول الجاحظ : أكثر ما كانت شاعراً أو خطيباً ، وقد دعاهم فعجزوا ، ثم تحدى به أقصاهم فشدهوا ، ثم حاروا فى وصف بيانه وإعجازه ، وخروا لحكمته ساجدين

أفليس ذلك كله بما قدمناه لك أدلة الإعجاز وشواهده وحجته وبرهانه ؟ ألست إذا حاولت أن تبحث عن أثر أدبى خالد على مر الأيام والعصور ، تجد فيه الإنسانية هداها ، والفضيلة مبتغاها ، والنفس البشرية رشدها وسعادتها ، لا تجد أمامك إلا القرآن الكريم والذكر الحكيم ؟ .

أيها القلم قف ، فبلاغة القرآن وإعجازه فى غنى عن الدليل ، ومتى تحتاج الشمس فى وجودها إلى برهان ؟ إن سر بلاغته وإعجازه يستعصى على الفهم ؛ ويعلو على العقول ، لأنه آية الله ، والمعجزة الخارقة التى اختص بها رسوله الأعظم محمد صلوات الله عليه . وإن أسلوب القرآن نمط فريد من البلاغة والروعة وجلالة الروح وإشراق البيان وجمال الديباجة وقوة المنطق ، وعبقرية التصوير والتعبير ؛ أسلوب جمع بين الجزالة والسلاسة ، والقوة والعذوبة ، وحرارة الإيمان وتدفق البلاغة ، فهو السحر الساحر ، والنور الباهر ، والحق الساطع ، والصدق المبين .

نزل الذكر الحكيم فى أسلوب لا هو شعر ولا هو سجع ، ولا هو مزاوجة ولا هو نثر مرسل ولا خطابة ، إنما هو نظم رائع وألفاظ عذبة ومعان سامية حصيفة ، وجلال وروعة ، جمع بلاغة جميع أساليب البيان وفصاحة شتى خصائص النظم ، واستوفى كل عناصر الإعجاز . تحدى الله به العرب فعجزوا فتحداهم بسورة منه فبهروا ، فتحداهم بأقصر سورة ، ثم بعدة آيات فخرسوا ،

ولما سمعه فصحاؤهم وأرباب البيان فيهم سجدوا له خاشعين، وما إيمان عمر حين سمع «طه»، وما فزع عتبة بن ربيعة وقوله: «والله ماهو بشعر ولا كهانة ولا سحر»، حين سمع «فصلت»، وما تردد بلغاء العرب على الأماكن التي يتعبد فيها محمد ليلا ليسمعوا هذه البلاغة الباهرة خفية، وما عجزهم بعد التحدي؛ ما كل ذلك إلا دليل الإعجاز، وعظمة البيان وجلال الأسلوب..

يقول أبو بكر الباقلاني فى فصاحة الذكر الحكيم: «إن نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام كلام العرب، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع والمعانى اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب فى البلاغة، والتشابه فى البراعة على هذا الطول وعلى هذا القدر، وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة، وألفاظ قليلة، وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها أحيانا الاختلال والاختلاف والتعمل والتكلف والتجوز والتعسف. وقد جاء القرآن على كثرته وطوله، متناسباً فى الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به فقال: «الله نزل أحسن الحديث، كتابا متشابهاً، مثانى؛ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله»، . «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً».

وبعد؛ فإنك تجد فى كتاب الله الحكمة وفصل الخطاب، مجلوة عليك فى منظر بهيج ومعرض رشيق، ونظم أنيق، غير متعاص على الأسماع، ولا ملتوٍ على الأفهام، ولا مستكره فى اللفظ، يمر كما يمر السهم، ويضىء كما يضىء الفجر، ويزخر البحر، طموح العباب، جموع على الطارق المنتاب، كالروح فى البدن، والنور المسيطر فى الأفق، والغيث الشامل، والضياء الباهر «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد».

التحدى بالقرآن

(١)

كانت العرب أمة مفطورة على البلاغة والأدب والشعر ، تحبها وتعشقها وتجيدها ، وترفع منزلة الشاعر المفلق والخطيب البليغ ، وتنوه بهما ؛ وكانت أكثر ما يكون خطيباً وشاعراً وأديباً ، فإذا نبغ فى القبيلة شاعر ، أو ظهر فيها فصيح استبشرت وافتخرت ، وأقامت الموائد واحتفلت بذلك الشىء العظيم ، وأتت القبائل الأخرى فهنأتها ، وباركت شاعرها أو خطيبها .

كان ذلك فطرتها ، لحياة التأمل والاستغراق والخيـــال فى الصحراء ، وللفراغ الكثير الذى كانوا فيه ، ولحياة البادية التى تثير العاطفة وتستفز المشاعر ، وتلهم الشاعرية ، وتوقظ الخيال والبلاغة ، وكانت حياتهم القبلية مدعاة للتفاخر والتخاصم والحروب المستعرة ، فكانت حاجتها إلى البيان والشعر والشعراء على أشد ما تكون . .

ومن ثم فقد رأينا شعراء يلقى إليهم العرب القياد ، يصغون لقولهم ، ويسيرون وفق رأيهم ، ويمضون ما يحكمون به بينهم يضعون الشريف النابه ، ويرفعون الخامل الوضيع ، فكان امرؤ القيس لشعره الساحر زعيما ، وكان النابغة سفيراً للعرب فى قصور المناذرة والغساسنة ، وحكما بين الشعراء فى سوق عكاظ ، وكان الأعشى يغير شعره مكانة الناس الاجتماعية بين العرب ، ويفد على كسرى وملوك الحيرة وبنى غسان ويسافر إلى الحبشة ، وكان قس ابن ساعدة الإيادى الخطيب يفد على قيصر والغسانيين . . إلى ماسوى ذلك من مظاهر تقدير العرب للبلاغة والبلغاء ، والشعر والشعراء ؛ وبحسبك أن الشاعر كان يعلن الحرب . . ويضع الهدنة ، فإذا شاء أعلن السلام ودعا إليه .

(٢)

فلما بعث محمد الرسول الأعظم صلوات الله عليه برسالته إلى الناس كافة ، نزل عليه كتاب مطهر من السماء . هدى ونور وبشرى ، فيه دعوة إلى التوحيد

والطهر والخير والحق . وفيه ما شاء الله أن يبلغه للبشر ، من شئون الحياة وأخبار الأمم ، وقصص دعاة التوحيد : من المرسلين والأنبياء ، وفيه كل ما يسعد الناس فى دينهم ودنياهم وآخرتهم : من تشريع وعبادات وأخلاق وفضائل وآداب وتوجيه كامل إلى المثل العليا .

نزل هذا الكتاب الكريم ، والنور الخالد ، والوحى الصادق ، والدستور العظيم ، فكان فى أعلى درجات البلاغة ، ومنازل الفصاحة ، لا يدانيه بيان ، ولا يشابهه أو يقاربه ما كان عند العرب من : شعر ، وخطب ومحاورات ، ومفاخرات ومنافرات ، ووصايا ومثل وحكمة وكهانة .

سمعه فصحاؤهم وبلغاؤهم فخروا ساجدين لفصاحته ، مذعنين لبلاغته ، مقرين بأنه نسيج وحده ، وعلم مفرد فى طبقته فى البيان ، بهر الشعراء منهم فخرست ألسنتهم ، وسكتت شاعريتهم ، وضاع إلهامهم ، كما يضيع السراب فى الصحراء ، وعجبت الخطباء فيهم ، فخرست مقاولهم ، وصمتت ملكاتهم ، وفقدوا مواهب البلاغة والقول ، وذهبت كل بلاغة فى تياره ، وضلت الفطر الأدبية العالية ، وفرت أمام أضواء نهاره .

ولكن زعماء الشرك أبوا الإذعان للدين ، والإيمان برسالة سيد المرسلين فأخذوا يحاربون الحق بالأوهام ، ويؤلبون قوى الشرك على دعوة الإسلام ، فقالوا فى القرآن : هو شعر ، هو سحر ، وهو أساطير الأولين ، ولو نشاء لقلنا مثل هذا ، وإن هذا إلا اختلاق ، ورموا محمداً بالجنون .

فتحداهم الله عز وجل ، ورسوله محمد صلوات الله عليه ، بهذه المعجزة الظاهرة الخالدة ، بالقرآن الكريم ، والكتاب العربى المبين . قال الله تعالى : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين(١) » ، وقال تعالى : « أم يقولون :

(١) البقرة : آية ٢٣ و ٢٤ — وهى مدنية

افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ، فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ، وأن لا إله إلا هو ، فهل أنتم مسلمون ؟ »(١) وقال تعالى : « أم يقولون : تقوله ، بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله ، إن كانوا صادقين »(٢) ، وقال تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً »(٣) ، فسجل عجز البشر كافة وبين أنه لا يستطيع الإنس والجن ـ ولو تظاهروا ـ الوقوف أمام هذا التحدى ، ولا يقدرون على مثل هذه البلاغة ، التى هى فوق طاقتهم . لأنها بلاغة خالق البشر ، ومصور الإنس والجن ، الملك القادر والمدبر الحكيم : الله جل جلاله ، وعلت قدرته وعظمت حكمته . . ونفى الله عزوجل عنه الشعر والسحر ، وبرأ رسوله من أن يكون شاعراً وساحراً ، ومن الافتراء والجنة ، ومن الكذب والخيال ، « والنجم إذا هوى ، ماضل صاحبكم وما غوى . وماينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى » . وقال تعالى : « إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر ، قليلا ماتؤمنون ، ولا بقول كاهن ، قليلا ماتذكرون ، تنزيل من رب العالمين ، ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين ، وإنه لتذكرة للمتقين ، وإنا لنعلم أن منكم مكذبين ، وإنه لحسرة على الكافرين ، وإنه لحق اليقين » .

وهكذا رد الله عز وجل عليهم ، وبين كذبهم وافتراءهم ، ونفى ، عن القرآن الكريم ما وصفوه به ، وبين أنه منزل من السماء ، وأنه معجزة محمد ابن عبد الله الخالدة ، وتحداهم ـ إن كانوا كافرين وكاذبين ومضللين ـ إلى الإتيان بمثله ، أو بعشر سور مفتريات من مثله ، أو بسورة واحدة . فعجزوا أمام التحدى ، وباءوا بالخزى والهوان والذلة ، وصغرت نفوسهم وأقدارهم

---

(١) هود : آية ١٣ و ١٤ — وهى مكية
(٢) الطور : آية ٣٣ و ٣٤ — وهى مكية
(٣) الاسراء : آية ٨٨ — وهى مكية

فلم ينطقوا بقول ، ولم يجاروا بلاغة القرآن فى آية أو آيات أو سورة أو سور . واستمر عجزهم طيلة ثلاث وعشرين سنة ، لا فرق بين خطيبهم وبليغهم وشاعرهم ، ولا فرق بين كبير وصغير فيهم .

(٣)

ثم امتدت الأجيال ، وتوالت العصور ، والقرآن يتردد صداه فى المشارق والمغارب ، فلم نر رجلا وقف يتحدى بلاغة القرآن ، أو يدعى قدرته على مثل هذا البيان ، ولم نر مفكراً يؤلف كتاباً أو شاعراً ينظم قصيدة ، أو خطيباً يلقى خطبة أو كاتباً يحبر رسائل ومقالات ، ويزعم أحد منهم أن ما جاء به صنو هذه الفصاحة ، أو شبيه ذلك السحر ، وفى تاريخ العربية فحول وفحول : كابن المقفع والجاحظ وابن العميد والبديع وكجرير والفرزدق وبشار وأبى نواس وأبى تمام والمتنبى والمعرى ، ولكن أين بلاغتهم من هذه البلاغة ؟ وأين منازلهم من هذه المنزلة ؟ .

وهل منهم إلا من أذعن وبهر ، وخشع وسحر ، وخضع وأخذ ، وأيقن أنه وحى السماء . . وفيها كتب ومؤلفات فى أعلى ذروة البلاغة : كنهج البلاغة ورسائل الجاحظ ، وكليلة ودمنة ، ومقامات البديع الخ .

ولكن ماهذه وغيرها من المؤلفات ؟ ومامكانتها وماقيمتها ؟ وما أثرها وما خطرها فى البلاغة الأدبية ، أمام كتاب الله المعجز ، وكلامه الحكيم . . بل أمامك الحديث النبوى الشريف ، وهو فى الدرجة العليا من الفصاحة . ولكن أين يقع نظمه من نظم القرآن ، وكيف يوزن حسنه بحسن قدسى البيان ؟

واقرأ إن شئت بلاغات البلغاء ، وفصاحة الفصحاء ، ثم انظر — بسكون طائر ، وخفض جناح ، وتفريغ لب ، وجمع عقل — فى ذلك . فسيقع لك الفضل بين كلام الناس وبين كلام رب العالمين ، وتعلم أن القرآن

يخالف نظم كلام الآدميين(١) . وأراد مسيلمة الكذاب — فيما يروى — أن يقول كلاما ، فخزى وعجز ، وبان عليه العى والحصر ، وباء بالخسران وسوء المنقلب ، وأين يقع قوله : « والليل الدامس ، والذئب الهامس ، ماقطعت «أسيد » من رطب ولا يابس ، وقوله : والمبديات زرعا والحاصدات حصداً والذارات قمحاً ، والطاحنات طحناً ، والخابزات خبزاً ، والثاردات ثرداً ، واللاقمات لقما ، إهالة وسمناً ، وما سبقكم أهل المدر » ، وغير ذلك من كلامه ، من ذلك السحر والنظم القرآنى العجيب المعجز ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد(٢) ؟ .

(٤)

وفى الأمم الكبيرة فلاسفة ومفكرون ومشرعون ، وأدباء وكتاب وشعراء وخطباء ، ولكل منهم كتب وآثار أدبية .

ولكن هل هناك من هذه الآثار ، ما يعادل فى أثره وخطره ومنزلته القرآن الكريم ، بما اشتمل عليه من توجيه صالح كامل للحياة ، وتحديد واضح للمثل الإنسانية العليا ، ورسم لأهداف الأفراد والجماعات والشعوب ودعوة إلى الحق والعدل والحرية والإخاء والمساواة والمدنية والعلم والعرفان؟ وهل من بينها كتاب يتعبد به الملايين من البشر ويقدسونه ، ويعدونه دستورهم فى الحيـــاة ، يقتبس الأدباء والبلغاء والعلماء منه ثروتهم الأدبية والعلمية ؟ وهل من بينها أثر قام به دين ، ونشأت عليه دولة وحضارة استظل العالم برايتها أجيالا طوالا مثل القرآن الكريم ، والكتاب الحكيم ؟ وهل للقرآن - بربك - شبيه من الكتب ، وحد لغة وحفظها وأذاعها فى العالم ، ورفع شأنها وهذب ألفاظها وأساليبها ، وأحيا فنوناً جديدة من الأدب ، وتأثر الناس ببلاغته وعذوبته وسحره ، ووضعت بسببه شتى علوم الدين واللغة والأدب والبلاغة . . كالقرآن الكريم ، وما أحدثه من آثار أدبية

---

(١) الاعجاز للباقلانى ص ١٢٨ (٢) آية ٤٢ سورة فصلت

وبيانية وفكرية فى لغة العرب ، فوق آثاره فى حياتهم السياسية والاجتماعية والدينية ، وفى حياة العالم والإنسانية كافة ؟ .

(٥)

ولا يزال البلغاء والنقاد ورجال الأدب والبيان حتى اليوم ، يؤمنون إيماناً صادقاً ، بأن لا سبيل الى الوقوف فى تيار بلاغة القرآن وفصاحته وإعجازه ، وأنه شيء انفرد به وحده ، وأنه كلام الله وكتابه ، وأن نبوة محمد صلوات الله وسلامه عليه إنما بنيت على هذه المعجزة ، وذلك الكتاب الحكيم المبين ، الذى عجز الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ، وستمضى وتتوالى الأجيال ، وهو يضىء كما يضىء الفجر ، ويزخر كما يزخر البحر ، ويفتن الألباب والعقول بسحره وجلاله وعظمته وحكمته وروعته ، وصدق الله العظيم حيث يقول : « الله نزل أحسن الحديث . كتابا متشابها ، مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد » .

العرب فى عهد النبوة

ورأيهم فى إعجاز القرآن الكريم

(١)

فى هذا البحث نذكر آراء العرب الذين عاصروا عهد الرسول فى القرآن الكريم وإعجازه ، ونحيط بموقفهم منه ، وإقرارهم بالعجز حيال تحديه ، ليعرف القارىء ما يتصل بالقرآن الحكيم وقضية الإعجاز .

روى أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبى ، فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رق له . فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه فقال : يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه . لئلا تأتى محمداً ، لتعرض لما قاله ، قال . قد علمت قريش أنى من أكثرها مالا . قال : فقل فيه قولا يبلغ أنك كاره له . قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى ، ولا برجزه ولا بقصيده ، ولا بأشعار

الجن . والله مايشبه الذى نقول شيئا من هذا . ووالله إن لقوله الذى يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة . وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله . وإنه ليعلو ولا يعلى عليه . وإنه ليحطم ماتحته . قال لايرضى عنك قومك حتى تقول فيه . قال : فدعنى حتى أفكر ، ثم قال : هـــذا سحر يؤثر ، يأثره عن غيره »(١) .

وروى أن الوليد بن المغيرة لما سمع من النبي : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان . . الآية » قال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ، مايقول هذا بشر (٢) .

وجاء فى رواية أخرى(٣) أن الوليد قال لبنى مخزوم : والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ، ماهو من كلام الإنس ، ولا من كلام الجن ، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعـلو ولايعلى عليه ، فقالت قريش : صبأ والله الوليد ، والله لتصبأن قريش كلهم ، فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه ، فقعد حزينا ، وكلمه بما أحماه ، فقال فأتاهم فقال : تزعمون أن محمداً مجنون ، فهل رأيتموه يخنق ؟ وتقولون : إنه كاهن . فهل رأيتموه قط يتكهن ؟ وتزعمون أنه شاعر ، فهـــل رأيتموه يتعاطى شعرا قط ؟ وتزعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب ، فقالوا فى كل ذلك اللهم لا . ثم قالوا : فما هو ؟ ففكر ، فقال : ماهو إلا ساحر ، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟ وماالذى يقوله إلاسحر يأثره عن مسيلمة وعن أهل بابل ، فارتج النادى فرحا ، وتفرقوا معجبين بقوله .

ويروى أنه لما اجتمعت قريش عند حضور الموسم ، قال لهم الوليد : إن وفود العرب ترد . فاجمعوا فيه ـ يعنى النبى ـ رأيا لايكذب بعضكم بعضا ، فقالوا : نقول: كاهن . قال : والله ماهو بكاهن ولاهو بزمزمته ولا سجعه .

---

(١) ص ٢٢٣ ج ١ الشفاء للقاضى عياض ١١٧ ج ٢ الإتقان للسيوطى ، ٢٥٧ إعجاز القرآن للرافعى
(٢) ص ٣٢٠ ج ١ الشفاء طبعة ١٣١٢ هـ
(٣) ص ١٥٨ ج ٤ للزمخشرى .

قالوا : مجنون . قال : ماهو بمجنون ولا بخنقه ولا وسوسته . قالوا : فنقول شاعر ، قال : ماهو بشاعر ، قد عرفنا الشعر كله ، رجزه وهزجه وقريضه ومبسوطه ومقبوضه . ماهو بشعر ، قالوا : فنقول ساحر ، قال : ماهو بساحر ولا نفثه ولا عقده ، قالوا : فما نقول ؟ قال : ما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا وأنا أعرف أنه لا يصدق ، وإن أقرب القول أنه ساحر ، وأنه سحر يفرق به بين المرء وابنه ، والمرء وأخيه ، والمرء وزوجه ، والمرء وعشيرته : فتفرقوا وجلسوا على السبل يحذرون الناس (١) : فأنزل الله تعالى فيه . « ذرنى ومن خلقت وحيداً » الآيات (٢) .

وقال صاحب الطراز : قال الوليد بن المغيرة فى القرآن ما قال ، حين جاء إلى الرسول ، وقال له : اتل على يا محمد ما أنزل إليك ، فأسرع الرسول إلى ذلك طمعا فى الانقياد ، فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ، حم تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته ، إلى آخر السورة ، فقال : إن أعلاه لمورق ، وإن أسفله لمغدق ، وإن له لحلاوة (٣) .

ويروى أن أبا جهل قال فى ملأ من قريش : قد التبس علينا أمر محمد ، فلو التمستم لنا رجلا عالما بالشعر والكهانة والسحر ، فكلمه ثم أتانا ببيان عن أمره . فقال عتبة : والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر ، وعلمت من ذلك علما ، وما يخفى على ، فأتاه فأسمعه رسول الله أوائل سورة فصلت ، فلما بلغ قوله « صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » أمسك عتبة على فيه ، وناشده الرحم ، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش ، فلما احتبس عنهم قالوا : ما نرى عتبة إلا وقد صبأ ، فانطلقوا إليه . وقالوا : يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت ؟ فغضب وأقسم لا يكلم محمداً أبداً ، ثم قال : والله لقد كلمته فأجابنى بشىء ، والله ماهو بشعر ولا كهانة ولا سحر ، ولما بلغ « صاعقة مثل صاعقة

---

(١) ٢٢٣ جـ ١ الشفاء ، ٣٥٧ و ٣٥٨ إعجاز القرآن للرافعى
(٢) آية ١١ — ٢٥ سورة المدثر . (٣) ٢١٨ الطراز

عاد وثمود ، أمسكت بفيه ، وناشدته بالرحم ، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب ، فخفت أن ينزل بكم العذاب (١) .

وقال عتبة حين سمع القرآن : ياقوم قد علمتم أني لم أترك شيئاً إلا وقد علمته وقرأته وقلته ، والله لقد سمعت قولا ، والله ماسمعت مثله قط ، ماهو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة (٢) .. ويروى ذلك عن النضر بن الحارث .

ويروى أن أبا بكر سأل أقواما قد قدموا عليه من بنى حنيفة عن كلام مسيلمة وما كان يدعيه قرآنا ، فقصوا عليه بعض كلامه ، فقال أبو بكر : سبحان الله ، ويحكم ، إن هذا الكلام لم يخرج عن آل - أى عن روية - فأين كان يذهب بكم (٣) .

ويقول السيوطى فى الإتقان . وكانوا مرة بجهلهم يقولون : أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ، مع علمهم أن صاحبهم أمى ، وليس بحضرته من يملى أو يكتب فى نحو ذلك من الأمور التى أوجبها العناد والجهل والعجز (٤) .

ويقول حسان بن ثابت فى شعره فيما قال عن القرآن الكريم :

الله أكرمنا بنصر نبيه ... وبنا أقام دعائم الإسلام
وبنا أعز نبيه وكتابه ... وأعزنا بالضرب والإسلام
يتنابنا جبريل فى أبياتنا ... بفرائض الإسلام والأحكام
يتلو علينا النور فيها محكما ... قسما لعمرك ليس كالأقسام
فنكون أول مستحل حلاله ... ومحرم لله كل حرام (٥)

ويروى أن القصائد الجاهلية كانت معلقة على الكعبة ، فأنزلتها العرب لفصاحة القرآن إلا معلقة امرىء القيس ، فإن أخته أبت ذلك عنادا ، فلما نزلت آية « وقيل يا أرض ابلعى ماءك » ، قامت إلى الكعبة فأنزلت معلقة

---

(١) ٣٨٧ ج ٣ الكشاف ، ٢٣١ و ٢٣٢ ج ١ الشفاء (٢) ٢٣٢ ج ١ الشفاء

(٣) البلاقلانى وهامش ٢٦٩ و ٢٧٠ الرافعى وكلام مسيلمة تجده فى إعجاز القرآن للباقلانى ويقول حين يتحدث عنه صاحب الطراز ، خرافات مسيلمة ١٧٣ ج ٣

(٤) ١٢١ ج ٢ الاتقان طبعة ١٩٣٥ ، (٥) ٣١٨ الديوان

أخيها (١)، وإن كانت هذه الرواية مما لم يسلمها العلماء لأنها غير صحيحه .

وفى حديث إسلام أبى ذر وصف أخاه أنيسا فقال : والله ماسمعت بأشعر من أخى أنيس . لقد ناقض اثنى عشر شاعرا فى الجاهلية أنا أحدهم ، وإنه انطلق إلى مكة وجاءنى بخبر النبى ، قلت : فما يقول الناس ؟ قال : يقولون : شاعر ، ساحر ، كاهن ، لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم . ولقد وضعته على أقراء الشعر فلم يلتئم على لسان أحد بعدى أنه شاعر ، وإنه لصادق . وإنهم لكاذبون (٢) .

وأخرج بن هشام عن ابن شهاب الزهرى أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق خرجوا يوما ليستمعوا من رسول الله وهو يصلى من الليل فى بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق فتلاوموا . وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا . ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود . فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا ، فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان فى بيته ، فقال : أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ، فقال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ماعرفت معناها ولا ما يراد بها ، قال الأخنس وأنا والذى حلفت ، قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته ، قال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن

---

(١) هامش ٢٣٧ ، ٢٣٨ الرافعى .

(٢) ٢١٤ ج ١ الشفاء .

وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فتى ندرك مثل هـذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه ، قال : فقام عنه الأخنس وتركه .

ويقول السيوطى فى الإتقان : وقد أسلم جماعة عند سماع آية من القرآن كما وقع لجبير بن مطعم أنه سمع النبى يقرأ فى المغرب بالطور . قال : فلما بلغ هذه الآية : « أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون » إلى قوله « المصيطرون »(١) كاد قلبى أن يطير ، قال : وذلك أول ما وقر الإسلام فى قلبى(٢) .

وروى أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ : « فاصدع بما تؤمر » فسجد ، وقال سجدت لفصاحته(٣) ، ومما يتصل بهـذا ما يروى أن أعرابيا سمع آخر يقرأ : « فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً » ، فقال : أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام .

وروى أن عمر كان نائماً فى المسجد ، فجاءه رجل من بطارقة الروم يحسن العربية فأسلم وقال : سمعت رجلا من أسرى المسلمين يقرأ آية من القرآن فتأملتها فإذا هى قد جمع فيها ما أنزل الله على عيسى من أحوال الدنيا والآخرة : « ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه » الآية(٤) .

وروى عن نصرانى أنه مر بقارىء ، فوقف يبكى ، فقيل له : مم بكيت ؟ قال : للشجا والنظم(٥) ، وعن كعب ، وهو من أهل الكتاب الذين أسلموا : عليكم بالقرآن فإنه فهم العقول ونور الحكمة(٦) .

وروى عن الأصمعى أنه سمع كلام جارية ، فقال لها : قاتلك الله ما أفصحك فقالت : أو بعد هذا فصاحة ، بعد قول الله تعالى « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه » الآية ، فجمع فى آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين(٧)

---

(١) آية ٣٥-٢٧ سورة الطور . (٢) ١٢٣ جـ٢ـ الإتقان وراجعه فى ٢٣١ جـ ١ الشفاء . (٣) ٢١٠ جـ ١ الشفاء (٤) ٢٢١ جـ ١ الشفاء (٥) ٢٣١ جـ ١ المرجع . (٦) ٢٣٥ جـ ١ المرجع . (٧) ٢٢١ جـ ١ المرجع .

ولقد كان مسيلمة يعارض القرآن الكريم بخرافات وأقوال سخيفة، ذكر طرفا منها الباقلانى فى كتابه .. « إعجاز القرآن » ، وهى معارضات لا يمكن أن توزن بالقرآن فى سموه وجلال إعجازه بأية حال ؛ وقد أصيب مسيلمة بالخزى والذل والهوان أمام نفسه وأمام الناس .

ويقول صاحب الشفاء : روى أن ابن المقفع طلب معارضة القرآن ، ورامه وشرع فيه ؛ فمر بصبى يقرأ « وقيل يا أرض ابلعى ماءك » ، فرجع فمحى ماعمل ، وقال : أشهد أن هذا لا يعارض ، وماهو من كلام البشر ، وكان من أفصح أهل وقته . وكان يحى بن حكم الغزالى بليغ الأندلس فى زمنه ، فحكى أنه رام شيئا من هذا ، فنظر فى سورة الإخلاص ليحذو على مثالها وينسج بزعمه على منوالها . قال فاعترتنى منه خشية ورقة حملتنى على التوبة والإنابة (١) .

ويتهمون المتنبى والمعرى وغيرهما بمعارضة القرآن الكريم ، وهذا لم يصح عن أحد منهم .

وماروى من آثار معارضة القرآن لا يوافق ذوق على وضعه فى كفة واحدة مع القرآن الكريم ، ويقول الدكتور طه حسين : نستطيع أن نطمئن إلى أن القرآن لم يجد له مقلداً ؛ ولم يجد له تلميذاً . هو واحـــد فى بابه ، لم يسبق ولم يلحق بما يشبهه (٢) .

ويقولون إن أمية قد وقعت منه فى شعره عدة معارضات للقرآن الكريم وحاش لله أن يوزن شعر أمية الدينى الذى نظمه بعد بعثة الرسول ببلاغة القرآن الكريم ، ولقد نظم أمية قصصاً دينية كثيرة ، كقصة مريم ، وقصة إبراهيم ، ونوح وغيرهم : ولكن أين هذه القصائد من هذا الإعجاز وذلك السحر القرآنى العظيم ، والكونيات فى شعر أمية والأساطير وقصص خلق العالم ، وقصص الأنبياء ، كل ذلك لا يقبل ذوق أن يعده معارضة للقرآن ، وأين الثريا من الثرى كما يقولون ؟ .

(١) ص ٢٣٢ جـ ١ الشفاء للقاضى عياض طبعة ١٣١٢ هـ

(٢) ص ٣٢ من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين

وفى شعر أمية يبدو تأثره الواضح أحيانا ببلاغة القرآن ومعانيه وأساليبه ، كما تجده فى هذه الأبيات :

عند ذى العرش يعرضون عليه يعلم الجهر والكلام الخفيا
يوم نأتيه وهو رب رحيم إنه كان وعده مأتيا
يوم نأتيه مثل ماقال فردا لم يذر فيه راشداً وغويا
أسعيد سعادة أنا أرجو أم مهان بما كسبت شقيا
رب كلا حتمته وارد النا ر كتابا حتمته مقضيا

وقد كان الشعراء فى أول عهد النبوة طوائف ثلاثاً :

فطائفة كانت تعارض رسالة محمد وتحاربها أشد حرب ، ومنهم : عبدالله ابن الزبعرى ، وأبو سفيان بن الحارث ، وعمرو بن العاص ، وضرار بن الخطاب ؛ وهؤلاء جميعاً أسلموا بعد حين ، بعد أن بهرتهم بلاغة القرآن .

وطائفة أخرى كانت مع الرسول وأصحابه ، تدافع عن الدعوة والرسالة : كحسان ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وهؤلاء إعجابهم ببلاغة القرآن وتأثرهم به معروف .

وطائفة ثالثة كانت تعيش فى نجد بعيداً عن مكة والمدينة ومواطن نزول الوحى ، ومن هؤلاء : الحطيئة ، وكعب بن زهير ، وغيرهما . وقد ظل شعرهم جاهليا حتى أسلموا وسمعوا القرآن وتأثروا بفصاحته وبيانه .

وأنتم تعلمون قوة شعر حسان فى الجاهلية ولينه فى الإسلام ، انبهاراً بجلال القرآن وروعته . وتعلمون شموخ شعر أمية بن أبى الصلت فى الجاهلية واستخذاءه فى الإسلام ؛ عجزا أمام هذا السحر الساحر ، والبلاغة المتدفقة ، والإعجاز العجيب .

ويروون أن لبيداً لم يقل شعراً فى الإسلام إلا بيتاً واحداً :

ما عاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

وقيل : قوله :

الحمد لله إذ لم يأتنى أجلى حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

وقال له عمر : أنشدنى من شعرك ، فقرأ سورة البقرة ؛ وقال : ما كنت

لأقول شعراً بعد إذ علمنى الله سورة البقرة ، فزاد عمر فى عطائه(١) .

ويروى أن عمر كتب إلى عامله : أن سل لبيداً والأغلب ما أحدثا من الشعر فى الإسلام ، فقال الأغلب :

أرجزاً سألت أم قصيدا ؟ فقد سألت هيناً موجوداً

وقال لبيد: قد أبدلنى الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران، فزاد عمر فى عطائه(٢).

وكما تأثر الشعراء بالقرآن وبلاغته ، فكذلك تأثر الخطباء والكتاب والبلغاء فى عصر الرسول وبعده ، يقول ابن خلدون فى مقدمته فى بيان السبب فى أن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة فى البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية . ومنثورهم ومنظومهم : السبب فى ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام فى القرآن والحديث . اللذين عجز البشر عن الإتيان بمثلهما ، لكونها ولجت فى قلوبهم ، ونشأت على أساليبها نفوسهم ، فنهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم فى البلاغة عن ملكات من قبلهم أهل الجاهلية ، ممن لم يسمع هذه الطبقة ، ولا نشأ عليها ، فكان كلامهم فى نظمهم ونثرهم ، أحسن ديباجة ، وأصفى رونقا من أولئك ، وأرصف مبنى ، وأعدل تثقيفاً ، بما استفادوه من الكلام العالى الطبقة(٣) .

وقد ظل تأثر الأدب العربى واللغة بالقرآن الكريم واضحاً جلياً فى كل عصر من عهد النبوة حتى اليوم . فهل بعد ذلك كله نحتاج إلى دليل على الإعجاز وإقرار العرب بعجزهم أمام تحدى القرآن ، واعترافهم بقصور ملكاتهم ومواهبهم عن معارضته ؟ اللهم لا ، وما أصدق ما يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « إن الله أنزل هذا القرآن آمراً وزاجرا ، وسنة خالية ، ومثلا مضروبا : فيه نبؤكم ، وخبر ما كان قبلكم ونبأ ما بعدكم وحكم ما بينكم ، ولا يخلقه طول الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، هو الحق ليس بالهزل ، هو الذكر الحكيم ، والنور المبين ، والصراط المستقيم . وحبل الله المتين » . وفى الحديث قال الله تعالى لمحمد : إنى منزل عليك توراة حديثة . تفتح بها أعينا عميا وآذاناً صماً وقلوباً غلفا . فيها ينابيع العلم ، وفهم الحكمة ، وربيع القلوب » .

(١) ص ٨٩ الشعر والشعراء لابن قتيبة .
(٢) طبقات الشعراء لابن سلام . (٣) ص ٥٨٠ مقدمة ابن خلدون .

(١)

سورة الفاتحة

وتسمى : فاتحة الكتاب

تمهيد

السورة فى القرآن الكريم طائفة من آياته مؤلفة من ثلاث فأكثر ، لها اسم تعرف به عن طريق الرواية المتواترة .

والسورة الأولى فى القرآن الكريم هى سورة الفاتحة ، وتسمى « أم الكتاب» و«أم القرآن» : لأنها اشتملت على أهم الأصول التى نزل القرآن الكريم بها (١) ، وتسمى كذلك «السبع المثانى» ، لأنها تشتمل على سبع آيات تثنى فى الصلاة و «الفاتحة» ، لأنها أول سورة فى المصحف الشريف ترتيبا ، أو نزولا ، كما تسمى «الأساس» ، لأنها أساس لكل مادعا إليه القرآن الكريم من عقيدة التوحيد ، أو لأنها تشتمل على ما فيه من الثناء عليه والتعبد بأمره ونهيه وبيان وعده ووعيده ، أو تشتمل على جملة معانيه من الأحكام العملية والحكم النظرية ، التى هى سلوك الطريق المستقيم ، والاطلاع على مراتب السعداء ومنازل الأشقياء ، كما تسمى سورة «الكنز» لاشتمالها على كل ثمين من الكلام .

إن الفاتحة تتردد على ألسنة المسلمين فى كل مكان . وخاصة فى الصلاة ، ومن ثم فهى جديرة بالفهم الحق ، وبتدبر معانيها تدبرا كاملا .

وقد أخرج البيهقى فى الدلائل فى نزولها عن أبى ميسرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة : إنى إذا خلوت وحدى سمعت نداء ، فقد والله خشيت أن يكون هذا أمرا ، فقالت : معاذ الله ما كان الله ليفعل بك ، فوالله إنك لتؤدى الأمانة وتصل الرحم وتصدق ، ثم إنه صلى الله عليه وسلم أخبر ورقة بذلك ، وإن ورقة أشار عليه أن يثبت ويسمع النداء ، وأنه صلى الله عليه وسلم لما خلا ناداه الملك : يامحمد قل : بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله ، الخ .

---

(١) الأم فى الأصل : الراية ينصبها العسكر ، وهذه السورة مفزع أهل الايمان إليها كما أن مفزع العسكر إلى الراية.

وذكر فى نزولها ثلاثة أقوال : الأول أنها مكية ، ويدل عليه أن سورة الحجر مكية بالاتفاق وفيها قوله تعالى : « ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم » والسبع المثانى هى الفاتحة ، والثانى أنها مدنية نزلت بالمدينة والثالث أنها نزلت بمكة مرة وبالمدينة مرة(١) ولهذا سماها الله بالمثانى لأنه ثنى إنزالها مبالغة فى تعظيمها . وقال البيضاوى المرجح أنها مكية . وآياتها سبع بالاتفاق . إلا أن من عد البسملة آية منها جعل الآية السابعة « صراط الذين أنعمت عليهم » الخ ، ومن لم يعدها آية منها جعل الآية السابعة « غير المغضوب عليهم » الخ .

هذا ويقول الإمام محمد عبده فى « المنار » : إن القرآن نزل لأمور اشتمل عليها ، وهى : التوحيد ، والوعد والوعيد ، والعبادة ، وبيان سبل السعادة ، وقصص الطائعين والعاصين . وسورة الفاتحة كذلك مشتملة عليها إجمالا بغير ما شك ، فالتوحيد فى . . . الحمد لله رب العالمين ، والوعد مطوى فى البسملة والوعد والوعيد فى « مالك يوم الدين » أيضا ، والعبادة فى « إياك نعبد » الخ والأخبار والقصص فى « صراط الذين » الخ .

وأقول : إنه يؤيد ذلك ماورد من الخبر . « قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، فنصفها لى ونصفها لعبدى ، ولعبدى ماسأل ، يقول العبد « الحمد لله رب العالمين فيقول الله ، حمدنى عبدى ، ويقول العبد : الرحمن الرحيم ، فيقول الله ، أثنى على عبدى ، ويقول العبد ، مالك يوم الدين ، فيقول الله مجدنى عبدى ويقول العبد ، إياك نعبد وإياك نستعين فيقول الله ، هذه الآية بينى وبين عبدى ولعبدى ماسأل ، ويقول العبد ، اهدنا إلى آخر السورة ، فيقول الله . لعبدى ما سأل .

(١) المكى ما نزل قبل الهجرة ، والمدنى ما نزل بعدها ، وقيل : المكى ما نزل فى شأن أهل مكة وإن كان نزوله فى المدينة ، والمدنى غيره ، وقيل : المكى ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة والمدنى غيره .

شرح السورة

١ — بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

٢ — الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰلَمِينَ

٣ — الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

٤ — مٰلِكِ يَوْمِ الدِّينِ

٥ — إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ

٦ — اهْدِنَا الصِّرٰطَ الْمُسْتَقِيمَ

٧ — صِرٰطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ

سبع آيات رائعة الأسلوب ، بليغة الأداء ، عذبة اللفظ ، قوية التركيب ؛ ولكنها مع ذلك كله رفيعة المعنى ، جليلة المغزى ؛ قوية الإفهام ، رائعة التأثير .

هى بدء باسم الله الأعظم ؛ وحمد لله مالك الملك ، ورب الكون ، وإله العالمين ، ووصف وتمجيد لله بأنه الرحمن الرحيم ، وتخصيص له بالعبادة والتوكل والاستعانة ، وإقبال على دعائه بأن يهدى المسلمين إلى السبيل السوية سبيل المؤمنين الذين رضى الله عنهم ، لا سبيل المغضوب عليهم أو الضالين عن سبيل الخير والرحمة والمجد والكرامة والعزة والهدى .

سبع آيات تضمنت أروع ما يمكن أن يناجى به العبد ربه ، وخاصة فى صلواته وطاعته ، وتضمنت رسما دقيقاً لعقيدة المسلم الكامل الإسلام ، وهل يكون كامل الإسلام إلا من تذكر اسم الله واستفتح به دائماً وإلا من أقر لله جل جلاله بالتوحيد ووصفه بأرفع الصفات ، وعرف أنه مالك الملك ورب الكون ، وخصه بالطاعة والعبادة ، وطلب منه الهدى والنور ؟

هـــذه هى سورة الفاتحة ، سورة التوحيد ، سورة الإسلام ، سورة العبودية الكاملة من الإنسان لخالقه رب الأكوان .

أما الآية الأولى وهى « بسم الله الرحمن الرحيم » ، فمعناها استحضار الله فى كل وقت ، وذكر اسمه فى كل عمل ، والاستفتاح باسمه عند مفتتح كل شىء .

باسم الملك الأعظم ، والإله المهيمن السلام ، الله الرحمن الذى عم بنعمته جميع خلقه ، أدناهم وأقصاهم ، الرحيم الذى خص من بينهم المؤمنين الطائعين بالرضا والقبول ؛ يبتدىء كل مسلم أكله وشربه ونومه ويقظته ، وطاعته وعمله وكل فكرة يفكر فيها ، وكل شىء يريد أن يعمله ، وكل ما يستقبل أو يستدبر من شئونه . وأنت لذا علمت كيف تفتتح القوانين باسم الملوك ، وكيف يذكر اسمهم فى كل عمل رسمى ، تعلم هنا كيف يؤدب الله الناس ويربيهم ، على أن يذكروا اسمه ، ويبتدئوا به ، فى مطلع كل عمل ، ومفتتح كل أمر من أمور حياتهم .

هنا أول سورة من سور القرآن ، بل هنا مفتتح القرآن وبدؤه ، فما أجدر افتتاح القرآن كتاب الإنسانية الخالد باسم من أنزل منه القرآن ، باسم الله رب الحياة والوجود .

يقول الطبرى فى تفسير البسملة : « أدب الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بتعليمه تقديم ذكر أسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله وتقدم إليه فى وصفه بها قبل جميع مهماته ؛ فمعقول إذاً أن قول القائل إذا قال : بسم الله الرحمن الرحيم ، ثم افتتح تالياً سورة ، أن إتباعه بسم الله الرحمن الرحيم تلاوة السورة ينبىء عن معنى قوله بسم الله الرحمن الرحيم ، ومفهوم به أنه مريد بذلك : اقرأ بسم الله الرحمن الرحيم .

وكذلك قوله «بسم الله» عند نهوضه للقيام أو عند قعوده وسائر أفعاله ينبىء عن معنى مراده بقوله « بسم الله » ، وأنه أراد بقيله « بسم الله » : أقوم بسم الله وأقعد باسم الله ، وكذلك سائر الأفعال . وتأويل قول القائل « بسم الله » ، أن معناه عند ابتدائه فى فعل أو قول ؛ أبدأ بتسمية الله قبل فعلى أو قبل قولى . وكذلك معنى قول القائل عند ابتدائه بتلاوة القرآن : « بسم

الله الرحمن الرحيم ، إنما معناه : أقرأ مبتدئا بتسمية الله ، أو أبتدىء قراءتى بتسمية الله ، فجعل الإسم مكان التسمية كما جعل الكلام مكان التكليم ، والعطاء مكان الإعطاء . والعرب تخرج مصادر الأفعال على غير بناء أفعالها كثيرا » .

وكلام الزمخشرى فى الكشاف لا يخرج عن معنى كلام الطبرى ، إلا أنه لا يرى أن الإسم بمعنى التسمية ويقدر متعلق الجار والمجرور فى « بسم الله » متأخراً ، وهو يقول : « ومتعلق الباء محذوف تقديره أقرأ ، أو أتلو ، وكل فاعل يبدأ فى فعله بسم الله كان مضمرا ما جعل التسمية مبدأ له ويقدر المحذوف متأخراً ، لأن الأهم من الفعل والمتعلق به هو المتعلق به ، لأنهم كانوا يبدؤون بأسماء آلهتهم فيقولون : باسم اللات ! باسم العزى ! فوجب أن يقصد الموحد معنى اختصاص اسم الله عز وجل بالابتداء ، وذلك بتقديمه وتأخير الفعل كما فعل فى قوله « إياك نعبد » حيث صرح بتقديم الاسم إرادة للاختصاص والدليل عليه قوله : « بسم الله مجريها ومرساها » . ثم ذكر أن الباء فى بسم الله للاستعانة أو المصاحبة ، واختار الوجه الأخير .

ويقول محمد عبده : « افتتاح القرآن بهذه الكلمة إرشاد لنا بأن نفتتح أعمالنا بها ، فما معنى هذا ؟ ليس معناه أن نفتتح أعمالنا باسم من أسماء الله تعالى بأن نذكره على سبيل التبرك أو الاستعانة به ، بل أن نقول هذه العبارة : بسم الله الرحمن الرحيم ، فإنها مطلوبة لذاتها » .

« ومثل هذا التعبير مألوف عند جميع الأمم . وحاصل المعنى : أنى أعمل عملى متبرئاً من أن يكون باسمى بل هو باسمه تعالى ، لأنى أستمد القوة والعناية منه وأرجو إحسانه عليه ، فلولاه لم أقدر عليه ولم أعمله ، بل ما كنت عاملا له على تقدير القدرة عليه لولا أمره ورجاء فضله .. فلفظ الإسم معناه مراد ، ومعنى لفظ الجلالة مراد أيضاً ... وهذا الاستعمال معروف مألوف فى كل اللغات ... ومعنى البسملة فى الفاتحة أن جميع ما يقرر فى القرآن من الأحكام والآيات هو لله ومنه وليس لأحد غير الله فيه شىء » .

والله : اسم غير صفة ، مختص بالبارىء ، لم يطلق على غيره . وقال

الفخر الرازى : « المختار عندنا أن هذا اللفظ اسم علم لله تعالى ، وأنه ليس بمشتق البتة ، وهو قول الخليل وسيبويه وقول أكثر الأصوليين والفقهاء » .

وقد كان العرب فى الجاهلية يبدأون باسم اللات والعزى ؛ حتى كتب أمية ابن أبى الصلت : باسمك اللهم .

والبسملة آية من الفاتحة ، وقيل ليست منها ، ويؤيد الأول أن رسول الله عد الفاتحة سبع آيات ، وعد « بسم الله الخ » آية منها كما روى البخارى والبسملة آية من كل سورة كذلك على ما رجح إلا سورة براءة بإجماع الصحابة ، على إثباتها فى المصحف أوائل السور سوى براءة مع المبالغة فى تجريد القرآن مما ليس منه من مثل التعوذ ، ومثل « آمين » ، فلو لم تكن قرآناً لما أجازوا إثباتها ، وأيضاً هى آية من القرآن فى سورة النمل .

أما ما أثبت فى الصحف من أسماء السور والأعشار فشىء ابتدأه الحجاج المتوفى عام ٩٣ هـ بمدينة واسط .

والبسملة وما بعدها إلى آخر السورة مقولة على ألسنة الناس ليعلموا كيف يتبرك باسمه ، ويحمد على نعمه ، ويسأل من فضله . ولفظ الجلالة مذكور فى القرآن فى نحو ألفين وستمائة موضع ، وهو علم على ذات الله الأعظم ، والرحمن الرحيم صفتان مشبهتان بنيتا للمبالغة من الفعل « رحم » ، والرحمن أبلغ من الرحيم . وتخصيص التسمية بهذه الكلمات الثلاثة : الله ـ الرحمن ـ الرحيم ، ليعلم الناس أن المستحق لأن يستعان به فى جميع الأمور هو المعبود الحقيق الذى هو مولى النعم كلها عاجلها وآجلها جليلها وصغيرها ، فيتوجه الإنسان بجملته إلى الله حرصاً ومحبة ، ويتمسك بحبل التوفيق ، ويشغل قلبه بذكره .

فالرحمن الرحيم مشتقان من الرحمة ، وهى معنى يلم بالقلب فيبعث صاحبه ويحمله على الإحسان إلى غيره ، والمراد بها فى جانب الله عز وجل شدة عطفه على خلقه ، وحنانه بهم وإحسانه إليهم ، ويذهب بعض المفسرين إلى أن معناهما واحد والثانى توكيد للأول معنى ، والجمهور على أن الرحمن هو المنعم بجلائل النعم ، والرحيم معناه المنعم بدقائق النعم ، والبعض يقول : إن الرحمن هو المنعم

بنعم عامة تشمل المؤمنين والكافرين ، والرحيم هو المنعم بالنعم الخاصة بالمؤمنين
ويقول المنار : إن معنى الرحمن كثير الإحسان ، قال الإمام محمد عبده : « لفظ الرحمن يدل على من تصدر عنه آثار الرحمة بالفعل وهى إفاضة النعم والإحسان ولفظ الرحيم يدل على منشأ هذه الرحمة والإحسان ، وعلى أنها من الصفات الثابتة الواجبة لله تعالى ، فالله عز وجل رحمان لأنه رحيم ، أى منعم بنعم لأنه موصوف بصفة الرحمة . فمعنى الآية الأولى قد وضح بما ذكرناه .

أما الآية الثانية وهى « الحمد لله رب العالمين » فمعناها إقرار بالعبودية لله وبتوحيده كذلك ، فالحمد والثناء والعبادة لله ، الذى هو رب العالمين والخلق أجمعين .

والحمد والمدح أخوان ؛ وهو الثناء والنداء على الجميل من نعمة وغيرها ، تقول : حمدت الرجل على إنعامه ، وحمدته على حسبه وشجاعته ، هكذا يسوى الزمخشرى فى تفسيره بين الحمد والمدح . ويرى غيره فرقاً بينهما . قال النيسابورى فى تفسيره : « المدح للحى ولغير الحى كاللؤلؤة والياقوتة الثمينة ، والحمد للحى فقط . والمدح قد يكون قبل الإحسان ، وقد يكون بعده ، والحمد إنما يكون بعد الإحسان . والمدح قد يكون منهياً عنه ، قال صلى الله عليه وسلم : « احثوا فى وجوه المداحين التراب » ، والحمد مأمور به مطلقاً ، قال صلى الله عليه وسلم : « من لم يحمد الناس لم يحمد الله » . والمدح عبارة عن القول الدال على أنه مختص بنوع من أنواع الفضائل باختياره وبغير اختياره ، والحمد قول دال على أنه مختص بفضيلة اختيارية معينة ، وهى فضيلة الإنعام إليك وإلى غيرك » . وكلام النيسابورى هـذا هو عين كلام الرازى فى تفسيره .

والحمد لله ؛ قال الطبرى : « تأويله ؛ جميع المحامد لله بألوهيته وإنعامه على خلقه بما أنعم به عليهم من النعم التى لا كفء لها فى الدين والدنيا والعاجل والآجل ... وذلك كله كلام الله جل ثناؤه ، ولكنه ، جل ذكره ، حمد نفسه وأثنى عليها بما هو له أهل ، ثم علم ذلك عباده وفرض عليهم تلاوته اختبارا

منه لهم وابتلاء فقال لهم . قولوا . الحمد لله رب العالمين ، وقولوا . إياك نعبد وإياك نستعين... والعرب قد يقولون للمسافر إذا ودعوه ؛ « مصاحباً معافى » ا يحذفون سر ، واخرج ، إذ كان معلوما معناه ، وإن أسقط ذكره . فكذلك ماحذف من قول الله تعالى ذكره « الحمد لله رب العالمين » لما علم بقوله جل وعز « إياك نعبد » ما أراد بقوله « الحمد لله رب العالمين » من معنى أمره عباده ، أغنت دلالة ما ظهر عليه من القول عن إبداء ما حذف » . اه .

والرب فى كلام العرب يطلق على معان ثلاثة هى أصول يرجع إليها كل ما عداها من المعانى ؛ السيد المطاع فيهم يدعى ربا ، والرجل المصلح للشىء يدعى ربا ، والمالك للشىء يدعى رب هذا الشىء ، فالله ربنا ، لأنه السيد المطاع والمصلح لأمور الخلق عامة ، والمالك لكل ما فى السموات والأرض .

والحمد هنا أبلغ من الشكر لأنه شكر معه ثناء ومدح ، ويقول البيضاوى : إن فيه إشعاراً بأنه حى قادر مريد عالم إذ الحمد لا يستحقه إلا من كان هذا شأنه .

والمراد بالعالمين هنا خصوص الناس من بين خلق الله ، فالعالم عام فى العقلاء وغيرهم والعالمون مختص بالعقلاء ، وهذا إشعار بأنه إله أعلى أصناف المخلوقات وهم العقلاء من بين هذه المخلوقات ، من ملائكة وأناس وجن . فما بالك بغيرهم ممن لا يعقلون من جماد وحيوان ، فالمراد إذن بالعالمين أهل العلم والإدراك من الملائكة والإنس والجن .

أما الآية الثالثة وهى « الرحمن الرحيم » فقد سبق شرحهما ضمن الآية الأولى ، وتكرير « الرحمن الرحيم » توكيد أمر رحمته وإحسانه ، ونفى الظن أن يكون الله عز وجل ليس متصفاً بالرحمة والإحسان .

قال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى تفسيره لسورة الفاتحة : « الرحمن الرحيم » تقدم معناهما وبقى الكلام فى إعادتهما ، والنكتة فيهما ظاهرة ، وهى أن تربيته تعالى للعالمين ليست لحاجة به إليهم كجلب منفعة أو دفع مضرة ؛ وإنما هى لعموم رحمته وشمول إحسانه ، وثم نكتة أخرى ، وهى أن البعض

يفهم من معنى الرب : الجبروت والقهر . فأراد الله تعالى أن يذكرهم برحمته وإحسانه ليجمعوا بين اعتقاد الجلال والجمال ، فذكر « الرحمن » وهو المفيض للنعم بسعة وتجدد لامنتهى لها ، و« الرحيم » الثابت له وصف الرحمة لايزايله أبدا ، فكأن الله تعالى أراد أن يتحبب إلى عباده فعرفهم أن ربوبيته ربوبية رحمة وإحسان ، ليعلموا أن هذه الصفة هى التى ربما يرجع اليها معنى الصفات وليتعلقوا به ويقبلوا على اكتساب مرضاته منشرحة صدورهم مطمئنة قلوبهم .

هذا وإن فى تكرير وصف الله ، جل ثناؤه ، لنفسه بالرحمن الرحيم فى فاتحة الكتاب تأكيداً لمعنى أن الدين الذى كتابه القرآن تقوم فضائله ونظمه على الرحمة والحب والإحسان ، لاعلى البغى والشقاق والطغيان .

أما الآية الرابعة ، وهى قوله تعالى « مالك يوم الدين » فمعناها أن لله الملك والحكم يوم الدين خالصا دون جميع خلقه الذين كانوا فى الدنيا ملوكا جبابرة ، والدين هنا معناه الجزاء ويوم الدين هو يوم القيامة لأن كل إنسان يجازى فيه بعمله إن خيراً وإن شرا ، وورد أن الله تعالى يقول لعبده: خلقتك أولا فأنا الله ، ثم ربيتك بوجوه النعمة فأنا رب ، ثم عصيت فسترت عليك فأنا رحمن ، ثم تبت عليك فأنا رحيم ، ثم لابد من إيصال الجزاء اليك فأنا مالك يوم الدين .

وهذه الآية تدل على أن الملك لله فى الآخرة ، وأنه لا يكون فيها ملوك يحتمى بهم ويلاذ بظلهم ، فلامهرب للناس منه تعالى ، أى أن الله ترك الناس فى الدنيا يعملون وبعث رسله إليهم مرشدين ، وأقام الحكام منظمين لشئون الناس فمنهم عادلون ومنهم قاسطون ، ثم بعد ذلك يجمع الناس إليه ، ويحاسبهم فى يوم لاملك فيه إلالله الواحد القهار ، « لمن الملك اليوم؟ لله الواحدالقهار » .

وقدجاء قوله« مالك يوم الدين » بعد « الرحمن الرحيم » ليكون كالترهيب بعد الترغيب ، فمع رحمته وإحسانه هو حاكم عادل يوم لاحكم إلا لله .

والآية الكريمة وهى « إياك نعبد وإياك نستعين » معناها

أعبدك ولا نعبد غيرك ، ونستعين بك لا بسواك ، فهى لتخصيص الله جل جلاله بالعبادة والاستعانة ، فليس هناك عبادة تصدر من المخلوقين إلا وحقها أن تكون لله ، وليس هناك استعانة يصح أن تعلق بأحد إلا بالله ، وهنا ينبثق نور التوحيد مشرقا ، وتقف الوثنية حائرة ، ويتلفت الشرك مذعوراً ، إن الخضوع إلا لله ، وإنما العبادة له جل جلاله ، فمن الشرك عبادة أحد مع الله . ومن الشرك عبادة المال والتكالب عليه والاعتقاد أنه هو الذى يقدم ويؤخر وينفع ويضر ، والعبادة والاستعانة هنا لا تنافى الإيمان بكرامة الرسل والأولياء والصالحين . هذا والعبادة هى الطاعة مع غاية الخضوع ، أوهى خضوع ينشأ عن استشعار القلب بعظمة المعبود اعتقادا بأن له سلطانا لا يدرك العقل حقيقته ، لأنه أعلى من أن يحيط به فكره ، أو يرقى إليه إدراكه وللعبادة نظم تختلف باختلاف الديانات والشرائع ، والاستعانة هى طلب المعونة ، والمعونة هى سد العجز ، والمساعدة على إتمام العمل الذى يعجز عنه المستعين بنفسه .

ترشدنا هذه الجملة أو الآية الوجيزة إلى أصلين عظيمين من أصـــول الإسلام هما دعامتا السعادة فى الدنيا والآخرة ؛ أحدهما أن لا نعبد أحداً سوى الله لأنه المنفرد بالسلطان والألوهية ، وثانيهما ألا نستعين إلا به ، ولا نطلب المعونة الموصلة إلى الثمرة المرجوة ، والمتممة للأعمال التى نقوم بها إلا من الله بعد تقديم الأسباب التى يمكننا كسبها وتحصيلها ، وفى الجملة « إياك نستعين » إشارة إلى أن نحرص على عمل الأعمال النافعة ، ونجتهد فى إتقانها ما استطعنا ، لأن طلب المعونة لا يكون إلا على عمل بذل فيه المرء طاقته ، فلم يوفه حقه ، أو يخشى ألا ينجح فيه فطلب المعونة على إتمامه وكماله ، والاستعانة بالله ترادف التوكل على الله ، التوكل الصحيح ، الذى يأتى بعد تقديم الأسباب ، وبذل الجهد ، وهى من كمال التوحيد والعبادة الخالصة ، وبها يكون المرء مع الله عبداً خاضعاً مخبتا ، ومع الناس حرا كريماً لا سلطان لأحد عليه ، وفى هذا إطلاق لكرامة الإنسان ، وتحريرله من إسار الطغاة ، والزعماء المضللين وفك للإرادة من أسر الدجالين والكذابين .

أما قوله تعالى فى آخر هذه السورة : « اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين » ، فعلى معنى : اللهم إياك نعبد وحدك لاشريك لك ، مخلصين لك العبادة دون ماسواك من الآلهة والأوثان ، فأعنا على عبادتك ، ووفقنا لما وفقت له من أنعمت عليهم من أنبيائك وأهل طاعتك ، من السبيل السوى ، والصراط المستقيم ، الذى هو الطريق الحق ، طريق الإسلام ، وطريق القرآن ، الطريق الموصل إلى رضائك وجنتك ، فالصراط المستقيم هو الدين أو الحق ، أو كل ما يوصلنا إلى سعادة الدنيا والآخرة من عقائد وآداب وأحكام وتعاليم . والهداية هى الدلالة بلطف ، والمراد بها الإلهام والتوفيق والبعث على عمل الخير ، وتحريك القوى الإنسانية نحو الحق ، والهداية أنواع ؛ هداية الوجدان الإنسانى فى الناس ، وهداية الحواس والمشاعر ، وهداية العقل ، وهداية الشرائع المنزلة من السماء ، وقوله تعالى « صراط الذين أنعمت عليهم » ، معناه طريق الذين رضى الله عنهم ، وأنعم عليهم بنعمة التوفيق من الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين ، وقوله تعالى « المغضوب عليهم » هنا هم الذين خرجوا عن الحق ، وحادوا عن طريق الرشاد مع علمهم بالحق والرشاد والهدى ، وانصرفوا عن الدليل ، وعكفوا على ماورثوه عن آبائهم وأجدادهم ، إيثارا للتقليد ووقوفا عند شرائع الآباء ، أما الضالون فهم الذين لم يعرفوا الحق البتة ، وليس لهم تفكير صائب يرشدهم إليه .

المغضوب عليهم هم الزعماء الذين يضللون الجماهير وينحرفون بهم عن طريق الهداية والدين الحق ، والضالون هم العامة والجماهير التى لاتفكر ولاتتدبر وإنما تتبع أول ناعق ، وتسير مع كل ركب ، وتستصوب الحق آنا ، والباطل أحيانا ، فكأن المراد ؛ اهدنا يا الله إلى طريق الحق ، طريق أنبيائك ورسلك الملهمين ، وباعد بيننا وبين طريق الشر ، طريق القادة المضللين ، وطريق الجماهير والعامة المضللين .

قال الطبرى : « إبانة عن الصراط المستقيم ، أى الصراط هو ، إذ كان

كل طريق من طرق الحق صراطاً مستقيما ، فقيل لمحمد صلى الله عليه وسلم : قل يامحمد : اهدنا يا ربنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك ، من ملائكتك وأنبيائك ، والصديقين والشهداء والصالحين » .

وتدل هذه الآية كما فى تفسير الرازى على أن المكلفين ثلاث فرق : أهل الطاعة ، وإليهم الإشارة بقوله « أنعمت عليهم » وأهل المعصية ، وإليهم الإشارة بقوله « غير المغضوب عليهم » وأهل الجهل فى دين الله والكفر ، وإليهم الإشارة بقوله « ولا الضالين » .

أما « آمين » فهى ، كما يقول الزمخشرى ، صوت سمى به الفعل الذى هو : استجب .

وعن النبى صلى الله عليه وسلم : « لقننى جبريل عليه السلام (آمين) عند فراغى من قراءة فاتحة الكتاب ، وقال إنه كالختم على الكتاب » ، وليس آمين من القرآن بدليل أنه لم يثبت فى المصاحف . وفى تفسير البيضاوى : وليس (آمين) من القرآن وفاقا .

فكأن معنى « آمين » : استجب يا الله دعاءنا (١) .

* * *

هذه هى سورة الفاتحة ، التى تضمنت أروع الأصول العامة فى الإسلام وأهم مافيها من أصول : التوحيد ، وقصر العبادة على الله وحده ، والثناء البليغ على الله لأنه أجل من يستحق بآلائه الثناء ، والاستعانة به فى الشدائد وعند عجز القوى الإنسانية فى الإنسان ، وطلب الهداية منه ، والاستشراف إلى اتباع سبيل محمد صلوات الله عليه ، وهى السبيل الحقة ، سبيل المعرفة ، والهدى والخير والحق والرحمة والعدل والمدنية والحضارة ، والدعاء بأن

---

(١) يرى بعض علماء الآثار المصرية أن آمين فى اللغة المصرية القديمة معناها الله ، وهذا لاينفى أنها عربية أوعلى الأقل معربة ، وأن معناها فى اللسان العربى الذى نزل به القرآن : استجب .

يبعد الله الإنسان عن سبيل الشر والشيطان والضلال والإضلال وأن يجنبه الخطأ والانحراف عن الصواب .

هذه هي سورة الفاتحة بما تشتمل عليها من تعلق القلب بذكر الله ، ومن تخصيص الحمد بالله ، ومن قصر العبادة والثناء والتوكل عليه ، ومن معرفة بعظمته ونعمته وقوته وأنه الرحيم الرحمن ، ملك الملك ، ورب الكون والحاكم العادل وحـــده يوم القيامة ، ومن دعاء الله بأن يمنح المسلم الهداية والتوفيق ، ويجنبه الشرور والآثام وطريق الشيطان التي هي جماع الضلال والإضلال .

سورة كريمة رفيعة ، جديرة بالتلاوة صباح مساء ، وعند أداء الصلوات ، وفي كل وقت ومكان .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أتاه ملك ، فقال : أبشر بنورين لم يؤتهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ حرفا منهما إلا أعطيته » .

ولعظمة هذه السورة واشتمالها على أصول كثيرة من أصول الإسلام ، وجب قراءتها في الصلاة ، وسورة الفاتحة هي المذكورة في القرآن الكريم في سورة الحجر « ولقـــد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم » ، وفي الحديث عن أبي سعيد المعلى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له وهو في المسجد « لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن ، الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني ، والقرآن العظيم الذي أوتيته » .

(٢)

سورة البقــرة

تمهيـــد

هـذه السورة مدنية ، وهى مائتان وست أو سبع وثمانون آية ، فهى أطول سورة فى القرآن الكريم ، ومنها آية نزلت - على مايقال - فى حجة الوداع ، وروى أنهـا آخر القرآن نزولا ، وهى . واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله (١) ، ومعظم هذه السورة نزل فى أول الهجرة .

وتتضمن أصولا جليلة ، منها الدعوة إلى التوحيد ، وبيان صدق الوحى والرسالة والكتاب المنزل على محمد صلوات الله عليه ، ثم ذكرت تمرد الأمم القديمة على الرسالات السماوية ومنهم بنو إسرائيل ، وذكرت أبا الأنبياء إبراهيم وبناءه الكعبة ، وثلث بذكر موضوع القبلة والجهة التى يولى المسلمون فيها وجوههم شطرها ، ثم أمر الله المسلمين بالاستعانة بالصبر والصلاة على النهوض بتبليغ الرسالة ، وذكر كثيراً من شرائع الحج والعمرة ، وبين مايؤكل وما لا يصح أكله ، وحرم الخمر والميسر وحث على الإيمـان ، ثم أفاض فى ذكر أحكام كثير من الشئون ، فذكر أحكام القصاص ، وأحكام الصيام ، وأحكام الجهاد فى سبيل الله ، ثم انتهى إلى تأكيد دعوة التوحيد ، ودعا إلى تحريم الربا ، وإلى الإنفاق والإحسان والصـدقات ، إلى آخر مااشتملت عليه السورة مما سنفصل الكلام فيه فى آخر السورة .

وقد سميت هذه السورة باسم غريب عجيب هو البقرة ، والبقرة لا تعرفها العرب ، وليس فى بلادها منها شىء ، وقد ذكر الله قصة بقرة بنى إسرائيل فسميت السورة كلها باسمها ، بعثا للنفوس على التعجب والاستغراب ، وتوشية للموضوع بالطرافة والجدة ، وحفزا للقارى والسامع على الإقبال على الفهم ، وكأن الله عز وجل يقول للعرب : لا تغتروا بعلمكم ، فهناك أشياء لم تحيطوا بعلمها ، وسأقص عليكم بعضها .

---

(١) الآية ٢٨١ - البقرة

إن أسماء السور كما يذهب إليه الكثيرون نزلت من الله ، وعلى مايذهب إليه القليلون : من إلهام الله لنبيه محمد صلوات الله عليه

شرح السورة

نعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

البسملة سبق شرحها ، أما الاستعاذة فلا بأس من الكلام عليها ، لأن فيها فائدة جليلة .

الاستعاذة أو عبارة « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » ليست جزءا من الفاتحة ، بل هي ليست من القرآن ، وليست مدونة فى المصحف الشريف الجامع للقرآن المنزل على محمد عليه الصلاة والتسليم ، وإنما يؤتى بها عند تلاوة الكتاب اتباعا لقول الله سبحانه : « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » سورة النحل آية ٩٨ .

والتعوذ مستحب لكل قراءة عند الجمهور ، سواء كانت القراءة فى الصلاة أو فى غيرها . وقال عطاء : الاستعاذة واجبة لكل قراءة . وعن ابن سيرين : إذا تعوذ الرجل مرة واحدة فى عمره فقد كفى فى إسقاط الوجوب .

واتفق الأكثرون على أن قراءة الاستعاذة قبل قراءة الفاتحة . ويرى بعضهم أنه إذا قرأ القارىء سورة الفاتحة وقال « آمين » ، فبعد ذلك يقول : أعوذ بالله : وهناك قول ثالث ، وهو أن يقرأ الاستعاذة قبل القراءة وبعدها جمعاً بين الأدلة المختلفة .

وتفسير « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » كما فى الطبرى : « أستجير بالله دون غيره من سائر خلقه من الشيطان أن يضرنى فى دينى أو يصدنى عن حق يلزمنى لربى » اه .

والشيطان فى كلام العرب : كل متمرد من الجن والإنس والدواب وكل شىء . وفى كتاب المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى :

«وسمى كل خلق ذميم للإنسان شيطانا ، فقال عليه السلام : «الحسد شيطان ، والغضب شيطان» .

والشيطان الرجيم: المطرود عن الخيرات وعن منازل الملأ الأعلى . وعلى هذا فمعنى العبارة : ألتجىء إلى الله وأستنصر به على كل شىء من خلقه صاد عن الخير من جواهر الكون وأعراضه .

قال فخر الدين الرازى : «إن سر الاستعاذة هو الالتجاء إلى قادر يدفع الآفات عنك ، ثم إن أجل الأمور التى يلقى الشيطان وسوسته فيها قراءة القرآن ، لأن من قرأ القرآن ونوى به عبادة الرحمن وتفكر فى وعده ووعيده ، وآياته وبيناته ، ازدادت رغبته فى الطاعات ، ورهبته عن المحرمات فلهذا السبب صارت قراءة القرآن من أعظم الطاعات ، فلا جرم كان سعى الشيطان فى الصد عنه أبلغ ، وكان احتياج العبد إلى من يصونه عن شر الشيطان أشد ، فلهذه الحكمة اختصت قراءة القرآن بالاستعاذة .

١ — الٓمٓ

هذه هى الآية الأولى من سورة البقرة إذا سرنا على أن «البسملة» لا تعد آية من أية سورة من سور القرآن الكريم .

وقد سبق الإفاضة فى المقدمة فى فواتح سور القرآن الكريم ومعناها .

وخلاصة ذلك أن هذه الكلمة عبارة عن : ألف ـ لام ، ميم ، وهكذا تقرأ ساكنة الأواخر ، ومعنى ذلك لفت الذهن إلى حروف العربية ، وإلى أن القرآن كتاب عربى مبين ، وإلى أنه مؤلف من جنس ما يتكلم به العرب ، فلم اختص بهذه البلاغة ، وبهذا الإعجاز ؟ ليس ذلك إلا لأنه كلام رب البشر ، لا كلام أحد من الخلق ، وإذا ثبت نزوله من الله ثبت صدق رسالة محمد ووجوب الإيمان بدعوته على الناس كافة (١) .

---

(١) يذهب بعض المفسرين إلى أن مثل «ألم» من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه ، ويقول البعض وهو مروى عن ابن عباس : معنى «ألم» ، أنا الله أعلم ، ومعنى «ألر» أنا الله أرى ، ومعنى «ألمر» أنا الله أعلم وأرى . وقيل : إن مثل ذلك أسماء للسور ، أو للقرآن .

وافتتاحات السور من المكتوم الذى استأثر الله به فى رأى السلف . فيرد علمه إلى الله عز وجل فنقرؤها كما جاءت ، ونؤمن بها ولا نتكلم فيها . وبه قال سفيان الثورى والربيع بن خيثم واختاره ابن حبان . وقال قوم : اختص الله بعلمها نبيه صلى الله عليه وسلم . وفى تفسير الإمام محيى السنة البغوى المتوفى سنة ستة عشر وخمسمائة عن داود ابن أبى هند قال : كنت أسأل الشعبى عن فواتح السور ، فقال : ياداود إن لكل كتاب سرا وإن سر القرآن فواتح السور فدعها ، وسل عما سوى ذلك .

وقال جمهور الخلف بوجوب التماس فهمها ، ورجحه بن عطية قال : فعلينا أن نفسر هذه الحروف ونلتمس الفوائد التى تحتها والمعانى التى تتخرج عليها . وإنما ذهبوا إلى ذلك حيث لا اجماع على التفويض ولا على استنباط معانيها ولا على وجه معين من تلك المعانى ، ومن المقطوع به أن الله تعالى لم ينزلها عبثاً ولا سدى ، وقد قال عز شأنه فى القرآن « تبيانا لكل شىء » ولا يكون تبيانا وهو غير معلوم ، والمكلف لا يخاطب بما لا يفهم كما لا يخاطب العربى بالأعجمية إلا إذا أمكن ترجمتها ولا يصح التحدى إلا بما يمكن فهمه . وتسليم الراسخين فى المتشابه لا يمنع اطلاعهم على شىء منه وهم لا يزالون معترفين بأن علمهم بالنسبة لما لم يعلموه قليل . والمعارف أمر نسبى والتفاوت فيها حاصل .

وقال قتادة : وزيد بن أسلم : هى أسماء للسور ونقل ذلك عن سيبويه وأيده الزمخشرى . وقد سمت العرب بالحرف كما سموا بلام والد حارثة بن لام الطائى ، وقال الزجاج . أذهب إلى أن كل حرف منها يؤدى معنى وقد تكلمت العرب بالحروف المقطعة نظما لها ووضعا بدل الكلمات التى الحروف منها كقوله . فقلت لها : قفى فقالت (قاف) أى وقفت ، وكقوله عليه السلام « كفى بالسيف شا » أى شافيا ، والتعريف الإلهى فى هذه الحروف كاف عن السياق الذى يدل على الكلمات التى هى منها ، وروى أبو الضحى عن ابن عباس فى قوله « الم » أنا الله أعلم و « الر » أنا الله أرى . و « المص » أنا الله أفصل . وعنه أيضا الألف من الله واللام من جبريل والميم من محمد صلى الله عليه

وسلم ، وقال الكلبي : هى أقسام أقسم الله بها لشرفها وفضلها وهى من أسماء الله تعالى ، ومثله عن ابن عباس رضى الله عنهما . وعلى هذا الوجه فموضع القسم « لاريب فيه » ، ومن قال : والله هذا الكتاب لاريب فيه كان كلامه صحيحا .

وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قال : أما « الم » فهى حروف استفتحت من هجاء أسماء الله تعالى ، وقال أبو العالية : ليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من اسماء الله تعالى . فالألف مفتاح اسم الله . واللام مفتاح اسمه « لطيف » والميم مفتاح اسمه « مجيد » ، وكذلك قال سالم بن عبدالله والسدى وروى ابن جرير عن شعبة قال : سألت السدى عن « حم ، وطسم ، والم » فقال : قال ابن عباس : هى اسم الله الأعظم . وأخرج بسند صحيح عن ابن مسعود قال : هو اسم الله الأعظم ومثله عن سيدنا على كرم الله وجهه ، وأخرج ابن ماجة فى تفسيره من طريق نافع عن أبى نعيم القارى عن فاطمة بنت على بن أبى طالب رضى الله عنه أنها سمعته يقول : « يا كهيعص اغفرلى » وجاء عنه أنه كان يقول : يا كهيعص ، ياحم عسق » .

وقال سعيد بن جبير هى أبعاض من أسماء الله تعالى فإن « الر . حم . ن » مجموعها اسمه تعالى « الرحمن » ولكنها تحتاج لعلم خاص لمعرفة تركيبها . ونقل العلامة أبو حيان فى تفسيره عن الإمام محمد بن الحنفية أنه سئل عن « كهيعص » فقال للسائل . لو أخبرت بتفسيرها لمشيت على الماء لا يوارى قدميك ، ومعنى كلامه عليه السلام — والله أعلم — أن من تحقق بأنوار مادلت عليه من الأسرار حصل الله له الصفاء الروحى فألحق الله عز وجل مادته الجمادية إلى حال الأرواح فسما بفضل الله عن القيود الكثيفة فتخرق له العادة بإذن ربه القدير سبحانه وتعالى ، وقال بعض أهل العربية هى حروف من حروف المعجم استغنى بذكر ماذكر منها فى أوائل السور عن ذكر بواقيها كما يقول القائل ، ابنى يكتب ألف ، باء ، تاء .

هذا ومجموع الحروف المذكورة فى أوائل السور أربعة عشر حرفا .

وإنما ذكرت بيانا لإعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله مع أنه مركب من الحروف التى يتخاطبون بها ، خاصتهم وعامتهم .

وحكى القرطبى هـذا الوجه عن الفراء وقطرب ، والرازى عن المبرد وجمـــع من المحققين . وهو رأى ظاهر يشهد أننا إذا نظرنا فى الحروف المذكورة وجدناها تشتمل على أنصاف أجناس الحروف كما قال الزمخشرى من المهموسة نصفها ومن المجهورة نصفها ، ومن الشديدة نصفها ؛ ومن الرخوة نصفها ، ومن المطبقة نصفها ، ومن المنفتحة نصفها ، ومن المستعلية نصفها ، ومن المنخفضة نصفها ، ومن حروف القلقلة نصفها . ويدل هذا على أنه تعالى عدد للعرب الألفاظ التى منها تراكيب كلامهم تبكيتا لهم وإظهار العجزهم ولولا أنه كلام خالق القدر لم يعجز البشر عن الإتيان بمثل أقصر سورة منه كالكوثر . قاله المبرد وغيره ، وأخرج الحاكم فى المستدرك عن ابن عباس بسند صحيح أن معنى « طه » يامحمد بلسان الحبش - ولا يضر أن يكون بأى لسان . وكذلك ذكر الحافظ ابن كثير عند قوله تعالى « سلام على آل ياسين » قال . وهى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه ، وقرأ آخرون (سلام على آل ياسين) يعنى آل محمد صلى الله عليه وسلم .

ومن المتيسر الجمع بين هذا الوجه وبين مارواه الحاكم فى المستدرك . عن ابن عباس رضى الله عنهما فى معنى كهيعص قال : ك من كريم وها من هاد ، ويا من حكيم ، وعين من عليم ، وص من صادق ، وسنده صحيح ، وعنه أيضا قال : كاف هاد أمين عزيز صادق وسنده صحيح — على شرط مسلم .

وقد سمى الله تبارك وتعالى المصطفى صلى الله عليه وسلم (رؤوفا رحيما) فهو تشريف له صلى الله عليه وسلم بأنه مجلى أنوار الرأفة والرحمة الربانية، قال تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وقال صلى الله عليه وسلم: إنما أنا رحمة مهداة . رواه الحاكم بسند صحيح فهو كريم صلى الله عليه وسلم ، وهاد صلى الله عليه وسلم، وهو حكيم صلى الله عليه وسلم، وأمين صلى الله عليه وسلم، وعليم صلى

الله عليه وسلم ، وعزيز صلى الله عليه وسلم ، وصادق صلى الله عليه وسلم ، على الوجه الذى يليق بمرتبة الخلق واسمه تعالى الأول والآخر سرى نورهما إليه صلى الله عليه وسلم فكان أولا وآخرا بنسبة المرتبة المخلوقة الشريفة صلى الله عليه وسلم ، وعنه صلى الله عليه وسلم : كنت أول النبيين فى الخلق وآخرهم فى البعث ، ومن السلف الصالح من احتج بالمرسل ، ومثله مقبول فى المناقب والأصول تشهد له ، وقال صلى الله عليه وسلم : أنا أول شافع وأول مشفع ـ أنا أول من يجيز أمته على الصراط ، أنا أول من يأخذ بحلق الجنة . ، وكأن الحق تبارك وتعالى يقول : يا عبدى الخاص الذى شرفته فخلعت عليه خلع الكمال فكان مظهراً للكمال الإلهى فى مرتبة الإمكان ، وأبديت فيه آثار صفاتى وأسمائى فكان أعلى مرتبة وأجمع مرتبة لظهور جمالى وجلالى وكمالى فهو أكمل الخلق وسيد المرسلين لأنه أكمل عبد لله قياما بحقوق العبودية ، وحملا وتحقيقاً وظهوراً بكمالات الربوبية . مع عموم رسالته وصلاحها لكل زمان ، والمؤمن البصير بدينه لايحتاج لتنبيه إلى أن كل هذا لاصلة له بالعقائد الوثنية الباطلة من حلول واتحاد وتجسد ونحو ذلك ، لأنها غير الحقيقة ، وإنما هو من سبيل « فجعلناه سميعاً بصيراً » . إلا أن ذلك بوجه أخص من البصر العام والسمع العام . قال صلى الله عليه وسلم : إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق .

وقد تقدم عن بعض الصحابة رضوان الله عليهم أن أوائل السور هى الإسم الأعظم . وقد ورد فى بعض الروايات فى الاسم : ياحنان يامنان . وورد : الأحد الصمد ، وورد : ياحى ياقيوم . وعلى هذا يصح أن يكون هذا الاسم مركباً من أسماء عدة ، فإذا كان كل حرف من أوائل السور يدل على اسم من الأسماء التى بمجموعها هو اسم الله الأعظم ، ولم يتحقق مخلوق فى الوجود بأنوار الأسماء الإلهية كما تحقق بها صلى الله عليه وسلم ، وكما أشرقت أنوارها فى روحه الشريفة وذاته الكريمة ، كان هو الفرد الذى حمل أنوار الاسم الأعظم وظهر بها وظهرت فيه .(١)

---

(١) طريق الحق ـــ للأستاذ الكبير السيد الحافظ التيجانى .

٢ — ذَٰلِكَ الْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ
٣ — الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنْفِقُونَ
٤ — وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ
٥ — أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

أربع آيات كريمة تنوه بشأن القرآن وصدقه وجلال أثره . وأنه هدى للمتقين ، ثم هى تحدد هؤلاء المتقين ، بمن يؤمنون بالدين كله وخاصة بالأمور الغيبية فيه، بما لا تدركه الحواس ، من مثل وجود الله واليوم الآخر وغير ذلك ، ويقيمون الصلاة ، وينفقون من أموالهم فى سبيل الخير والإحسان إلى الفقير ، وبمن آمنوا برسالة محمد وما أنزل إليه من القرآن والدين ، وما أنزل على الرسل قبله كابراهيم وموسى وعيسى ، وأيقنوا بالآخرة إيقانا لا سبيل للشك معه، ثم بين الله رضاءه على هؤلاء المتقين وتوفيقه لهم ، وهدايته إياهم بهدى إلهى يلهمهم ويرشدهم ، وأنهم دائما فى فلاح فى الدين والدنيا والآخرة وفوز مبين .

وتتضمن هذه الآيات الأربع تلخيصاً عاما لدعوة الإسلام ، ماهى هذه الدعوة ؟ إن هى إلا إيمان بالقرآن وبأنه لاسبيل للشك فى أنه منزل من الله وهاد للانسانية ، وإن هى إلا حرص على التقوى ، التقوى التى من أهم دعائمها : الإيمان بالله ، وأداء للصلاة ، وحب للبذل والإنفاق على الفقراء والمساكين ، وإيمان كامل بكل ما نزل من السماء من كتب سماوية مقدسة وفى أولها القرآن الكريم ، الإيمان بالقرآن ، والإيمان بما صح من التوراة والإنجيل وسواهما لأن أصول شريعة الله فى جميع الأديان واحدة ، والقرآن يجمعها كلها ويزيد عليها ماشاء الله ؛ وإنما نقول : ماصح من التوراة والانجيل، لأننا نؤمن أنهما حرفا تحريفا كثيراً عما أنزل الله ، وأنهما أصبحا اليوم من كلام الحوار يين لا من كلام رب العالمين ، ثم إيمان بالآخرة وبالجزاء فيها ؛ فمن آمن بذلك كله

وعمل بهذه الأعمال الطيبة الكريمة فهو فى رضاء الله وهدايته ، وهو فى فلاح وفوز دائم فى الدنيا والآخرة .

فقوله تعالى «ذلك الكتاب» إشارة إلى الكتاب الذى يقرؤه محمد على الناس وهو القرآن ، وهذه الإشارة فيها من التعظيم ما فيها ، إلى ما فى «الكتاب» وإبهامه من التعظيم ما فيه ، أى الكتاب الكامل الذى لا يستحق أن يسمى كتابا سواه ، والمعنى على أن هذا الكتاب الذى شهر محمد بنزوله عليه ، والذى يقرؤه على الناس ، والذى بشر به الأنبياء قبل محمد ، لاريب فيه ، لاريب فى أنه من الله ، ولاريب فى صدقه ، ولاريب فى هدايته للانسانية لأنه كتاب البشرية عامة وناموس العالم كله .

فلا ينبغى لأحد أن يرتاب فيه ، فضلا على أن يكون المرتاب مسلما ، والريب والريبة : قلق النفس واضطرابها وحيرتها ، وسمى الشك ريبا لأنه يقلق ويزيل الطمأنينة ، فالشك ريبة .

ولا ينبغى للإنسان أن يزعم أن القرآن لا يصلح لحكم العالم وقيادته وحسن توجيهه ، لأن هذا الزعم مناف للحق ، ولأن مبادىء القرآن قد جربت فى الأمم ، حيث أحدثت أعظم الانقلابات فى تاريخ البشرية ، وأحدثت من النهضة والتقدم والحضارة مالم يحدثه أى كتاب آخر ، ومن العجب أن يزعم بعض المسلمين الذين تأثروا بالاستعمار الأوربى الفكرى أن الإسلام شريعة الرجعية القديمة ، وأنه لا يصلح تطبيقه فى العصر الحديث أليس مثل هذا الزعم الباطل ريبا فى الإسلام . وبالتالى هو ريب فى مصدر دعوة الإسلام وهو القرآن الكريم .

ومن المؤسف كذلك أن لا يعمل المسلمون اليوم بالقرآن . فتركهم العمل به هو فى معنى الريب الذى نفاه الله عز وجل عن القرآن بقوة وبلاغة لا مثيل لها .

وقوله تعالى هدى للمتقين ، خبر بعد خبر ، هو لاريب فيه . وهو هدى للمتقين ، أى هو مصدر الهدى ، والبلاغة واضحة فى هذا التعبير ، وهو ولا شك أشد بلاغة ، من « هاد للمتقين » ، والمتقون هم الذين يتجنبون العقاب

الإلهى الذى أنذر الله به العاصين من عباده فى الدنيا والآخرة ، وهم الذين يخافون الله ويحذرون عذابه ، وللتقوى ثلاث مراتب : الأولى اجتناب الخلد فى النار بالإيمان برسالة محمد عليه السلام ، والثانية اجتناب الإثم ماصغر منه وما كبر ، وفى ذلك يقول عمر بن عبد العزيز : التقوى ترك ماحرم الله ، وأداء ماافترض الله ، والثالثة أن يتنزه عما يشغل سره عن الحق بأن يعلق دائماً قلبه وجوارحه بالله ويتذكره دائماً فى سره وعلنه ، وهذه التقوى هى المطلوبة من كل مسلم ، وهى التى أمرنا الله تعالى بها فى قوله : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته » ، وقال ابن عمر : التقوى أن لاترى نفسك خيراً من أحد ، إن مخالفة دين الله وشرعه ومخالفة سنته فى نظام خلقه ، تناقض التقوى تمام المناقضة ، فلا تتفق التقوى مثلا مع هذه الإباحية ومع هذا السفور ، ومع ذلك الاستهتار الذى نلاحظه فى الشباب الإسلامى اليوم ، وهى لا تتفق مع ظلم الناس وظلم الرعية ، ولا مع الإصرار على الإثم والمفاخرة بفعله والجهر بدعوة السوء ، والدعاية للفجور ، فهذه الأمور كلها مخالفة صريحة للاسلام ، ولا يقبل منا معها أن نسمى أنفسنا مسلمين ، دون أن تكون لنا شخصية المسلمين وصفاتهم وأعمالهم .

وقوله تعالى « الذين يؤمنون بالغيب » معناه يصدقون بما غاب عنهم من وجود الله والوحى والبعث والجزاء والجنة والنار ، مما أخبر به القرآن الكريم والإيمان هو التصديق بما علم بالضرورة أنه من دين محمد صلى الله عليه وسلم كالتوحيد والنبوة والبعث والجزاء ، ومن الإيمان بالغيب الإيمان بالدين نفسه ، فإن الإيمان بالدين جزء متمم لفطرة الإنسان ، فالدين أو الإسلام هو فطرة الله التى فطر الناس عليها ، ولا يستقيم هذا مع الميل إلى الشيوعية التى تضع فى صدر مبادئها : « الدين خرافة ومخدر للشعوب » ، ونحن ننادى كل مسلم إلى أن يعتقد أن الدين أو الإيمان بالله معناه النجاح فى الحياة ومعناه التقدم والنهضة والرقى والفوز ، فليس الدين أو الإسلام خاصة أوهاما وخزعبلات وجموداً وتعويقاً عن النهضة ، إنما هو فى حقيقته أعظم نظام عالمى ، وأحدث دستور إنسانى ، يؤمن بالنهضة ويدفع إليها ويستحثها . والمسلم يجب عليه أن يفهم أصول الإسلام عامة قبل أن يندفع فى الطريق التى يوجهه نحوها

الاستعمار وأوربا المسيحية المتعصبة التى تؤمن بأن لا بقاء لها إلا بمحو الإسلام وإبادة المسلمين .

والصلاة وأداؤها أصل من أصول الإسلام ، ومعناها الذى ترمز إليه مناجاة الإنسان لربه فى كل وقت ليستمد منه القوة ، وليدفع عنه وساوس الشيطان ، وليملأ روحه بالقوة ويمثل الحياة الكريمة ، وليزداد إيمانا برسالة الإسلام وحبا للتضحية فى سبيله ، وهذه المناجاة نظمها الإسلام فى الأفعال والأقوال المخصوصة التى يؤدى بها كل مسلم شريعة الصلاة . وإقامة الصلاة معناها كذلك المداومة عليها ، والمواظبة على فعلها ، فهى فريضة إسلامية جليلة ، ولقد مر أحد المسيحيين الأوربيين ببورسعيد فسمع الأذان ، فأخذ يفكر فيما يدعو إليه ، وفى الصلاة التى ينادى إليها هذا الأذان ، وفى الإسلام الذى من إحدى شرائعه هذه الصلاة التى ينادى إليها ، وهداه الله بسبب ذلك إلى الإسلام .

وقوله تعالى « ومما رزقناهم ينفقون » يشمل الصدقة والإحسان وأداء الزكاة ، والانفاق هنا إنفاق فى سبيل الخير ، ومن سبل الخير المعاونة المالية فى أعمال البر وفى الدفاع عن الوطن ، وفى مساعدة المشروعات الدينية والاجتماعية ذات النزعة الجليلة ، وفى كل ما يعود على المجتمع بالخير ، وعلى الأمة بالتقدم ، والزكاة التى تشير إليها هذه الآية هى إحدى فرائض الاسلام التى يكرر الله الدعوة إليها فى كل آية من آيات القرآن الكريم ، وقوله تعالى « ومما رزقناهم » إشارة إلى أن الإنفاق إنما هو من المال الذى رزق العبد إياه وإلى أن المال إنما هو مال الله . فلا يصح البخل به فى شىء أمر الله تعالى به ، وإلى أن الذى ينفقه الإنسان فى سبيل المعروف والخير فالله جل جلاله قادر على أن يتخلفه .

وقوله تعالى « والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك » ، المراد به أنهم يجمعون بين الإيمان برسالة محمد ورسالة الأنبياء من قبله ، أما الإيمان بالغيب فيما سبق فمعناه الإيمان بالدين جملة وبما غاب عن الحس من أموره ، وهنا ينص القرآن الكريم على أنه لا بد فيمن تتوافر فيه صفة التقوى أن

يؤمن بشيئين هما : ما أنزل على محمد وهو القرآن ، وما أنزل قبل محمد من الكتب السماوية التي لم يدخلها تحريف وهي كتب موسى وعيسى وسواهما من الأنبياء ويقول ابن عباس : المراد بالمؤمن هنا من يؤمن بالنبي والقرآن من أهل الكتاب ، وبالمؤمنين فيما قبلها من يؤمن من مشركي العرب ، وعن مجاهد وقتادة أن المؤمنين في الآيتين قسم واحد ، وهو كل مؤمن ، وإن تعدد ما يؤمنون به . ويقال : إن عدد الكتب المنزلة من الله مائة وأربعة كتاب .

وقوله تعالى « وبالآخرة هم يوقنون » أي يؤمنون بها إيقانا جازما ، أي يعلمون أنها كائنة ، لأن اليقين هو العلم بالشيء بعد أن كان صاحبه شاكا فيه .

وقوله تعالى « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » إثبات للهدى والفلاح لهؤلاء المتقين ، والمراد أنهم على هدى ورشد من الله وأنهم هم المفلحون في الدنيا والآخرة ، لا أحد سواهم .

والإشارة بأولئك فيها من التعظيم ما لا يخفى ، أي هؤلاء المتقون المتصفون بهذه الصفات الجليلة هم على هداية من الله موصولة ، وهم الفائزون في الحياة وبعد الحياة .

وخلاصة هذه الآيات أنها ترشد إلى المسلم الحق وصفاته الجليلة التي هو عليها ، والتي يجب أن لا يتركها ، والتي تساعده على التقدم في الحياة ، وعلى الفوز في الدنيا والآخرة ، وما أجلها من صفات ، وما أجدر المسلمين بالتحلي بها في كل وقت ، والسير عليها في كل لحظة .

٦ — إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

٧ — خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ

هاتان الآيتان عامتان في الكافرين ، وقد بدأ الله عز وجل بذكر قصة الكافرين فيهما ، أما الآيات السابقة ففي ذكر المؤمنين ؛ وبعد هاتين الآيتين

سيذكر الله تعالى قصة المنافقين ، وقيل : إن هاتين الآيتين فى أقوام حقت عليهم كلمة الشقاء فى سابق علم الله تعالى كأبى جهل ، وأبى لهب وغيرهما ، حيث ذكر الله تعالى لرسوله الكريم أنه لا يعلق نفسه على الطمع فى إيمانهم .

والكفر نقيض الإيمان ، والذين كفروا هم الذين أحدثوا الكفر وابتدعوه ، بتركهم الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، أى أن الإيمان متاح لهم ولكنهم أعرضوا عنه واستمروا على الكفر ، فهؤلاء ومن فى حكمهم — ممن نبذ الدين وطرحه وارتد كافراً — لا يجدى فيهم إنذار وهداية ، ولا ينفع فيهم إرشاد وموعظة ، ولا يتوقع منهم ميل إلى الدين وإيمان برسالة خاتم النبيين ، إنهم لا يريدون الإيمان ولا يحبونه ، فهم على الكفر مقيمون ، لا يؤمنون ولا يتركون عنادهم وضلالهم وإضلالهم أبداً ، إن الكفر قد تجسم فى قلوبهم عقيدة آمنوا بها ، فهم لا يتركون كفرهم ، ولا يستمعون لدعوة صالحة ، لأن قلوبهم قد طمس الشرك عليهما ، وأسماعهم لا تعى كلمة صالحة ، وأعينهم عليها غشاوة فلا ترى شيئاً ، وسوف يلاقون جزاءهم كاملا ، وهو العذاب العظيم .

هؤلاء هم الذين كفروا بالله ووحدانيته وصفاته وكتبه ورسله ، والمراد بهم من رسخ الكفر فى قلوبهم حتى أصبحوا غير مستعدين للإيمان ، بجحودهم بالنبى صلوات الله عليه ، وبما جاء به بعد أن بلغتهم رسالته ، وعرضت أمام قلوبهم وأسماعهم وأعينهم براهين الرسالة المؤيدة لها ، الداعية إلى الإيمان بها ، فأبوا وأصروا واستكبروا وأعرضوا عنادا ؛ هؤلاء الكفرة الفجرة بلغ من أمرهم فى الضلال أن لا يجدى فيهم إرشاد وإنذار ، ولا تؤثر فيهم عظة وتبصرة ، فهم عن السبيل ناكبون ، وعن الحق معرضون ، قد اسودت قلوبهم فليس فيها موضع للاهتداء بدعوة الخير أو العمل بها . وصمت آذانهم فلا تسمع رسالة الله ولا تؤمن بها ، وعلى عيونهم غشاوة فهم لا يبصرون النور الذى جاء به محمد ولا يرونه ، فبينهم وبين هذا النور عداوة ، لأن الجهل قد أفسد وجدانهم ، والكفر قد حول فطرتهم فصاروا لا يميزون

بين النور والظلام ، ولا بين الكفر والإيمان . فهؤلاء مثلهم كمثل الذين ختم الله على قلوبهم وطبع عليها ، فلا يدخلها إيمان ولاخير ؛ وختم كذلك على مواضع سمعهم وهي الآذان ، فلا ينتفعون بما يسمعون من الحق، وكانت على أبصارهم غشاوة وغطاء من عند الله فلا يبصرون الحق ولايرون نوره وظهوره ، إنهم في حكم الأعمى الأصم الأبكم الذي لايرى ولايسمع ولا ينطق فكيف يؤمن ؟ فهم مثل ذلك لايؤمنون ، وليس لهم عندالله منجزاء سوى العذاب العظيم الشديد الدائم في الدنيا والآخرة .

والمراد بالقلب هنا العقل والمعرفة ، والمراد بالختم لف الشيء وستره والاستيثاق منه بضرب الخاتم عليه ، لأنه ستر وكتمان له ، وهؤلاء جماعة من الكفار في عهد الرسول ونظائرهم موجودون في كل عصر - كأبي لهب ، وأبي جهل والوليد بن المغيرة ، ممن أصروا على عناد الحق بعد معرفته ، أو ممن أعرضوا عن معرفة الحق واستكبروا عن النظر فيه .

وقد عرف الشافعية الكفر بأنه إنكار ماعلم مجيء الرسول به مما اشتهر حتى عرفه الخواص والعوام ، ورأى الحنفية أنه إنكار المقطوع بثبوته من أصول الإسلام ، ويرى بعض العلماء أن الكفر هو عدم تصديق الرسول في بعض ماعلم مجيء الرسول به بالضرورة .

والمراد بالسمع الأسماع ، وبالأبصار العيون ، وبالغشاء الغطاء .

والمعنى على تمثيل هؤلاء الكافرين في عدم الطمع في إيمانهم ، بمن له عقل ولكن ختم الله عليه فلا يعقل ، وله سمع ولكن طبع عليه فلا يسمع ، وله عين ولكن عليها غشاوة فلا تبصر ، وصاروا في حكم الجاهل الأصم الأعمى الذي لايتوقع منه إيمان ، فسواء عليهم أخوفتهم غضب الله وعذابه أم لم تخوفهم وتحذرهم وتنذرهم ، فهم لايستحقون إلا العذاب ، والعذاب حق لهم يأخذونه ويأتي إليهم بيسر وسهولة لأنهم اقترفوا مايستوجب العذاب ، وما يدعهم مخلدين أبدا في النار ، وعليهم غضب من الله وسخط دائم مقيم .

هذه هي قصة الكافرين وحالهم ؛ وذلك هو جزاؤهم ومصيرهم ، وهي

تناقض قصة المؤمنين وما كتب لهم من الفوز والفلاح والهدى تمام المناقضة ، وكما كان للمؤمنين الهدى من الله ، فللكافرين من الله العذاب والغضب الشديد .

وإسناد الختم إلى الله دليل على ثبوته ودوامه وعدم زواله أى أنهم يعيشون هكذا دائماً أبداً لا يؤمنون برسالة محمد ولا يقبلونها .

٨ — وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءامَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ

٩ — يُخَادِعُونَ اللهَ وَالذِينَ ءامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ

١٠ — فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ

١١ — وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ

١٢ — أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لاَّ يَشْعُرُونَ

١٣ — وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءامِنُوا كَمَا ءامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءامَنَ السُّفَهَاءُ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَـٰكِن لاَّ يَعْلَمُونَ

١٤ — وَإِذَا لَقُوا الذِينَ ءامَنُوا قَالُوا ءامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ

١٥ — اللهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ

١٦ — أُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّـٰلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ

١٧ — مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذِى اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَـٰتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ

١٨ — صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ

١٩ — أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ الصَّوَٰعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَٰفِرِينَ

٢٠ — يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَآءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ

ثلاث عشرة آية فى صفات المنافقين بعد ذكر صفات المؤمنين والكافرين ، تكشف أحوالهم ، وتهتك أستارهم ، وتظهر أسرارهم ، وما أخطر النفاق فى جميع صوره وأشكاله ، وما أفظعه فى جميع ألوانه وأحواله ، ولاسيما إذا كان نفاقا فى الدين ، ورياء فى المبادىء والمذاهب ، حينئذ تكون أضراره أفدح ، وتكون أخطاره أعقد ، تظن هذا المنافق معك وهو عليك ، وتعتصم به فى الشدة فتجده مع عدوك يحاربك وتأتى به إلى جانبك ليقوى به ظهرك . ويشتد به أزرك ، فإذا هو لك من الخاذلين ، وإذا هو لعدوك عليك من الناصرين .

وما أروع ماصور به القرآن الكريم صفات المنافقين وأحوالهم ، وماأدق مانفذ إلى نفوسهم ودخائلهم وطوايا جوانحهم المعقدة البغيضة .

ففى الآية الأولى بدأ القرآن فصور حالهم كما هى عليه دون مبالغة ودون تهويل ، فقال عز وجل : « ومن الناس » الخ .

أجمع المفسرون على أن هذا وصف للمنافقين ، قالوا : صنف الله الأصناف الثلاثة من المؤمنين والكافرين والمنافقين ، فبدأ بذكر المؤمنين الذين أخلصوا دينهم لله ، وواطأت فيه قلوبهم ألسنتهم ، وثنى بأضدادهم الذين محضوا الكفر ظاهرا وباطنا ، وثلث بالصنف الثالث وهم المذبذبون بين القسمين ، وهم الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم تكميلا للتقسيم ، وهذا الصنف أخبث

الكفرة وأبغضهم إلى الله تعالى . لأنهم مع مشاركتهم للكفار الأصليين فى أنهم جاهلون بالقلب كاذبون باللسان ، زادوا عليهم بأمور منكرة : منها أنهم قصدوا التلبيس ورضوا لأنفسهم بسمة الكذب ولبسوا الكفر على المسلمين فخلطوا به خداعا واستهزاء ، ولذلك أطال الله فى بيان خبثهم وجهلهم واستهزائهم ، وتهكم بأفعالهم وسجل عليهم غيهم وطغيانهم وضرب لهم الأمثال وأنزل فيهم « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار » ، والمعنى : ومن الناس أناس يقولون أو المراد بالناس الذين كفروا والمراد بمن ابن أبى وأصحابه ونظراؤه فإنهم من حيث إنهم صمموا على النفاق دخلوا فى عداد الكفار المختوم على قلوبهم . واختصاصهم بزيادة زادوها على الكفر لا يأبى دخولهم تحت هذا الجنس ، وتخصيص الإيمان بالله وباليوم الآخر بالذكر تخصيص لما هو المقصود الأعظم من الإيمان ، وادعاء بأنهم اختاروا الإيمان من المبدأ والمعاد، وإيذان بأنهم منافقون فيما يظنون أنهم يخلصون فيه ، وكان ابن أبى وجماعته من اليهود وكانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر إيمانا كلا إيمان ، لاعتقادهم التشبيه والولد وأن الجنة لا يدخلها غيرهم وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة وغير ذلك، ويرون المسلمين أنهم آمنوا مثل إيمانهم . وفى تكرير الباء إدعاء الإيمان بكل واحد على الأصالة والاستحكام ، والمراد باليوم الآخر من وقت الحشر إلى مالا ينتهى ، أو إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار لأنه آخر الأوقات المحدودة بظرفين « وماهم بمؤمنين » لإبطانهم الكفر ، وهذا إنكار لما ادعوا إثباته ، وهنا نجد أن الضمير فى « يقول » قد أتى به مفردا نظرا للواحد وإلى لفظة (من) لأنها صالحة للتثنية والجمع والواحد ، ثم قال عز وجل « وماهم بمؤمنين » على الجمع نظرا إلى معناها ، فإن قيل كيف طابق قوله « وماهم بمؤمنين قولهم آمنا بالله ، فإن الأول فى ذكر شأن الفعل لا الفاعل والثانى فى ذكر شأن الفاعل لا الفعل فكان المطابق له : وما آمنوا ؟ أجيب : بأنه إنما عدل إلى ذلك لرد كلامهم بأبلغ وجه وآكده ، لأن إخراج ذواتهم عن عداد المؤمنين أبلغ من نفي الإيمان عنهم في ماضي الزمان ولذلك أكد النفي بالباء ، ونظيره قوله

تعالى : « يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها » ، وهو أبلغ من قولك « وما يخرجون منها » ، وأطلق الإيمان على معنى أنهم ليسوا من الإيمان فى شىء ، ويحتمل أن يكون المعنى : وما هم بمؤمنين بالله وباليوم الآخر ، لأن « وما هم بمؤمنين » جوابه ، والآية تدل على أن من ادعى الإيمان وخالف قلبه لسانه بالاعتقاد لم يكن مؤمنا .

والآية الثانية وهى قوله تعالى : « يخادعون الله والذين آمنوا » المراد بها السخرية من هؤلاء المنافقين ومن أعمالهم ، لأنهم يخادعون الله والمؤمنين بإظهار خلاف ما أبطنوه من الكفر ليدفعوا عنهم أحكامه الدنيوية ويحقنوا دماءهم ويحفظوا أموالهم ، وأصل الخدع فى اللغة الإخفاء ؛ ومنه المخدع للبيت الذى يخفى فيه المتاع ، فالمخادع أظهر خلاف ما يضمر ، والمخادعة تكون بين اثنين فى الأصل ، وخداعهم مع الله لا أهمية له لأنه تعالى لا يخفى عليه خافية ، وقد يكونون لم يقصدوا خديعته ، ويكون المراد إما مخادعة رسوله أو أوليائه ، لأنهم لم يعتقدوا أن الله بعث الرسول إليهم فيكون قصدهم فى نفاقهم ليس مخادعة الله ، وخداعهم مع الله ليس عليه ظاهره ، أو على أن معاملة الرسول معاملة لله تعالى من حيث إنه خليفته كما قال تعالى : من يطع الرسول فقد أطاع الله ـ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، والتعبير بالمخادعة لأن صورة صنيعهم مع الله من إظهار الآيات واستبطان الكفر وصنيع الله معهم من إجراء أحكام المسلمين عليهم ـ وهم عنده أخبث من الكفار وأهل الدرك الأسفل من النار ـ استدراجا لهم ؛ وامتثال الرسول والمؤمنين أمر الله فى إخفاء حالهم وإجراء حكم الإسلام ، مجازاة لهم بمثل صنيعهم ؛ صورة صنيع المتخادعين ، ويحتمل أن يراد بيخادعون يخدعون لأنه بيان ليقول ، أو استئناف بذكر ما هو الغرض منه ، فالمخادعة هنا من واحد وذكر الله فيها تحسين . . . « وما يخادعون إلا أنفسهم » لأن وبال خداعهم راجع عليهم فيفتضحون فى الدنيا باطلاع الرسول على ما أبطنوه ، ويعاقبون فى الآخرة ، والنفس ذات الشىء وحقيقته .

وقوله تعالى « وما يشعرون » أى لا يحسون ولا يعلمون أن خداعهم إنما هو

خداع لأنفسهم ، أو أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ، أو وما يشعرون إطلاع الله نبيه على خداعهم ، أو هلاك أنفسهم ، أو المراد لا يشعرون بشىء ، أو وما يخدعون إلا أنفسهم غير شاعرين بذلك ولو شعروا لما خادعوا .

والشعور الإدراك بالحواس الخمس الظاهرة ، ويكون بمعنى العلم ، وقال الراغب : « شعرت كذا يستعمل بوجهين : بأن يؤخذ من مس الشعر ويعبر به عن اللمس ومنه استعملت المشاعر للحواس فإذا قيل : فلان لا يشعر فذلك أبلغ فى الذم من أنه لا يسمع ولا يبصر ، لأن حس اللمس أعم من حس السمع والبصر ، وتارة يقال شعرت كذا أى أدركت شيئاً دقيقاً من قولهم شعرته أى أصبت شعره نحو أذنته ورأسته ، ومن ذلك أخذ لفظ الشاعر لإدراكه دقائق المعانى .. فالآية تحتمل نفى الشعور بمعنى العلم ، فمعنى لا يشعرون : لا يعلمون وكثيرا ما ورد بهذا المعنى ، وتحتمل نفى الشعور بمعنى الإدراك بالحواس فيجعل متعلق الفعل كالمحسوس الذى لا يخفى إلا على فاقد الحواس ، ونفى ذلك نهاية الذم ، لأن من لا يشعر بالبدهى المحسوس مرتبته أدنى من مرتبة البهائم وهذا أولى لما فيه من التهكم بهم مع الدلالة على نفى العلم بالطريق الأولى ، وهو أيضا أنسب بقوله تعالى : ختم الله على قلوبهم .

والآية الثالثة وهى قوله تعالى : « فى قلوبهم مرض » أى شك ونفاق ، لأن ذلك يضعفها ، والمرض حقيقة فيما يعرض للبدن فيخرجه عن الاعتدال الخاص به ، ويوجب الخلل فى أفعاله ، ومجاز فى الأعراض النفسانية التى تخل بكمال أفعالها ، كالجهل وسوء العقيدة والحسد والبغض وحب المعاصى ، لأنها مانعة من نيل الفضائل ومؤدية إلى زوال الحياة الحقيقية الأبدية .. وهذه الآية أروع تحليل لنفسية المنافقين ودخيلة أعماقهم ، والقلوب هنا هى العقول ، وهو تعبير معروف عند العرب ، كأنهم لاحظوا أن القلب يظهر فيه أثر الوجدان الذى هو السائق إلى الأعمال ، من مثل اضطرابه عند الخوف أو اشتداد الفرح . . وقد يكون معنى المرض ضعف العقيدة ، أو ضعف الإدراك لمبادىء الدين ، أو تحجر العقول ووقوفها فى وجه رسالة محمد عليه السلام ، وقوله تعالى :

« فزادهم الله مرضاً » أى بما أنزل من القرآن ، لأنه كلما أنزل آية كفروا بها فازدادوا شكا ونفاقا . وإسناد الزيادة إلى الله تعالى من حيث إنه خلقها وأوجدها ، وإلى السورة فى قوله تعالى « فزادتهم رجسا » لكونها سببا .. ولهم عذاب أليم » أى مؤلم بفتح اللام وصف به العذاب للمبالغة ، إذ الألم إنما هو المعذب حقيقة لا للعذاب فنسبة الألم إلى العذاب مجاز . « بما كانوا يكذبون » أى بتكذيبهم النبى صلى الله عليه وسلم أو بكذبهم فى قولهم : « آمنا » ، لأن الإيمان التصديق بالقلب ، والكذب هو الخبر عن الشىء على خلاف ما هو به ، قال البيضاوى تبعاً للزمخشرى : وهو حرام كله لأنه علل به استحقاق العذاب حيث رتب على الكذب ، وما روى أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كذب ثلاث كذبات ـ كما ورد فى البخارى ومسلم فى حديث الشفاعة ، والكذبات الثلاثة هى قوله فى الكوكب : « هذا ربى » ، وقوله « بل فعله كبيرهم هذا » ، وقوله « إنى سقيم » ـ فالمراد التعريض ، وهو اللفظ المشار به إلى جانب والغرض جانب آخر ، وقيل : هو خلاف التصريح وهو تضمن الكلام دلالة ليس لها ذكر ، ومن الكذب ما هو مباح لأن الكلام وسيلة إلى المقصود فكل مقصود محمود إن أمكن التوصل إليه بالصدق فالكذب فيه حرام ، وإن لم يمكن إلا بالكذب فهو مباح إن كان المقصود مباحا ، ومندوب إن كان المقصود مندوبا ، وواجب إن كان المقصود واجبا ، وفى حديث الطبرانى فى الكبير : كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا ثلاثاً : الرجل يكذب فى الحرب فإن الحرب خدعة ، والرجل يكذب على المرأة فيرضيها ، والرجل يكذب بين الرجلين فيصلح بينهما ... وفى حديثه فى الوسيط : « الكذب كله إثم إلا ما نفع به مسلم أو دفع به عن دين » .

فى هذه الآية ذكر القرآن الكريم سر تصرفات المنافقين وأعمالهم العجيبة الغريبة ، وبين أن نفوسهم ملئت ضغينة وحقدا على فكرة التقدم ودعاتها ، وعلى النور والحق وحملة الرسالات ، فهم يحبون الظلام ، ويعيشون فيه ويؤثرونه ، ويكرهون النور ويبتعدون عنه ، لأن نفوسهم مريضة ، وأرواحهم

سقيمة ، وأبصارهم عليها غشاوة ، حتى لا ترى نورا ، ولا تبصر حقيقة ، والله عز وجل يزيد قلوبهم مرضا ، ونفوسهم حيرة :

أما الآية الرابعة وهى قوله تعالى : « وإذا قيل لهم الخ » ، فتصور مدى انعكاس طباع هؤلاء المنافقين ، ومدى انقلاب الحقائق فى عقولهم ؛ وتصور جهلهم ، وتصميمهم على هذا الجهل ، يقول لهم الناصحون المشفقون : لا تفسدوا فى الأرض ، أى بالكفر والتعويق عن الإيمان ، والفساد : خروج الشىء عن الاعتدال ، والصلاح ضده ، والفساد يعم كل ضار ، والصلاح يعم كل نافع ، وكان من إفسادهم فى الأرض إثارة الحروب والفتن بمخادعة المسلمين ومعاونة الكفار المتمحض كفرهم على المسلمين ، وما ذكر يؤدى إلى فساد الأرض وضلال الأمم ، ومنه إظهار المعاصى والاستهانة بالدين ، فإن الاخلال بالشرائع والإعراض عنها مما يوجب الفوضى ، ويخل بنظام العالم ، لأن ذلك لفساد ، لأن الإفساد جعل الشىء فاسدا وصنيعهم لم يكن كذلك ، فقوله تعالى لا تفسدوا : مجاز أى لا تفعلوا ما يؤدى إلى الفساد ... أن المنافقين بوقوفهم حجر عثرة فى طريق الحق والهدى والنور والرسالة ليفسدون فى الأرض إفساداً كثيراً ، ومن العجب أن يردوا على الناصحين لهم بأنهم مصلحون ، ديدنهم الإصلاح فى كل وقت ، فقوله تعالى : « قالوا إنما نحن مصلحون » جواب لإذا ، ورد للناصح على سبيل المبالغة ، والمعنى أنه لا يصح مخاطبتنا بذلك ، فإن شأننا ليس إلا الإصلاح وحالنا متمحضة عن شوائب الفساد ، وإنما قالوا ذلك لأنهم تصوروا الفساد بصورة الصلاح لما فى قلوبهم من المرض ، كما قال تعالى : « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا » .

وفى الآية الخامسة يرد الله عز وجل عليهم هذا الزعم الفاسد رداً بليغاً قويا رائعا ، فيقول : « ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » أى لا يفطنون ولا يعلمون أنهم مفسدون بذلك ، لأنهم يظنون أن الذى هم عليه من إبطان الكفر صلاح ، ولا يعلمون ما أعد الله لهم من العذاب .

وفى الآية السادسة يشرح الله عز وجل بعد هؤلاء المنافقين عن الناس

وانعزالهم عنهم ، وأنهم يأبون الدخول فيما دخل فيه المنصفون من الإيمان برسالة محمد : « وإذا قيل لهم آمنوا » هذا من تمام النصح والإرشاد فان كمال الإيمان بمجموع أمرين : الإعراض عما لا ينبغى وهو المقصود بقوله : «لا تفسدوا» والإتيان بما ينبغى وهو المطلوب بقوله تعالى «آمنوا كما آمن الناس» أى كإيمان الناس الكاملين فى الإنسانية الموافق باطنهم فيه لظاهرهم ، العاملين بما يوجبه العقل . . « قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء » أى الجهال وأتباع محمد عليه السلام ، وإنما سفهوهم لاعتقادهم فساد رأيهم ولتحقير شأنهم فإن أكثر المؤمنين كانوا فقراء ، وفيهم كثير من الموالى كبلال وصهيب وعمار وسواهم . هذا هو منطق المنافقين وياله من منطق ، وذلك عقلهم وما أقبحه من عقل ، إنهم فى ضلال وعمى وجهل . هم على الباطل ويقولون إنهم على الحق ، وهم سفهاء ويظنون أنفسهم حكماء ، وهم جاحـــدون ويفهمون أنهم مؤمنون منصفون ، قال الله تعالى فى أمرهم : « ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون » إنهم سفهاء بما فعلوه من إبطان غير ما أظهروه ، ووجه الأبلغية فى تجهيلهم أن الجاهل بجهله الجازم على خلاف ما هو الواقع أعظم ضلالا وأتم جهالة من المتوقف المعترف بجهله فإنه ربما تنفعه الآيات والنذر ، وهذا القول كانوا يقولونه فيما بينهم لا عند المؤمنين فأخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بذلك ، والسفه : خفة وسخافة رأى سببها نقصان العقل والعلم يقابله ، وعبر فى هذه الآية بلا يعلمون وفى التى قبلها بلا يشعرون لأن التعبير بلا يعلمون أكثر مطابقة لذكر السفه ، لأن السفه جهل فطابقه نفى العلم ، ولأن أمر الإيمان يحتاج إلى دقة نظر ، فعبر فى الآية التى اشتملت عليه بلا يعلمون وأمر البغى والفساد دنيوى فهو كالمحسوس لا يحتاج إلى دقة نظر ، فعبر فى الآية التى اشتملت عليه بلا يشعرون . ويشعر مضارع شعر يقال شعرت كذا أى أحسست به أو أدركت وفطنت له ، وقد استعمل بالمعنى الأول فى قوله « ومايشعرون » ، وفى الثانى بقوله « لا يشعرون » كما يعلم مما قدرته فى الآيتين .

أما الآية السابعة ففيها تصوير لمدى حيرتهم ونفاقهم وتذبذبهم بين هؤلاء

وهؤلاء ، يقول فيهم الله تعالى « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا » أى كإيمانهم « وإذا خلوا » منهم ورجعوا « إلى شياطينهم » أى الذين ماثلوا الشياطين فى تمردهم « قالوا إنا معكم » : أى فى الدين والاعتقاد ، يريدون بآمنا دعوى إحداث الإيمان، وبقولهم إنا معكم تحقيق ثباتهم على ما كانوا عليه .. « إنما نحن مستهزئون » أى بأصحاب محمد أى نسخر بهم بإظهارنا الإسلام لأن المستهزىء بالشىء المستخف به مصر على خلافه ، فهذا تأكيد لما قبله لأن من حقر الإسلام فقد عظم الكفر ، وقد بين سبحانه وتعالى بهذه الآية معاملة المنافقين مع المؤمنين والكفار . . روى الواحدى وغيره أن ابن أبى وأصحابه استقبلهم نفر من الصحابة فقال لقومه : انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء فأخذ بيد أبى بكر رضى الله تعالى عنه وقال : مرحبا بالصديق سيد بنى تيم ، شيخ الاسلام ، وثانى رسول الله فى الغار ، الباذل نفسه وماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أخذ بيد عمر رضى الله تعالى عنه وقال : مرحبا بسيد بنى عدى ، الفاروق القوى فى دينه ، الباذل نفسه وماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أخذ بيد على رضى الله تعالى عنه فقال : مرحبا بابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وختنه(١) ، سيد بنى هاشم ماعدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت وما صدرت به الآية من قوله تعالى « ومن الناس من يقول آمنا بالله » مسوق لبيان مذهبهم وتمهيد نفاقهم فليس بتكرير ... « الله يستهزىء بهم » أى يجازيهم على استهزائهم ، فسمى جزاء الاستهزاء باسمه ، كما سمى جزاء السيئة سيئة فى قوله تعالى : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » ، أو المعنى ينزل به الحقارة والهوان الذى هو لازم الاستهزاء والغرض منه ، ويرجع وبال الاستهزاء عليهم ، فيكون كالمستهزىء بهم ، أو يعاملهم معاملة المستهزىء : أما فى الدنيا فبإجراء أحكام الاسلام واستدراجهم بالامهال والزيادة فى النعمة مع التمادى فى الطغيان ، وأما فى الآخرة فبأن يفتح لهم وهم فى النار بابا إلى الجنة فيسرعون نحوه فإذا صاروا إليه سد عليهم الباب ، وذلك قوله تعالى « فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون » .. أى « ويمدهم فى طغيانهم وضلالهم »

(١) الختن : زوج البنت ، أو كل من كان من قبل المرأة .

« يعمهون » يترددون متحيرين، والطغيان : تجاوز الحد فى العصيان والغلو فى الكفر ، وأصله تجاوز الشيء عن مكانه ، فقال تعالى « إنا لما طغى الماء حملناكم » قال البيضاوى : والعمه فى البصيرة كالعمى فى البصر وهو التحير فى الأمر ، يقال: رجل عامه وعمه وأرض عمهاء لا منار لها، فالعمه مختص بالبصيرة والعمى مختص بالبصر فبينهما تباين ، وقيل: العمه فى البصيرة والعمى عام فيها وفى البصر فبينهما عموم مطلق ، وهذه الآية بيان لدأب المنافقين وأنهم إذا استقبلوا المؤمنين دفعوهم عن أنفسهم بقولهم « آمنا » استهزاء فلا يتوهم أنه مكرور مع أول القصة ، لأنه إبداء لخبثهم ومكرهم وادعاء أنهم مثل المؤمنين فى الإيمان الحقيقى .

والمراد بشياطينهم من كانوا يأمرونهم بالتكذيب من اليهود أو كهنتهم وسموا بذلك لتمردهم وقلبهم لحقائق الأمور ، أو لأن الشياطين قرناء لهم إن فسروا بالكهنة . وكان على عهده صلوات الله عليه كثير منهم ككعب بن الأشرف .

والاستهزاء : الاستخفاف والسخرية واستعمل بمعنى فعل ، وقال الغزالى الاستهزاء : الاستحقار والاستهانة والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه ، وأصل هذه المادة الخفة ومنها ناقته تهزأ به أى تسرع وتخف .

« والله يستهزىء بهم » رد على هؤلاء المنافقين على أبلغ وجه وآكده ، وبيان لجزائهم عند الله عز وجل ، وهم أولى بذلك لنفاقهم وعداوتهم لله ولرسوله وللدين الحق : دين الإسلام . ودين السلام .

والآية الكريمة « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى » بيان لاستحقاق هؤلاء المنافقين لهذا الجزاء العادل والعقاب الشديد ، ولاستهزاء الله بهم . لأنهم اختاروا الضلالة على الهدى ، واستبدلوها به ، وأصل الشراء : بذل الثمن لتحصيل الشيء الذى يطلبه المشترى ، ثم توسع فى هذا المعنى فاستعمل الرغبة فى الشيء طمعا فى تحصيله ، والمعنى أنهم تركوا الهدى والدين الحق الذى هو دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، محصلين الضلالة التى ذهبوا إليها .

مختارين لها ، يؤثرونها على الهدى والخير والحق والرشاد ، ومعنى « فما ربحت تجارتهم » ما ربحوا فيها ، والتجارة التصرف بالبيع والشراء ، والربح : الفضل على المال ، وإسناده إلى التجارة وهو لأربابها على الاتساع لتلبسها بالفاعل أو لمشابهتها إياه من حيث إنها سبب الربح والخسران . . « وما كانوا مهتدين » لطرق التجارة ، فإن المقصود منها سلامة رأس المال والربح ، وهؤلاء قد أضاعوا الأمرين ، لأن رأس مالهم كان هو الفطرة السليمة والعقل الصرف ، فلما اعتقدوا هذه الضلالات بطل استعدادهم واختل عقلهم ولم يبق لهم رأس مال يتوصلون به إلى إدراك الحق ونيل الكمال ، فصاروا خاسرين آيسين من الربح فاقدين للأصل .

وقد أتبع الله تفصيل أحوال المنافقين ، وبيان نفسياتهم المريضة ، بضرب الأمثال فى شأنهم ، فمثلهم فى هذه الآية الكريمة بقوله «مثلهم كمثل الذى استوقد» الخ أى بحال طالب النار الدفء والضوء ومن هو فى شدة الحاجة إليها ، ثم يطفئها الله ويتركهم فى ظلمات وحيرة ، ومعنى « مثلهم » أى شبههم وصفتهم فى مقامهم « كمثل الذى » بمعنى الذين بدليل سياق الآية ونظيره : والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون ، وقوله تعالى : «وخضتم كالذى خاضوا» وقصد به جنس المستوقد أو الفوج الذى « استوقد » أى أوقد نارا فى ظلمة . ذكر القرآن حقيقة حالهم وعقبهم بضرب المثل وهو بيان تصوير تلك الحقيقة وإبرازها فى معرض المشاهد المحسوس زيادة فى التوضيح والتقرير فإنه أوقع فى القلب وأقمع للخصم ، قال البيضاوى : والاستيقاد طلب الوقود والسعى فى تحصيله وهو سطوع النار وارتفاع لهبها ، والأكثرون على أن استوقد هنا بمعنى أوقد لا بمعنى طلب الوقود . . « فلما أضاءت » أى أنارت النار ، وأنار لازم ومتعد ، يقال : أضاء الشيء بنفسه فأضاءه غيره . . « ما حوله » أى المستوقد فأبصر واستدفأ وأمن ما يخافه . . «ذهب الله بنورهم » أى أطفأه ، وهذا جواب لما وإسناد الإذهاب إلى الله تعالى ، إما لأن الكل بفعله أو لأن الإطفاء حصل بسبب خفى أو أمر سماوى كريح أو مطر ، أو للمبالغة . ولذلك عدى الفعل

بالياء دون الهمزة لما فيها من معنى الاستصحاب والاستمساك، يقال : ذهب السلطان بماله إذا أخذه وأمسكه وما أخذه الله تعالى وأمسكه فلا مرسل له ، ولذلك عدل عن الضوء الذى هو مقتضى اللفظ إلى النور ، فإنه لو قيل: ذهب الله بضوئهم احتمل ذهابه بما فى الضوء من الزيادة وبقاء ما يسمى نوراً، والغرض إزالة النور عنهم رأساً، ألا ترى كيف قرر ذلك وأكده، وتركهم فى ظلمات لا يبصرون، ما حولهم متحيرين عن الطريق خائفين ، فذكر الظلمة لأنها هى عدم النور وانطماسه بالكلية ؛ وظلماتهم : ظلمة الكفر وظلمة النفاق وظلمة الضلال وظلمة سخط الله وظلمة العقاب السرمدى ؛ أو هى ظلمة شديدة كأنها ظلمات متراكمة .

وهذا المثل ضربه الله لإيمان المنافقين من حيث إن نفاقهم يعود عليهم بحقن الدماء وسلامة الأموال والأولاد ، ومشاركة المسلمين فى المغانم والأحكام ، والذهاب أثره وانطماس نوره بإهلاكهم ، وإفشاء حالهم بإطفاء الله تعالى إياها وإذهاب نورها ، هذا وقيل : هو مثل ضربه الله لمن أتاه ضرباً من الهدى فأضاعه ولم يتوصل به إلى النعيم الأبدى ، فبقى متحيراً متحسراً .

هذا والمثل كالمثل والمثيل وفى الأصل النظير ، وأطلق على الكلام السائر المشبه مضربه بمورده ، ثم استعير لكل حالة أو قصة أو صفة لها غرابة . والمعنى : حالهم العجيبة الشأن كحالة من استوقد ، وهكذا نهج القرآن الكريم نهج العرب فى أساليبها . فضرب الأمثال التى تجلى المعانى أتم جلاء، وتحدث فى النفوس من الأثر ما لا يقدر قدره ولا يسبر غوره ، لما فيها من إبراز المعقولات الخفية فى معرض المحسوسات الجلية ، وإظهار ما ينكر فى لباس ما يعرف ويشهر ؛ وعلى هذا السنن ضرب الله مثل المنافقين ، فصور حالهم - حينما أسلموا أولا ودخل نور الإيمان فى قلوبهم ، ثم داخلهم الشك فيه فكفروا به إذ لم يدركوا فضائله ولم يفقهوا محاسنه . وصاروا لا يبصرون مسلكا من مسالك الهداية ، ولا يدركون وسيلة من وسائل النجاة ، وقد أضاء ذلك النور قلوب من حولهم من المؤمنين المخلصين — بحال جماعة أوقدوا ناراً لينتفعوا بها فى

جلب خير أو دفع ضر ، فلما أضاءت ما حولهم من الأشياء والأماكن ، جاءها عارض خفى أو أمر سماوى كمطر شديد أو ريح عاصف فجرفها وبددها ، فأصبحوا فى ظلام دامس لا يتسنى لهم الإبصار بحال .

والآية الجليلة « صم بكم عمى فهم لا يرجعون » معناها أنهم سادرون فى غيهم ، لا يرجعون عنه ، لأن فطرتهم الإنسانية ممسوخة ، وعقلهم المختل لا يلتفت عن الضلال ؛ ولا يترك النفاق والإلحاد فى الدين ، ومعنى « صم » ، أى هم صم عن الحق فلا يسمعونه سماع قبول ، وأصل الصمم صلابة من اجتماع الأجزاء ، ومنه قيل : حجر أصم وقناة صماء وصمام القارورة ، سمى به فقدان حاسة السمع ، ومعنى « بكم » خرس عن الخير فلا يقولونه والخرس فى الأصل عدم القدرة على النطق ، ومعنى عمى أى عن طريق الهدى فلا يرونه .. والعمى فى الأصل عدم البصر عما من شأنه أن يبصر ، وقد يقال لعدم البصيرة ، ومعنى « فهم لا يرجعون » : أى لا يعودون إلى الهدى الذى باعوه وضيعوه ، أو عن الضلالة التى اشتروها .. وهذا المثل البليغ أروع تصوير لحقيقة المنافق ونهايته وضلاله وانعدام الأمل فى عودته إلى الحق ، وكأن المعنى أنهم فقدوا نور العقل الهادى وهم أشد الناس حاجة إليه كما يفقد المستوقد ضوء النار وهو فى مسيس الحاجة إليها ، فيبقى فى الظلام متحيرا متحسرا ، وكذلك شأن المنافق لأنه أصم أبكم وأعمى فهو قد فقد العقل ولن يرجع إلى حكمه . ثم استأنف الله ضرب مثل جديد للمنافقين فقال : أو كصيب ، أى كمثل أصحاب صيب وأو فى الأصل للتساوى فى الشك ثم اتسع فيها وأطلق للتساوى من غير شك مثل : صادق محمداً أو عليا ، وقوله تعالى : « ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً » ، فإنه يفيد التساوى فى حسن المصادقة فى المثال الأول ، ووجوب العصيان فى الثانى ، ومن ذلك قوله « أو كصيب من السماء » ومعناه أن قصة المنافقين مشبهة بهاتين القصتين وأنهما سواء فى صحة التشبيه بهما وأنت مخير فى التمثيل بهما أى بأيتهما شئت ، وإن كان الثانى أبلغ كما قاله الزمخشرى ، قال : لأنه أدل على فرط الحيرة وشدة الأمر وفظاعته ، والصيب أصله من صاب يصوب وهو النزول ، يقال للمطر

والسحاب ، والآية تحتملهما ، أى ينزل « من السماء » ذلك ، فإن فسرت الصيب بالمطر فالمراد بالسماء السحاب ، أو السماء بعينها . وإن فسرته بالسحاب فالمراد السماء بعينها ، والسماء كل ماعلاك وأظلك ؛ وهى مجموع مانراه فى الفضاء فوقنا من سيارات ونجوم وسدائم ، وهى مرتبة بعضها فوق بعض ، تطوف دائرة فى الفضاء ، كل شيء منها فى مكانه المقدر له بالناموس الإلهى ونظام الجاذبية .. «فيه» أى فى الصيب وقيل فى السماء .. «ظلمات» جمع ظلمة ، فإن أريد بالصيب المطر فظلماته ظلمة تكاثفه بتتابع القطر وظلمة غمامه مع ظلمة الليل ، وإن أريد به السحاب فظلماته سواده وتكاثفه مع ظلمة الليل .. «ورعد» هو صوت يسمع مع السحاب، قال البيضاوى: والمشهور أن سببه اضطراب أجرام السحاب واصطكاكها إذا ساقتها الريح من الارتعاد .. «وبرق» هو مايلمع من السحاب ، من برق الشيء بريقا .. «يجعلون» أى يجعل أصحاب الصيب «أصابعهم» أى أناملهم ، وإنما أطلق الأصابع موضع الأنامل للمبالغة ، لما فى ذلك من الإشعار بدخول أصابعهم فوق المعتاد فراراً من شدة الصوت فى آذانهم . « من الصواعق » أى من أجلها يجعلون ، وهو جمع صاعقة وهى الضجة التى يموت من يسمعها أو يغشى عليه ، ويقال لكل عذاب مهلك : صاعقة ، وقيل : الصاعقة قطعة عذاب ينزلها الله على من يشاء ، روى عن سالم بن عبدالله بن عمر رضى الله تعالى عنهم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا سمع الرعد والصواعق قال : اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك ، «حذر الموت» حذر منصوب على أنه مفعول لأجله . ومثل ذلك قول الشاعر :

وأغفر عوراء الكريم ادخاره وأعرض من شتم اللئيم تكرما

قال البيضاوى : والموت زوال الحياة عما من شأنه الحياة أو عدم الحياة عما اتصف بها بالفعل، والموت، فارقة الروح الجسد... «والله محيط بالكافرين» علماً وقدرة لا يخلصهم الخداع والحيل ، وقيل: مهلكهم بدليل قوله تعالى «إلا أن يحاط بكم» أى تهلكوا . ومعنى «يكاد البرق» أى يقرب أن يخطف أبصارهم أى

يختلسها والخطف الأخذ بسرعة ، «كلما أضاء لهم مشوا فيه» أى فى ضوئه «وإذا أظلم عليهم قاموا» أى وقفوا متحيرين ، فالله تعالى شبههم فى كفرهم ونفاقهم بقوم كانوا فى مفازة فى ليلة مظلمة فأصابهم مطر فيه ظلمات لا يمكن المشى فيها ، ورعد يضع السامعون أصابعهم فى آذانهم من هوله ، وبرق يقرب من أن يخطف أبصارهم ويعميها من شدة توقده .

فقد ضرب الله مثلا آخر يشرح به حال المنافقين ويبين فظاعة أعمالهم وسوء أفعالهم زيادة فى التنكيل بهم وهتكا لأستارهم ، إذ كانوا فتنة للبشر ومرضاً فى الأمم ، فجمل حالهم وقد أتتهم تلك الإرادات الإلهية النازلة من السماء فأصابهم القلق والاضطراب ، واعترضتهم ظلمات الشبه والتقاليد والخوف من ذم الجماهير عند العمل بما يخالف آراءهم ، ثم استبان لهم أثناء ذلك قبس من النور يلمع فى أنفسهم حين يدعوهم الداعى ، وتلوح لهم الآيات البينة والحجج القيمة ، فيعزمون على اتباع الحق وتسير أفكارهم فى نوره بعض الخطوات ولكن لا يلبثون أن تعود بهم الحيرة ، كحال قوم فى إحدى الفلوات نزل بهم بعد ظلام الليل صيب من السماء فيه رعود قاصفة وبروق لامعة وصواعق متساقطة ، فتولاهم الدهش والرعب ، فهووا بأصابعهم إلى آذانهم كلما قصف هزيم الرعد ليسدوا منافذ السمع ، لما يحذرونه من الموت الزؤام ويخافونه من نزول الحمام ، وقيل: إن هذا مثل ضربه الله تعالى للقرآن وصنع الكافرين والمنافقين معه ، فالمطر القرآن لأنه حياة القلوب كما أن المطر حياة الأبدان ، والظلمات ما فى القرآن من ذكر الكفر والشرك ، والرعد ما خوفوا به من الوعيد وذكر النار ، والبرق ما فيه من الهدى والبيان والوعد وذكر الجنة . والكافرون والمنافقون يسدون آذانهم عند قراءة القرآن مخافة ميل القلب إليه ولإزعاج ما فى القرآن من الحجج قلوبهم ، وإنما قال الله تعالى مع الإضاءة (كلما) ومع الإظلام (إذا) لأنهم حراص على المشى كلما صادفوا منه فرصة مما يحبون انتهزوها ولا كذلك التوقف فيما يكرهون، ومعنى قاموا وقفوا ، ومنه قامت السوق إذا ركدت أى سكنت ، ويقال : قامت السوق بمعنى نفقت فهو

من الأضداد . . « ولو شاء الله لذهب بسمعهم » بمعنى أسماعهم « وأبصارهم » أى الظاهرة كما ذهب بالباطنة ، أى ولو شاء أن يذهب بسمعهم بشدة صوت الرعد وأبصارهم بلمعان البرق لذهب بهما . . « إن الله على كل شىء » يشاؤه « قدير » . هذا كالتصريح بما ذكر والتقرير له ، والقدرة التمكن من إيجاد الشىء أو صفة تقتضى من إيجاده ، أو هى عبارة عن نفى العجز عنه ، والقادر هو الذى إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل ، والقدير الفعال لما يشاء على ما يشاء .

وإلى هنا تنتهى قصة المنافقين ، التى ذكرها الله عز وجل فى ثلاث عشرة آية من كتابه الحكيم : كشف فيها عن نفوسهم المريضة ، وقلوبهم العليلة . وأبان ما هم فيه من غى وضلال وجهل وانطماس للفطرة الإلهية وبعد عن الدين الحق ، وأوضح خداعهم لله ولرسوله وجزاءهم على هذا الخداع ، وادعاءهم للإصلاح وهم المفسدون ، وللإيمان وهم المرتابون الشاكون ، وللجد وهم المستهزئون ، إن فى قلوبهم مرضا ، والله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يتحيرون ، إنهم قد آثروا الضلالة . وفضلوها على الهدى . وهم الأخسرون عملا ، ولن تربح تجارتهم ، بل إنها تجارة كاسدة خاسرة . وضرب الله لهم مثلين رائعين ، فمثلهم بالذى يستوقد النار فتضىء ما حوله ويفرح بها ، ويسترشد مستدلا بها على الطريق ، وفجأة يطفئها الله ويتركهم فى الظلمات لا يبصرون ولا يرون شيئا ومثلهم كذلك بالسائرين فى مطر شديد فيه ظلمات ورعد وبرق . فلا يملكون للنجاة سبيلا ، ولا يملكون الهرب من الرعد إلا بسد آذانهم ، ويكاد البرق يخطف أبصارهم ، فكلما أضاء لهم ساروا فى نوره ، وكلما أظلم عليهم وقفوا ، ولو أراد الله لذهب بسمعهم وأبصارهم من شدة الرعد والبرق ، فالله على كل شىء قدير .

إن هؤلاء المنافقين قد طمست فطرتهم الإنسانية ، ووقفوا للدين ولله وللرسول يناصبونهم العداء ، وهم لا يعقلون ولا يفهمون ولا يثوبون إلى رشد ولا إلى هدى ، وكأنهم فى صمم وبكم وعمى ، فهم لا يرجعون إلى الحق ، ولا إلى الرشاد ، ولا إلى أصل فطرتهم الحقيقية المطبوعة على الإيمان بالله ورسوله وكتابه الحكيم .

٢١ — يَٰأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

٢٢ — الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَٰشًا وَالسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ الثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ

٢٣ — وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَادْعُوا شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ

٢٤ — فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ

هذه الآيات الكريمة الأربع جاءت عقب حديث الله عز وجل عن طبقات الناس: المؤمنين والكافرين والمنافقين، وهى خطاب عام لجميع أصناف البشر، ودعوة إلهية جليلة لهم إلى الإيمان والطاعة وعبادة الله جل وعز. وإلى الإسلام واعتقاد أن القرآن كتاب منزل من عند الله يحمل آخر الشرائع والرسالات، ويحمل دعوة رفيعة للانسانية، لتبدأ عصرا جديدا وحياة جديدة فى ظلال الحرية والكرامة والسلام والرفاهية والإخاء والمساواة والمثل الإنسانية الرفيعة، ويصح أن يكون الخطاب مع عمومه موجها كذلك على صفة الخصوص إلى مشركى مكة الذين نزلت فى بيئتهم الرسالة، والذين حاربوا الله ورسوله، وصدوا عن سبيل الله، ووقفوا للرسول والمسلمين بالمرصاد، واضطهدوا كل من قبل دعوة الله والدين الحق والقرآن الذى جاء هدى ونورا ورحمة للناس.

لما عدد الله سبحانه وتعالى فرق المكلفين وذكر صفاتهم وأحوالهم أقبل

تعالى عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات بقوله تعالى « يا أيها الناس اعبدوا ربكم » تحريكا للسامع وتنشيطا له واهتماما بأمر العبادة ، وتفخيما لشأنها ، وجبرا لمشقة العبادة بلذة المخاطبة ، و « يا » حرف وضع لنداء البعيد وقد ينادى به القريب تنزيلا له منزلة البعيد إما لعظمته كقول الداعى « يارب » ، « يا الله » وهو أقرب إليه من حبل الوريد ، أو للاعتناء بالمدعو له وزيادة الحث عليه ، أو لغير ذلك ؛ ولفظ الناس يعم الموجودين ومن سيوجد بعد زمن الرسالة لما تواتر من أحكام الإسلام أن مقتضى خطابه وأحكامه شامل للفريقين ، ثابت إلى قيام الساعة إلا ماخصه الدليل ، وقال الإمام الرازى : الأقرب أنه لا يتناول إلا الموجودين ، لأن « يا أيها الناس » خطاب مشافهة وخطاب المشافهة مع المعدوم لا يجوز ، وتناوله له لدليل منفصل ، وهو ما تواتر من دينه عليه الصلاة والسلام أن أحكامه ثابتة فى حق من سيوجد إلى قيام الساعة ، وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن كل شىء نزل فيه « يا أيها الناس » فمكى ، « ويا أيها الذين آمنوا » فمدنى . ومعنى ذلك أن الخطاب لأهل مكة ، مع أن السورة نزلت بالمدينة ، ويجاب عن ذلك بأن المراد بأن السورة مكية أو مدنية أن غالبها كذلك ، أو أن ذلك أكثرى لا كلى ، وسورة البقرة والنساء والحجرات مدنيات باتفاق ، وقد قال تعالى فى كل منها « يا أيها الناس » ، وسورة الحج مكية سوى ما استثنى ، وفيها « يا أيها الذين آمنوا اركعوا » ، ولا يختص ذلك الخطاب بالكفار ولا بأمرهم بالعبادة ، وكما يجب على الكافر رفع الكفر والاشتغال بالعبادة يجب على المؤمنين ازديادهم منها وثباتهم عليها وقول الله تعالى « ربكم » للتنبيه على أن هذه العبادة ليست إلا شرفا للمتعبد لأنها موجهة إلى الله عز وجل خالق الخلق ، ورب الكون ، وقوله تعالى « الذى خلقكم » أى أنشأكم ولم تكونوا شيئا وهى صفة للتعظيم والتعليل ، والخلق إيجاد الشىء على التقدير والاستواء ، وأصله التقدير ، يقال « خلق النعل » إذا قدرها وسواها بالقياس .. والذين من قبلكم : أى وخلق الأمم من قبلكم وهذا متناول لكل ما يتقدم الإنسان بالذات والزمان ، وجملة « لعلكم تتقون » معناها

اعبدوا ربكم راجين أن تدخلوا فى سلك الفائزين بالهدى والفلاح ، المستوجبين لجوار الله تعالى ، ونبه الله عز وجل بذلك على أن التقوى منتهى درجات السالكين ، وهى التبرؤ من كل شىء سوى الله تعالى إلى الله ، وأن العابد ينبغى أن لا يغتر بعبادته ويكون ذا خوف ورجاء كما قال تعالى « يدعون ربهم خوفا وطمعا » ، « ويرجون رحمته ويخافون عذابه » ، ومعنى هذه الآية أن الله عز وجل يأمر عباده بالإيمان والتزام حدود الرسالة ، وبالإخلاص له وطاعته وعبادته حق العبادة ، لأنه الإله الخالق المعبود ، الذى خلق الأمم والأجيال والشعوب ، ومنحها القدرة على الحياة .

فالآية أصل عظيم من أصول الإنسانية الرفيعة ، ومعناها أن البشر ملزمون بالإيمان بعقيدة محمد ورسالته ، وباتباع الدين الحق الذى يتلاءم مع الفطرة الإنسانية الرفيعة وهو الإسلام ، وبعبادة الله وطاعته ، فالدين ضرورة من ضرورات الحياة الإنسانية ، والإيمان بالدين يستلزم اتساع أفق الإنسان فى التفكير والحياة ، ويستتبع الإيمان بالدين اعتقاد الإنسان أنه لا يعيش فى الحياة وحده ، بل إن معه قدرة خارقة تسنده فى الحياة ، وتدفعه إلى الكمال ، وتطالبه بعمل الخير ، وتجازيه على ما يعمل : خيراً بخير ، وشراً بشر ، ويستتبع الإيمان بالدين كذلك ثقة المؤمن بنفسه وبقدرته على مواجهة الحياة ، وإيمانه بأن الله مع الأخيار ، ويعينهم ويهديهم سواء السبيل .

ثم أرشد الله عز وجل فى الآية الثانية إلى أن الإيمان بالله ليس ذلا للمؤمن ، ولا قيداً يطوق به عنقه ، وليس مهانة للمسلم ؛ بل هو شرف عظيم ، ومنزلة رفيعة ، ينالها الإنسان ، لأنه لا يعبد حجرا ولا تمثالا ، ولا كوكباً ، ولا إنساناً ، وإنما يعبد الله عز وجل ، الذى تعالت فى الحياة إرادته ، وعظمت فى الوجود قدرته ، وظهرت فى الكون حكمته .

يعبد الله القادر على كل شىء ، الذى أعان الإنسان المخلوق على الحياة ، وذلل كل شىء له :

١ — فالأرض التى يسكنها الإنسان ، والتى مهدها الله له ، وجعلها صالحة

لحياته ، وجعلها بساطاً يمشى عليه ، وفراشاً يضع عليه قدميه ، الله هو الذى خلقها وسواها ، وجعلها كذلك .

٢ — والسماء المرفوعة ، بما فيها من كواكب ونجوم وشمس وقمر ، وسحب ، وبما يشرق فيها من أضواء تنير الكون للإنسان ، الله عز وجل هو بانيها ورافعها وخالقها للإنسان .

٣ — والأمطار المتساقطة من السحب التى تحيى الأرض ، وتنمو بها الثمرات ، وتخرج عليها النباتات ، ويعيش عليها الحيوان والإنسان ، الله عز وجل هو منزلها ومجريها .

فهل هناك نعم أجلّ من هذه النعم الثلاث ؟ فلولا الأرض ، ولولا السماء ، ولولا الماء ، لما كانت حياة ولا أحياء ، ولما عمرت الأرض وصلحت للعيش فيها .

والمراد بالسماء فى قوله تعالى « وأنزل من السماء ماء » السحاب ، ومعنى « فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » أى من أنواع الثمرات رزقاً تأكلون وتعلفون منه دوابكم ، وخروجها بقدرة الله تعالى ومشيئته ، وجعل الماء الممزوج بالتراب سبباً فى إخراجها ومادة لها كالنطفة للحيوان ؛ ومعنى « فلا تجعلوا لله أنداداً » أى شركاء فى العبادة ، ولما تركوا عبادته إلى عبادتها وسموها آلهة شابهت حالهم حال من يعتقد أنها ذوات واجبة بالذات قادرة على أن تدفع عنهم بأس الله وتمنحهم ما لم يرد الله بهم من خير ، فتهكم الله تعالى بهم وشنع عليهم بأن أطلق عليها الله تعالى اسم الأنداد ، وجعلها أنداداً لمن يمتنع أن يكون له ند ، ولذلك قال زيد بن عمرو بن نفيل حين فارق دين قومه :

أربا واحداً أم ألف رب … أدين إذا تقسمت الأمور
تركت اللات والعزى جميعاً … كذلك يفعل الرجل البصير

ومعنى قوله تعالى « وأنتم تعلمون » أى : وحالكم أنكم من أهل العلم والنظر وإصابة الرأى ، فلو تأملتم أدنى تأمل لعرفتم أن الله موجود ، وأنه هو المعبود ،

وأنه هو رب الإنسان والكون والوجود ، أو المعنى : وأنتم تعلمون أن الأنداد لا تماثله ولا تقدر على مثل ما يفعله .

ومجمل معنى الآيتين كما يقول بعض المفسرين هو أن الله عز وجل بعد أن ذكر أصناف الخلق ، وبين أن منهم المهتدين ، والكافرين الذين فقدوا الاستعداد للهداية ، والمنافقين المذبذبين بين ذلك ؛ دعا الناس إلى دين التوحيد الحق ، وهو عبادة الله وحده عبادة خشوع وإخلاص ، حتى كأنهم ينظرون إليه ويرونه ، فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم ، فإن فعلوا ذلك أعدوا أنفسهم للتقوى وبلغوا الغاية القصوى . ثم عدد بعض نعمه المتظاهرة عليهم الموجبة للعبادة والشكر ، فجعل منها خلقهم أحياء قادرين على العمل والكسب ثم خلق الأرض مستقرا ومهاداً لينتفعوا بخيراتها ويستخرجوا معادنها ونباتها ، ثم بنى لهم السماء التى زينها بالكواكب وجعل فيها مصابيح يهتدى بها السارى فى الليل المظلم ، وأنزل منها الماء فأخرج به ثمرات مختلفاً ألوانها وأشكالها . أفليس فى كل هذا ما يطوح بالنظر ويهدى الفكر إلى أن خالق هذا الكون البديع المثال لا ند له ولا نظير ، وأن ما جعلوه أنداداً له لا يقدر على إيجاد شىء خلق ، وأنهم يعلمون ذلك حق العلم ، فكيف يستغيثون بغير الله ، ويدعون غير الله ، مع أنه لا خالق ولا رازق سواه . ومضمون الآيتين كما ذهب إليه البيضاوى هو الأمر بالعبادة والنهى عن الإشراك به ، والإشارة إلى ما هو سبب الأمر بالعبادة والنهى عن الإشراك ، وبيانه أنه تعالى رتب الأمر بالعبادة على صفة الربوبية إشعاراً بأنها العلة لوجوبها ، ثم بين ربوبيته بأنه خالقهم وخالق أصولهم وما يحتاجون إليه فى معايشهم من الأرض والسماء والطعوم والملابس ، ثم لما كانت هذه أمورا لا يقدر عليها غيره شاهدة على وحدانيته رتب عليها النهى عن الإشراك به ولما قرر سبحانه وتعالى وحدانيته وبين الطريق الموصل إلى العلم بها ، ذكر عقبه ما هو الحجة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وهو القرآن المعجز بفصاحته التى غلبت فصاحة كل بليغ مع كثرتهم وإفراطهم فى المضادة وتهالكهم على المغالبة ، بقوله تعالى « وإن كنتم فى ريب »

أى شك ، «مما نزلنا على عبدنا » أى محمد من القرآن أنه من عند الله . «فأتوا بسورة » وإنما قال تعالى مما نزلنا لأن نزوله نجما فنجما بحسب الوقائع كما حكى الله تعالى عنهم بقوله تعالى « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة » ، فكان الجواب تحديهم على هذا الوجه إزالة للشبهة وإلزاما للحجة ، فإن أهل الشعر والخطابة يأتون بأشعارهم وخطبهم على قدر الحاجة شيئاً فشيئا . ولما كان القرآن منزلا كذلك طعنوا فيه بأنه مثل كلامهم ، فقيل لهم : إن ارتبتم فى نزوله منجما فأتوا بنجم منه ، لأنهم عجزوا عن نجم منه فعجزهم عن كله أولى . وأضاف العبد إلى نفسه تنويها بذكره وتنبيهاً على أنه مختص به منقاد لحكمه ، والسورة من القرآن الطائفة منه المترجمة التى لها أول وآخر أقلها ثلاث آيات . والحكمة فى تقطيع القرآن سورا هو إفراد الأنواع وتلاحق الأشكال وتجاوب النظم وتنشيط القارىء وتسهيل الحفظ والترغيب فيه ، فإن القارىء إذا ختم سورة فرج ذلك عنه بعض كربه كالمسافر إذا علم أنه قطع ميلا أوطوى بريدا ، والحافظ إذا حفظ سورة اعتقد أنه أخذ من القرآن حظاتاما وفاز بطائفة محدودة مستقلة بنفسها فعظم ذلك عنده ، وقوله تعالى «من مثله» صفة سورة أى سورة كائنة من مثل ما نزلناه أى بسورة مماثلة للقرآن فى البلاغة وحسن النظم . أو المعنى بسورة كائنة ممن هو على حاله أى على حال محمد من كونه بشرا أمياً لم يقرأ الكتب ولم يتعلم العلوم ، والمعنى الأول هو المطابق لقوله تعالى فى سورة يونس فأتوا بسورة مثله ولسائر آيات التحدى ، والمعنى : وإن ارتبتم فى أن القرآن منزل من عند الله فأتوا بقرآن من مثله ومخاطبة الجم الغفير بأن يأتوا بمثل ما أتى به واحد من أبناء جنسهم أبلغ فى التحدى من أن يقال لهم ليأت بنحو ما أتى به عبدنا آخر مثله . وقوله تعالى « وادعو شهداكم من دون الله » أى ليستعينوا بكل من ينصرهم ويعينهم سواء كانوا مثله أم لا ، والشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر أو القائم بالشهادة ، ومنه قيل للمقتول فى سبيل الله شهيد لأنه حضر ما كان يرجوه ، أو لأن الملائكة حضروه ، والمعنى : فادعوا للمعارضة من حضركم أو رجوتم معونته

من إنسكم وجنكم . وادعوا آلهتكم التى تعبدونها غير الله وتزعمون أنها تشهد لكم يوم القيامة ، أو استعينوا بهم فى الإتيان بماذكر ؛ «إن كنتم صادقين» أى فى أن محمداً صلى الله عليه وسلم يقوله من تلقاء نفسه وأن آلهتكم تشهد لكم بذلك .
والآية : «فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها(١) الناس والحجارة» أى التى تنحتونها وتتخذونها أرباباً من دون الله طمعاً فى شفاعتها والانتفاع بها ويدل لذلك قوله تعالى «إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم» .
أو المراد بالحجارة حجارة الكبريت لأنها أشد وأكثر التهاباً وتزيد على غيرها من الحجارة بسرعة الإيقاد ونتن الريح وكثرة الدخان وشدة الالتصاق بالأبدان .. «أعدت» أى هيئت للكافرين وجعلت عدة لعذابهم وفى ذلك دليل على أن النار مخلوقة معدة لهم الآن . ومعنى هذه الآية : نفى لقدرتهم على مجاراة القرآن الكريم فى إعجازه وبلاغته ، وذلك دليل على أنه من عند الله ، نزل معجزة لرسول الله . فيلزمنا الإيمان به ، وبرسالة محمد ، اتقاء للنار والعذاب الشديد يوم القيامة .

قال البيضاوى : وفى الآيتين ـ أى آية «إن كنتم فى ريب» وآية «فإن لم تفعلوا» ـ ما يدل على النبوة من وجوه :

الأول : مافيهما من التحدى والتحريض على الجد وبذل الوسع فى المعارضة بالتقريع والتهديد وتعليق الوعيد على عدم الإتيان بما يعارض أقصر سورة من سور القرآن . ثم إنهم مع كثرتهم واشتهارهم بالفصاحة وتهالكهم على حرب محمد ورسالته ، لم يتصدوا لمعارضته .

والثانى : ما فيهما من الإخبار عن الغيب على ما هو به ، فإنهم لو عارضوه بشىء لامتنع خفاؤه عادة ، لا سيما والطاعنون فيه أكثر من المدافعين عنه فى كل عصر .

والثالث : أنه عليه الصلاة والسلام لو شك فى أمر نفسه لما دعاهم إلى المعارضة بهذه المبالغة مخافة أن يعارض فتذهب حجته .

---

(١) الوقود : ما يتقد به .

٢٥ — وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ

بدأت السورة بقصة القرآن والمؤمنين ، ثم بقصة الكافرين ، ثم تلا ذلك قصة المنافقين المرتابين الذين يدعون الإيمان بألسنتهم دون قلوبهم ، ثم دعا الله عز وجل الناس عامة ، والأمم جميعا ، إلى الإيمان بدعوة محمد ورسالته ، وإلى الإيمان بالله وربوبيته ، لأنه هو خالقهم ، وخالق الأمم التى بادت من قبلهم ، وهو خالق الأرض والسماء ، ومنزل الأمطار ، ومخرج الثمرات من الأرض ، وحذر الناس ونهاهم عن عبادة غير الله ، ودعاهم إلى الإقلاع عن عبادة الأحجار والأصنام والأوثان . وأعلن صدق محمد فى رسالته ، وأنها رسالة إلهية ، وأن المعجزة الخالدة الدالة على صدق محمد فيما يبلغه عن الله هو هذا القرآن العظيم والكتاب الحكيم ، الذى لا يستطيع أحد ولا جماعة ولا جيل الإتيان بمثله فى فصاحته وبلاغته وروعته ، فهو كتاب الله الخالد ، ودستور الإنسانية العظيم ، وهو النور والهدى والضياء ، وهو الأمل والخير والرجاء ، وهو السنى والسناء ، لمن آمن به وعمل بما فيه ، ثم تحدى الله عز وجل الناس كافة بهذه المعجزة الإلهية ، فدعاهم إن كانوا شاكين أن يأتوهم وآلهتهم وأعوانهم بمثل هذا الكتاب الكريم . ثم سجل عليهم العجز ، وأكد أنه فوق طاقتهم ومقدرتهم ، وأنه أعلى من أن يستطيعوا الإتيان بكتاب مثله أو بسورة تناظر بعض سوره ، أو بسورة فى مثل فصاحته ، وعاد يدعوهم إلى الإيمان والطاعة وحظيرة التوحيد ، وإلى الايمان برسالة محمد ؛ فإنها هى التى تنجيهم من عذاب الدنيا والآخرة ، والإيمان بها يعصمهم من العذاب الشديد والنار المحرقة التى أعدت للكافرين فى الآخرة .

وبعد أن قرر الله عز وجل ذلك كله ، انتقل إلى شىء جديد ، هو مطالبة

الرسول الأكرم أن يبشر المؤمنين برضاء الله ومثوبته وجناته فقال : «وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات » أى الطاعات « أن لهم جنات » أى حدائق ذات شجر ومساكن ؛ وإنما أمر الله سبحانه وتعالى الرسول صلى الله عليه وسلم أو عالم كل عصر أو كل أحد يقدر على البشارة أن يبشر الذين آمنوا ، ولم يخاطبهم بالبشارة كما خاطب الكفرة ، تفخيما لشأنهم وإيذانا بأنهم أحق بأن يبشروا ويهنأوا بما أعد لهم ، والبشارة الخبر الصدق السار أولا ، فإنه يظهر أثر السرور فى البشرة لأن النفس إذا سرت انتشر الدم انتشار الماء فى الشجرة وقوله تعالى « فبشرهم بعذاب أليم » ورد على سبيل التهكم كقوله تعالى «ذق إنك أنت العزيز الكريم » ، وعطف سبحانه وتعالى العمل على الإيمان مرتبا للحكم عليهما إشعارا بأن السبب فى استحقاق هذه البشارة هو مجموع الأمرين والجمع بين الوصفين ، فإن الايمان الذى هو عبارة عن التيقن والتصديق أس والعمل الصالح كالبناء عليه ، وفى عطف العمل على الإيمان دليل على أن الصالحات خارجة عن مسمى الإيمان إذ الأصل أن الشىء لا يعطف على نفسه ولا على ما هو داخل فيه ، وجمع سبحانه وتعالى الجنة لأن الجنان على ما ذكره ابن عباس سبع : جنة الفردوس ، وجنة عدن ، وجنة النعيم ، ودار الخلد ، وجنة المأوى ، ودار السلام ، وعليون ، وفى كل واحدة من هذه السبع مراتب ودرجات متفاوتة على حسب تفاوت الأعمال والعمال ، واللام فى « لهم » تدل على استحقاقهم إياه لأجل ما رتب عليه من الإيمان والعمل الصالح لا لذاته .. ومعنى «تجرى من تحتها» أى من تحت أشجارها ومساكنها « الأنهار » ، كما تراها جارية تحت الأشجار النابتة على شواطئها ؛ والنهر بالفتح والسكون : المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر كالنيل والفرات : والمراد بالأنهار ماؤها ، وقوله تعالى «كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا » أى أطعموا من تلك الجنان ثمرة « قالوا هذا الذى رزقنا» أى أطعمنا « من قبل » أى من قبل هذا فى الدنيا ، جعل الله تعالى ثمر الجنة من جنس ثمر الدنيا لتميل النفس إليه أول ما يرى ، فإن الطبائع مائلة إلى المألوف منفرة عن غيره ، أى هذا من نوعه لتشابه ما يؤتون به فى الصورة ، كما قال

تعالى « وأتوا به متشابها » أى فى اللون والصورة ، مختلفا فى الطعم، وذلك أبلغ فى باب الإعجاز ، والداعى لهم إلى فرط استغرابهم وافتخارهم بما وجدوا من التفاوت العظيم فى اللذة والتشابه البليغ فى الصورة، فالتشابه بينهما حاصل فى الصورة التى هى مناط الاسم دون المقدار والطعم وهو كاف فى إطلاق التشابه، وللآية كما قال البيضاوى محمل آخر وهو أن مستلذات أهل الجنة فى مقابلة مارزقوا فى الدنيا من المعارف والطاعات ، متفاوتة فى اللذة بحسب تفاوتها، فيحتمل أن يكون المراد من هذا الذى رزقنا أنه ثوابه ومن تشابهما تماثلهما فى الشرف والرتبة وعلو الطبقة فيكون هذا فى الوعد نظير قوله تعالى « ذوقوا ما كنتم تعملون » فى الوعيد « ولهم فيها » أى فى الجنات « أزواج » من الحور العين والآدميات « مطهرة » أى مما يستقذر من النساء ويذم من أحوالهن كالحيض الوسخ ودنس الطبع وسوء الخلق فإن التطهير يستعمل فى الأجسام والأخلاق والأفعال، ومعنى تطهيرهن بما ذكر أنها منزهة عن ذلك مبرأة عنه « وهم فيها خالدون » أى دائمون أحياء لايموتون ولا يخرجون، والأصل فى الخلود الثبات المديد دام أو لم يدم ، فإن قيل : إن الأبدان مركبة من أجزاء متضادة الكيفية معرضة للاستحالات المؤدية إلى الانفكاك والانحلال فكيف يعقل خلودها فى الجنات فالجواب أنه تعالى يعيدها بحيث لا يعتريها الاستحالة بأن يجعل أجزاءها مثلا متفاوتة فى الكيفية متساوية فى القوة لايقوى شىء منها على إحالة الآخر، متعانقة متلازمة لا ينفك بعضها عن بعض كما يشاهد فى بعض المعادن ، ولما كان معظم اللذات الحسية مقصورا على المساكن والمطاعم والمناكح كما دل عليه الاستقراء وكان مآل ذلك كله الثبات والدوام فان كل نعم جليلة إذا قارنها خوف الزوال كانت منغصة غير صافية من شوائب الألم. فالمعنى بشر المؤمنين بالمساكن الجميلة والمطاعم والمناكح فبشر بالأول بقوله تعالى « جنات تجرى من تحتها الأنهار » ، وبالثانى بقوله تعالى « كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا» الآية ، وبالثالث بقوله تعالى « ولهم فيها أزواج مطهرة » ، ومثل ما أعد لهم فى الآخرة بأحسن ما يستلذ منها وأزال عنهم خوف الفوات بوعد الخلود ليدل

على كالهم فى التنعيم والسرور ، ومعنى الآية كلها تبشير المؤمنين برضاء الله ونعيمه وجناته ، وبالحياة الطيبة السعيدة الخالدة فى الآخرة .

وإلى هنا انتهى الربع الأول من القرآن الكريم الذى تتضمن تحديدا لأنصار الإسلام وخصومه من الكافرين والشاكين والمنافقين ،ودعوة صريحة للإنسانية كلها إلى الإيمان بالله وبرسالة محمد صلوات الله عليه ، هذه الرسالة التى كان القرآن معجزتها الخالدة ، هذا الكتاب الكريم الذى يعد فى أعلى قمة الإعجاز ، ولن يستطيع أن يصل إلى مداه على مر العصور أئمة البلاغة والبيان ، ثم تتضمن كذلك إعلان البشارة للمؤمنين برضاء الله وثوابه وجنته ورحمته .

٢٦ — إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَٰسِقِينَ

٢٧ — الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَٰقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ

وهنا يبدأ الربع الثانى من القرآن ، بقوله تعالى « إن الله لا يستحيي » الخ .

قال المفسرون هنا : إن الله عز وجل قد ضرب المثل فى كتابه الحكيم بالذباب والعنكبوت : « وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه » ، و « كمثل العنكبوت » ، فقالت اليهود : ضرب الله المثل بذلك وهو مما يستحى منه لقلته وحطته ، فليس القرآن منزلا من عند الله . فنزلت هاتان الآيتان للرد عليهم أبلغ رد .

ومعنى « لا يستحيي » أى لا يترك ، « أن يضرب مثلا ما بعوضة » ، هى صغار البق ، ذكرها الله عز وجل هنا فى معرض التمثيل بها لحقارتها ، وما

للتعميم أو للتأكيد ، فهى إما إبهامية تزيد النكرة قبلها إبهاما ، و إما مزيدة لتأكيد معنى مضمون الجملة قبلها ، والحياء : انقباض النفس عن القبيح مخافة الذم ، وقد ورد كذلك فى الحديث « إن الله يستحيي من ذى الشيبة المسلم أن يعذبه بالنار » ، « إن الله حيي كريم يستحى إذا رفع العبد يديه أن يردهما صفرا(١) حتى يضع فيهما خيرا » ، والمراد به فى جانب الله عز وجل الترك ، ويصح فى الآية الكريمة أن يكون مجىء الحياء فيها للمشاكلة، وهو ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته ولو تقديراً كما هنا ، وهو قول الكفار : أما يستحى محمد أن يضرب مثلا بالذباب والعنكبوت ، ولما كان التمثيل يصار إليه لكشف المعنى الممثل له ورفع الحجاب عنه و إبرازه فى صورة المشاهد المحسوس ليشاهد فيه الوهم العقل ويصالحه عليه ، فإن المعنى الصرف إنما يدركه العقل مع منازعة من الوهم ، شاعت الأمثال فى الكتب الإلهية وفشت فى عبارات البلغاء ، و إشارات الحكماء ، فيمثل الحقير بالحقير ، كما يمثل العظيم بالعظيم وإن كان الممثل أعظم من كل عظيم ، كما مثل الله سبحانه و تعالى فى الإنجيل غل الصدر بالنخالة ، والقلوب القاسية بالحصاة ، ومخالطة السفهاء بإثارة الزنابير ، ونصه على ما حكاه الإمام الرازى فى الأول : « لا تكونوا كمنخل يخرج منه الدقيق الطيب ويمسك النخالة كذلك أنتم تخرجون الحكمة من أفواهكم وتبقون الغل فى صدوركم » ، وفى الثانى : « قلوبكم كالحصاة التى لا تطبخها النار ولا يلينها الماء ، ولا تنسفها الرياح » ، وفى الثالث « لا تثيروا الزنابير فتلدغكم فكذلك لا تخالطوا السفهاء فيشتموكم » ، « فما فوقها » أى ما زاد على البعوضة فى الجثة كالذباب والعنكبوت ، والمعنى أنه لا يستحيي من ضرب المثل بالبعوضة فضلا عما هو أكبر منه ، أو المعنى الذى جعلت فيه مثلا وهو الصغر والحقارة كجناحها فإنه عليه الصلاة والسلام ضرب جناحها مثلا للدنيا بقوله فى خبر الترمذى : « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء » ، ونظيره فى ذلك ما روى عن عائشة رضى الله تعالى عنها : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مامن

(١) صفراً : فارغتين .

مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتب الله له بها درجة ومحا بها عنه خطيئة ، فإنه يحتمل ما يجاوز الشوكة في الألم وما زاد عليها في القلة . . . « فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه » أي ضرب المثل بذلك « الحق » أي الواقع موقعه « من ربهم » لأن الحق هو الثابت الذي لا يسوغ إنكاره وهو يعم الأعيان الثابتة والأفعال الصائبة والأقوال الصادقة ، من قولهم حق إذا ثبت ، ومنه ثوب محقق أي محكم النسج ؛ و(أما) حرف تفصيل يفصل ما أجمل ويؤكد ما به صدر ويتضمن معنى الشرط ولذلك يجاب بالفاء ، قال سيبويه : « أما زيد فذاهب » معناه مهما يكن من شيء فزيد ذاهب أي هو ذاهب لا محالة وأنه منه عزيمة ، « وأما الذين كفروا فيقولون : « ماذا » أي ما الذي أو أي شيء « أراد الله بهذا » أي بهذا الذي ذكره في كتابه الكريم ، وقوله تعالى « مثلا » منصوب على الحال من اسم الإشارة والمعنى : أي فائدة في ذلك ؟ فقال تعالى « يضل به كثيراً » بأن يكذبوا به « ويهدي به كثيراً » بأن يصدقوا به وكثرة كل واحد من القبيلين بالنظر إلى أنفسهم لا بالقياس — أي لا بالنظر — إلى مقابليهم ، فإن المهتدين قليـــلون بالإضافة إلى أهل الضلال ، كما قال تعالى « وقليل من عبادي الشكور » . . . ويحتمل أن تكون كثرة الضالين من حيث العدد وكثرة المهتدين باعتبار الفضل والشرف كما قال المتنبي :

سأطلب حقي بالقنا ومشايخ كأنهم من طول ما التثموا مرد
ثقال إذا لاقوا خفاف إذا دعوا قليل إذا عدوا كثير إذا شدوا

« وما يضل به إلا الفاسقين » أي الخارجين عن حد الإيمان بالكفر كقوله تعالى : « إن المنافقين هم الفاسقون » ، وتخصيص الإضلال بهم مرتبا على صفة الفسق يدل على أن الذي أعدهم للإضلال وأدى بهم إلى الضلال بالمثل ، وسبب ضلالهم به أن كفرهم وعدولهم عن الحق وإصرارهم على الباطل صرفت وجوه إنكارهم عن حكمة المثل إلى حقارة الممثل به ، حتى رسخت به جهالتهم وازدادت به ضلالتهم فأنكروا المثل واستهزأوا به ، وأما الفاسق في الشرع

فهو الخارج عن أمر الله بارتكاب كبيرة أو إصرار على صغيرة ، ولم تغلب طاعته على معاصيه ولا يخرجه ذلك عن الإيمان الا إذا اعتقد حل المعصية سواء أكانت كبيرة أم صغيرة ؛ قال تعالى « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا » والمعتزلة جعلوا الفاسق قسما ثالثاً نازلا بين منزلتى المؤمن والكافر لمشاركته كل واحد منهما فى بعض الأحكام ، وقد وصف الله المنافقين بصفات ثلاث : نقض العهد ، وقطع ما يجب أن يوصل ، والإفساد فى الأرض . وسجل عليهم بذلك الخسران المبين ، فقال : « الذين ينقضون عهد الله » وهو إما المأخوذ بالعقل وهو الحجة القائمة على عبادته الدالة على توحيده ووجوب وجوده وصدق رسوله ، وعليه يدل قوله تعالى « وأشهدهم على أنفسهم » وإما المأخوذ بالرسل على الأمم بأنهم إذا بعث إليهم رسول مصدق بالمعجزات صدقوه واتبعوه ولم يكتموا أمره ولم يخالفوا حكمه، وعليه يدل قوله تعالى « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب » الآية ، وقيل عهود الله ثلاثة : عهد أخذه بواسطة العقل على جميع ذرية آدم بأن يقروا بربوبيته ، وعهد أخذه بواسطة الملك على النبيين بأن يقيموا الدين ، ولا يتفرقوا فيه ، وعهد أخذه بواسطة الرسل على العلماء بأن يبينوا الحق ولا يكتموه ؛ وقوله تعالى « من بعد ميثاقه » أى توكيده ، والضمير للعهد أو لله . « ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل » وهو الرحم لأنهم قطعوا رحم النبى صلى الله عليه وسلم بالمعاداة معه ، ويحتمل كل قطيعة لا يرضاها الله تعالى كقطع الرحم والإعراض عن موالاة المؤمنين وترك الجماعات وسائر مافيه بعض خير أو تعاطى شر ، فإنه يقطع الوصلة بين الله وبين العبد المقصودة بالذات من كل وصل وفصل ، « ويفسدون فى الأرض » أى بالمعاصى وتعويق الناس عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والاستهزاء بالحق وقطع الصلات التى بها نظام العالم وصلاحه . . « أولئك هم الخاسرون » بفوات التوبة والمصير إلى العقوبة، بإهمال العقل عن النظر واقتناص ما يفيدهم فى الحياة الأبدية

واستبدال الإنكار والطعن فى الآيات بالإيمان بها والنظر فى حقائقها ، والاقتباس من أنوارها ، واشتراء النقض بالوفاء والفساد بالصلاح والعقاب بالثواب .

روى عن ابن عباس أن هذه الآيات جاءت لتنزيه القرآن الكريم من ريب خاص اعترى اليهود الذين أنكروا ضرب الأمثال بالمحقرات كالذباب والعنكبوت لما نزل قوله تعالى « يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب » وقوله « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » إثر تنزيهه من مطلق الريب بما تحداهم به فى الآيات السابقة ، إذ طلب إليهم أن يأتوا بسورة مثله ، وبه أبان لهم أن ذلك ليس بمطعن فى القرآن ، بل هو أنصع برهان على أنه من عند خالق القوى والقدر ، فإن سنة البلغاء جرت بوجوب التماثل بين المثل وما مثل له ، فالعظيم يمثل له بالعظيم ، والحقير يمثل له بالحقير ، ألا ترى إلى الإنجيل وقد مثل غل الصدر بالنخالة ومعارضة السفهاء بإثارة الزنابير ، وجاء فى عباراتهم (أجمع من ذرة ، وأجرأ من الذباب ، وأضعف من بعوضة) ، وما الأمثال إلا إبراز للمعانى المقصودة فى قالب الأشياء المحسوسة لتأنس بها النفس وتستنزل الوهم عن معارضة العقل ، والحكيم علام الغيوب يعلم حكمة هذا ، فلا يترك ضرب المثل بالبعوضة وما دونها حين تدعو المصلحة إلى ذلك . والناس إزاء هذا فريقان : مؤمنون يقولون : إن الله خالق الأشياء حقيرها وعظيمها فالكل لديه سواء ، وكافرون يستهزئون بالأمثال احتقاراً لها ، فحقت عليهم كلمة ربهم ، فأصبحوا من الخاسرين الضالين المطرودين من رحمة الله .

٢٨ — كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

٢٩ — هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

هاتان الآيتان توبيخ للكافرين بالله ، ما بعده من توبيخ ، وتذكير لهم بنعمة الله عز وجل عليهم ، وبدلائل قدرته القادرة ، والخطاب هنا على طريق التوبيخ والتعجيب من صفة كفرهم ، بذكر البراهين الداعية إلى الإيمان ، الصادة عن الكفر ، وهى النعم المتظاهرة الدالة على قدرته تعالى ، من مبدأ الخلق إلى منتهاه ، من إحيائهم بعد الإماتة وتركيب صورهم من الذرات المتناثرة والنطف الحقيرة المهينة ، وخلق لهم ما فى الأرض جميعاً ليتمتعوا بجميع ما فى ظاهرها وباطنها على فنون شتى وطرق مختلفة ، وخلق سبع سموات مزينة بمصابيح ليهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر . أفبعد هذا كله يكفر الكافرون بالله وينكرون عليه أن يبعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ، ويضرب لهم الأمثال ليهتدوا بها فى إيضاح ما أشكل عليهم مما فيه أمر سعادتهم فى دينهم ودنياهم ، وآخرتهم وأولاهم ، ومعادهم ومعاشهم .

كيف يبيح الإنسان لنفسه أن يكفر بالله وهو الذى أحياه من عدم ، وأوجده من فناء ، وهو الذى يميته بعد إحياء ، وهو الذى يعيد إحياءه وبعثه فى اليوم الآخر .

وكيف يكفر الإنسان بالله ، وهو الذى خلق للناس كل ما تحتوى عليه الأرض من كنوز وخيرات وثمرات وأنهار ومعادن وزراعات وأشجار ووديان وجبال وسواها ، وهو الذى جعل السماء سبع سموات ، وجعل فيها الكواكب والنجوم والشمس والقمر ، وأنزل منها السحاب والمطر رحمة بالناس ، وهو العليم بكل شىء ، المحيط بكل شىء ، سبحانه وتعالى عما يصف الكافرون .

لقد دعا الله عزوجل فيما سبق الناس إلى الإيمان به وبالدين الحق، وبين بعض مظاهر قدرته، وهنا يعيد الدعوة إلى الإيمان والدين، عن طريق تحقير شأن الكفر والكافرين، وتوبيخ الجاحدين على أن أهملوا عقولهم، وقلدوا فى الدين، وتركوا عبادة الله العلى الأعلى خالق الأرض والسموات.

قوله تعالى « كيف تكفرون بالله » أى أخبرونى على أى حال تكفرون، « وكنتم أمواتا » أى نطفا فى أصلاب آبائكم لا إحساس لكم، « فأحياكم » فى الأرحام ثم فى الدنيا بخلق الأرواح ونفخها فيكم، ثم خلقكم فى أحسن تقويم، وفضلكم على غيركم بنعمة العقل والإدراك والفهم وتسخير جميع القوى الكونية والأرضية لكم ولمصلحتكم.

« ثم يميتكم » أى بعد انقضاء آجالكم بقبض الأرواح التى بها نظام حياتكم، وحينئذ تنحل أبدانكم وتعود سيرتها الأولى وتنبث فى طبقات الأرض، وينعدم هذا الوجود الخاص الذى لها.

« ثم يحييكم » أى حياة أخرى أرقى من هذه الحياة وأكمل لمن زكى نفسه وعمل صالحاً، ودونها لمن أفسد فطرته وأهمل التدبر فى سنن الكون، وأنكر الإله والرسل وفسق عن أمر ربه.

« ثم إليه ترجعون » أى للحساب والجزاء على ماقدمتم من عمل إن خيراً فخير وإن شراً فشر. والخطاب هنا فى هاتين الآيتين للكفار، ويصح أن يكون الخطاب للناس عامة مؤمنهم وكافرهم على السواء.

فإنه سبحانه وتعالى لما بين للناس دلائل التوحيد والنبوة ووعدهم على الإيمان وأوعد على الكفر، أكد ذلك بأن عدد عليهم النعمة العامة والخاصة واستبعد صدور الكفر منهم مع تلك النعم الجليلة فإن عظم النعم يوجب عظم معصية المنعم.

ويصح أن يكون الخطاب مع المؤمنين خاصة لتقرير المنة عليهم، وتبعيد الكفر عنهم على معنى: كيف يتصور منكم الكفر وكنتم أمواتاً أى جهالا فأحياكم بما أفادكم من العلم والإيمان، ثم يميتكم الموت المعروف ثم يحييكم الحياة

الحقيقية « ثم إليه ترجعون » فينبئكم بما لاعين رأت ولاأذن سمعت ولاخطر على قلب بشر .. «هو الذى خلق لكم مافى الأرض » أى خلق لأجلكم وانتفاعكم فى دنياكم باستنفاعكم بها فى مصالح أبدانكم بواسطة كالأدوية المركبة أو غير واسطة كالثمرة والأدوية المفردة، وفى دينكم بالاستدلال على موجدكم ، ففى ذلك نعمة على عباده سبحانه وتعالى ، و «ما» تعم كل مافى الأرض ، ثم أكد ذلك بقوله تعالى «جميعا» .. وقوله تعالى «ثم استوى إلى السماء » أى قصد إلى خلقها بإرادته ، وأصل الاستواء طلب السوى وإطلاقه على الاعتدال لما فيه من تسوية وضع الأجزاء ، ولا يمكن حمله على الله لأنه من خواص الأجسام وقيل : استوى : استولى . والمراد بالسماء هذه الأجرام العلوية أوجهات العلو ليطابق قوله تعالى « فسواهن سبع سموات » و«ثم» هنا للدلالة على تفاوت مابين الخلقين فى المنزلة ، وليست للتراخى فى الوقت لأنه يخالف ظاهر قوله تعالى « والأرض بعد ذلك دحاها » فانه يدل على تأخر خلق الأرض ، وقيل : إنه ليس على ماينبغى لأن « ثم » تدل على تأخر خلق السماء عن خلق ما فى الأرض من عجائب الصنع حتى أسباب اللذات والآلام وأنواع الحيوانات حتى الهوام لا عن مجرد خلق جرم الأرض ، وقيل: إن خلق جرم الأرض مقدم على خلق جرم السماء ، وخلق وصفها أعنى وجودها مقدم على وصف السماء أعنى تسويتها سبعاً فرجع الإشارة فى قوله تعالى «بعد ذلك» جرم السماء لا وصفها .. وقوله تعالى : « وهو بكل شىء عليم » أى مجملا ومفصلا ، فيه تعليل كأنه قال ولكونه عالما بكيفية الأشياء كلها خلق ما خلق على هذا النمط الأكمل والوجه الأنفع ، وفيه استدلال بأن من كان فعله على هذا النسق العجيب والترتيب الأنيق كان عليما ، فإن إتقان الأفعال وإحكامها وتخصيصها بالوجه الأحسن الأنفع لايتصور إلا من عالم حكيم رحيم « أفلا تعتبرون » أن القادر على خلق ذلك ابتداء وهو أعظم منكم قادر على إعادتكم .

فى هاتين الآيتين ينبه الله عز وجل الناس إلى مظاهر قدرته العظيمة التى لا تماثل ، والتى تدعو إلى الإذعان لقدرته ، والإيمان بألوهيته ، وإلى نبذ

الأوثان والأصنام وما إليها ، وإلى عبادة الله وحده لاشريك له . فهو واهب الحياة وخالقها ومدبرها ، فكيف لا يقر أحد له بالربوبية والألوهية ؟

٣٠ — وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَالَا تَعْلَمُونَ

٣١ — وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَـٰئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَـٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ

٣٢ — قَالُوا سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

٣٣ — قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ

٣٤ — وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰئِكَةِ اسْجُدُوا لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَـٰفِرِينَ

٣٥ — وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّـٰلِمِينَ

٣٦ — فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ

٣٧ — فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ

٣٨ — قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

٣٩ — وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

فى هـذه الآيات العشر يقص الله عز وجل علينا قصة آدم أبى البشر ، ويذكرنا بنعمته علينا فى الخلق والإحياء ، فقد امتن الله عز وجل على عباده بنعمة الحياة ، وهنا يشرح الله عز وجل بدء الحياة ، وكيف خلق آدم أبا البشر وكرم منزلته أمام الملائكة ، وأعلى من مكانته فى الحياة .

وفى هذه الآيات العشر يفصل الله عز وجل هذه النعمة السابقة التى أسداها للبشر أجمعين بخلق آدم وإعزاز منزلته .

ففى الآية الأولى يذكر الله عز وجل حواراً بديعاً جرى للملائكة مع الذات الإلهية حين أراد الله تعالى بعث الحياة إلى الأرض ، وخلق البشر فيها ، وتهيئة وسائل الحياة لهم على ظهرها ، بخلق آدم عليه السلام ، ويقول الشيخ أحمد المراغى فى تفسيره(١) نقلا عن تفسير المنار متحدثا عن الآية الأولى من هذه الآيات : إن هذه الآية كالتى قبلها : تعداد للنعم الصارفة عن العصيان والكفر الداعية إلى الإيمان والطاعة ، فإن خلق آدم على تلك الصورة وما أوتيه من نعمة العلم وحسن التصرف فى الكون وجعله خليفة الله فى أرضه ـ من أجل النعم التى يجب على ذريته أن يشكروه عليها بحسن طاعته والبعد عن كفرانه ومعصيته . وفيها وفيما بعدها قصص لأخبار النشأة الإنسانية ، أبرز فيه حكما وأسراراً جاءت فى صورة مناظرة وحوار ـ وهو من المتشابه الذى لا يمكن حمله على المعنى الظاهر منه ، لأنه إما استشارة من الله لعباده وذلك محال ، وإما إخبار منه للملائكة فهو اعتراض منهم ومحاجة ، وذلك لا يليق بالله

(١) ص ٧٥ ج ١ .

ولا بملائكته على حسب ما جاء فى وصفهم بقوله « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » ومن ثم كان للعلماء فيه وفى أمثاله رأيان :

١ — رأى المتقدمين منهم وهو تفويض الأمر إلى الله فى بيان المراد من كلامه ، مع علمنا بأنه لا يخبرنا بشىء إلا لنستفيد به فى أخلاقنا وأعمالنا ، بذكر ما يقرب المعانى إلى عقولنا . فهذا الحوار المصور بصورة القول والمراجعة والسؤال والجواب لا ندرك حقيقة المراد منه ، وإن كنا نجزم بأن هناك مقاصد أريد إفادتها بهذه العبارات ، وأن الله كان يعد لآدم الكون ، وأن لهذا المخلوق كرامة لديه بما أودعه فيه من فضائل ومزايا ، وفائدة ذكر ذلك لنا من نواح عدة :

منها بيان أن لا مطمع للإنسان فى معرفة جميع أسرار الخليقة وحكمها . فالملائكة وهم أولى منا بعلمها عجزوا عن معرفتها .

ومنها بيان أن الله قد هدى الملائكة بعد حيرتهم ، وأجابهم عن سؤالهم : بأن أرشدهم إلى الخضوع والتسليم أولا بقوله « إنى أعلم ما لا تعلمون » ، ثم بالدليل ثانيا بأن علم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة .

ومنها أن الله جلت قدرته رضى لخلقه أن يسألوه عما خفى عليهم من أسراره فى الخليقة ، والسؤال كما يكون بالمقال يكون بالحال بالتوجه إلى الله أن يفيض عليهم العلم بمعرفة ما أشكل عليهم .

ومنها تسلية النبى صلى الله عليه وسلم عن تكذيب المشركين له ومحاجتهم بلا برهان يستندون إليه ـ بأنه لا بدع فى ذلك ، فالملائكة طلبوا الدليل والبرهان من ربهم فيما لا يعلمون ، فالأنبياء يجدر بهم أن يصبروا على المكذبين ويعاملوهم كما عامل الله الملائكة المقربين ، ويأتوهم بالبراهين الساطعة ، والحجج الدامغة .

٢ — رأى المتأخرين منهم ـ وهو تأويل ما اشتبه علينا من قواعد الدين ، لأنها إنما وضعت على أساس العقل : فإذا ورد فى النقل شىء يخالف حكم العقل حمل النقل على غير الظاهر منه بتأويله حتى يتفق مع حكم العقل . وعلى هذا ـ

فالقصة وردت مورد التمثيل لتقريبها من أذهان الخلق ، بإفهامهم حال النشأة الآدمية وما لها من ميزة خاصة ، بأن أخبر الله ملائكته بأنه جاعل فى الأرض خليفة ، فعجبوا وسألوا الله تعالى بلسان المقال إن كانوا ينطقون ، أو بلسان الحال بالتوجه اليه تعالى أن يفيض عليهم المعرفة : كيف تخلق هذا النوع ذا الإرادة المطلقة والاختيار الذى لاحد له ، وربما اتجه بإرادته إلى خلاف المصلحة والحكمة ، وذلك هو الفساد ، فألقى عليهم بطريق الإلهام وجوب الخضوع والتسليم لمن هو بكل شىء عليم ، فما يضيق عنه علم أحد يتسع له علم من هو أعلم منه ، وهذا جواب ربما لايذهب بالحيرة ، ومن ثم تفضل على الملائكة وأبان لهم الحكمة فى خلق هذا النوع ، فعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فعلموا أن فى فطرة هذا النوع استعدادا لعلم مالم يعلموا ، وأنه أهل للخلافة فى الأرض ، وأن سفك الدماء لا يذهب بحكمة الاستخلاف وفائدته .

وخلاصة هذا أن الملائكة تشوفوا لمعرفة الحكمة فى استخلاف ذلك المخلوق الذى من شأنه ماقالوا ، ومعرفة السر فى تركهم وهم المجبولون على تسبيحه وتقديسه ؛ فأعلمهم الله أنه أودع فيه من السر ما لم يودعه فيهم . هذا مجمل ما جلى به الأستاذ الإمام محمد عبده رحمه الله هذا البحث حين تفسيره للآية ، ونقله عنه صاحب المنار فى تفسيره .

والملائكة هم الرسل بين الله ورسله ، واختلف الباحثون فى حقيقتهم بعد اتفاقهم على أنهم ذوات موجودة قائمة بأنفسها ، فذهب أكثر المسلمين إلى أنها أجسام لطيفة شفافة ويعبرون عنها بنورانية ، واستدلوا على ذلك بأن الرسل كانوا يرونهم أجساما لطيفة متشكلة بأشكال مختلفة ، وزعم الفلاسفة أنها جواهر مجردة مخالفة للنفوس الناطقة فى الحقيقة ، وقالت طائفة من أهل الكتاب : هى النفوس الفاضلة أى المتصفة بفضائل العلم والعمل بخلاف الشريرة فإنها عندهم الشياطين البشرية ... إن الله تعالى خلق السماء والأرض وخلق الملائكة والجن فأسكن الملائكة فى السماء وأسكن الجن فى الأرض فمكثوا فيها دهرا طويلا

ثم ظهر فيهم الحسد والبغى ، فأفسدوا فيها فبعث الله تعالى اليهم جنداً من الملائكة رئيسهم إبليس ، فكان من أشدهم وأكثرهم علماً ، فهبطوا إلى الأرض وطردوا الجن إلى شعاب الجبال وبطون الأودية وجزائر البحار وسكنوا الأرض وخفف الله تعالى عنهم العبادة وأعطى الله إبليس ملك الأرض ، فدخله العجب وقال : ما أعطانى الله تعالى هذا الملك إلا لأنى أكرم الملائكة عليه ، فقال الله تعالى له ولجنده : « إنى جاعل فى الأرض خليفة » ، والخليفة من يخلف غيره وينوب عنه أى جاعله بدلا منكم ورافعكم إلىّ ، والمراد به آدم صلى الله عليه وسلم لأنه كان خليفة الله فى أرضه ، وكذا كل نبى استخلفه فى عمارة الأرض وسياسة الناس وتكميل نفوسهم وتنفيذ أمره فيهم ، لا لحاجة به تعالى إلى من ينوب عنه بل لقصور المستخلف عليه من قبول فيضه وتلقى أمره بغير وسيط ، ولذلك لم يستنبىء ملكا كما قال تعالى : ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ، أى فى صورة رجل ، ومن كان من الأنبياء أعلى رتبة كلمه بلا واسطة . وقيل : إنه خليفة من سكن الأرض قبله ، وقيل : المراد آدم وذريته لأنهم يخلفون من قبلهم أو يخلف بعضهم بعضا .. وفائدة قوله هذا للملائكة تعليم المشاورة وتعظيم شأن المجعول خليفة .

وهذا الاستخلاف يشمل استخلاف بعض أفراد الإنسان على بعض ؛ بأن يوحى بشرائعه على ألسنة أناس منهم يصطفيهم ليكونوا خلفاء عنه ؛ واستخلاف هذا النوع على غيره من المخلوقات بما ميز به من قوة العقل ؛ وإن كنا لا نعرف سرها ولا ندرك كنهها ، وهو بهذه القوة غير محدود الاستعداد ولا محدود العلم ، يتصرف فى الكون تصرفا لا حد له ، فهو يبتدع ويفتن فى المعدن والنبات وفى البر والبحر والهواء ، ويغير شكل الأرض فيجعل الماحل خصبا ، والحزن سهلا ، ويولد بالتلقيح أزواجا من النبات لم تكن ، ويتصرف فى أنواع الحيوان كما شاء بضروب التوليد ، ويسخر كل ذلك لخدمته :

« قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها » بالمعاصى « ويسفك الدماء » أى يريقها بالقتل . تعجبوا من أن يستخلف لعمارة الأرض وإصلاحها من يفسد فيها وقصدهم

استكشاف ما خفى عليهم من الحكمة التى بهرتهم ، وليس باعتراض على الله تعالى ولا طعن فى بنى آدم على وجه الغيبة ، فإنهم أعلى من أن يظن بهم ذلك لقوله تعالى : « بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » . . « ونحن نسبح بحمدك » أى نقول : سبحان الله وبحمده . وهذا صلاة ما عدا الآدميين ، قال تعالى « وإن من شىء إلا يسبح بحمده » أى يقول سبحان الله وبحمده ، روى عن أبى ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : أى الكلام أفضل ؟ قال : ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده : سبحان الله وبحمده .. وقيل : ونحن نصلى بأمرك . قال ابن عباس كل ما فى القرآن من التسبيح فالمراد منه الصلاة . « ونقدس لك » : ننزهك عما لا يليق بك ، والمعنى : أتستخلف عصاة ونحن معصومون أحقاء بذلك ، والمقصود منه الاستفسار ، وقيل : نقدس لك : نطهر نفوسنا على الذنوب لأجلك ، كأنهم قابلوا الفساد المفسر بالشرك عند قوم بالتسبيح ، وسفك الدماء الذى هو أعظم الأفعال الذميمة بتطهير النفس عن الآثام .. « قال إنى أعلم ما لا تعلمون » أى من المصلحة فى استخلاف آدم وأن ذريته فيهم المطيع والعاصى فيظهر العدل بينهم . وقيل : إنى أعلم أن فيكم من يعصينى وهو إبليس وجنوده . وقيل : إنى أعلم أنهم مذنبون وأنا أغفر لهم .

والأوضح أن هذا الحوار كان قبل خلق البشر ، وأن الملائكة سبق خلقهم وظهرت طاعتهم لله عز وجل ، وكانوا هم جند الله ، فلما أراد الله عز وجل خلق آدم وتناسل ذريته منه ، وأن يجعل آدم وأبناءه خلفاء لله فى أرضه ، قالت الملائكة بلسان الحال لا بلسان المقال : أتجعل يا إلهنا فى الأرض من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ، ومن يكون خليفة لك فى الأرض دوننا ، ولكن الله عز وجل رد عليهم بأن حكمته وعلمه فوق حكمتهم وعلمهم ، وأنه يعلم ما لا يعلمون .

والآية الثانية وهى « وعلم آدم الأسماء كلها » المراد بها أسماء المسميات كلها الدالة على جميع الكائنات وما فيها من أسرار وحكم ، والعلم بالدليل يستلزم العلم بالمدلول بصفته وحقيقته وخواصه ، وقيل : علمه اسم ما كان وما يكون إلى

يوم القيامة ، وقيل: علمه الله عز وجل جميع اللغات « ثم عرضهم على الملائكة » أي عرض المسميات ؛ فمعنى الأسماء المدلول عليها ضمنا في قوله تعالى « وعلم آدم الأسماء » المسميات كما مر تقديره .. « فقال » لهم سبحانه وتعالى تبكيتا لهم وتنبيها على عجزهم عن أمر الخلافة « أنبؤني » أي أخبروني « بأسماء هؤلاء » المسميات « إن كنتم صادقين » أي لا أخلق خلقاً إلا كنتم أفضل وأعلم منه ، وذلك أن الملائكة قالوا لما قال : إني جاعل في الأرض خليفة : ليخلق ربنا ما يشاء ، فلن يخلق خلقا أكرم عليه منا ، وإن كان فنحن أعلم منه لأنا خلقنا قبله ورأينا مالم يره ، فأظهر الله تعالى فضله عليهم بالعلم .

والآية الثالثة « قالوا » أي الملائكة إقراراً بالعجز وإشعاراً بأن سؤالهم كان استفساراً ولم يكن اعتراضاً وأنه قد بان لهم ماخفي عليهم من فضل الإنسان والحكمة في خلقه ، وإظهاراً لشكر نعمته بما عرفهم وكشف لهم ما التبس عليهم « سبحانك » تنزيها عن الاعتراض عليك « لاعلم لنا إلا ماعلمتنا » إياه ، وفي هـذا مراعاة للأدب بتفويض العلم كله إليه سبحانه وتعالى وتصدير الكلام بسبحان اعتذار عن الاستفسار والجهل بحقيقة الحال ، فإنه تعالى منزه عن أن يفعل مايخرج عن الحكمة ، ولذلك جعل « سبحانك » مفتاح التوبة فقال موسى عليه السلام له : تبت إليك ، وقال يونس عليه الصلاة والسلام : سبحانك إني كنت من الظالمين .. « إنك أنت العليم » الذي لايخفى عليه خافية « الحكيم » المحكم لمبدعاته الذي لا يفعل إلا مافيه حكمة بالغة .

والآية الرابعة وهي قوله تعالى « يا آدم أنبئهم » أي أخبر الملائكة « بأسمائهم » أي المسميات ، فسمى آدم كل شيء باسمه وذكر الحكمة التي لأجلها خلق « ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض » أي ماغاب فيها « وأعلم ماتبدون » أي تظهرون من قولكم أتجعل فيها .. « وما كنتم تكتمون » أي تسرون من قولكم : لن يخلق أكرم عليه منا ولا أعلم ، وقيل : ما أظهروا من الطاعة وأسره إبليس من المعصية .

وهذه الآيات وهى آية « وعلم آدم ، وآية سبحانك ، وآية قال يا آدم » تدل على شرف الإنسان ومزية العلم وفضله على العبادة ، وإلا لأظهر فضل آدم بها ، وأن العلم بما يستخلف فيه شرط فى الخلافة بل العمدة فيها ، وأن التعليم يصح إسناده إلى الله تعالى وإن لم يصح إطلاق المعلم عليه لاختصاصه بمن يحترف به وأن اللغات توقيف من الله فإن الأسماء تدل على الألفاظ بخصوص أو عموم وتعليمها ظاهر فى إلقائها على المتعلم مبيناً له معانيها وذلك يستدعى سابقة وضع . والأصل ينبغى أن يكون ذلك الوضع ممن كان قبل آدم من الملائكة والجن فيكون من الله ، وأن علوم الملائكة وكمالاتهم تقبل الزيادة ، وأن آدم أفضل من هؤلاء الملائكة لأنه أعلم منهم والأعلم أفضل لقوله تعالى « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » وأن الأنبياء أفضل من الملائكة وإن كانوا رسلا كما ذهب إليه أهل السنة ، وأنه تعالى يعلم الأشيـــاء قبل حدوثها لأنه أخبر عن علمه تعالى بأسماء المسميات جميعها ولم تكن موجودة وقت الإخبـار .

والآية الخـامسة تظهر فضل آدم وتفضيل الله عز وجل له على جميـع خلقه .. « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم » : لما أنبأهم بالأسماء وعلمهم ما لم يعلموا أمرهم بالسجود له ، اعترافا بفضله وأداء لحقه وإعذاراً عما قالوا فيه . أو أمرهم به قبل أن يسوى خلقه لقوله تعالى فإذا سويته ونفخت فيـه من روحى فقعوا له ساجدين استحساناً لهم وإظهارا لفضله ، وقضية الأول تأخير الأمر به عن تسوية خلقه بدليل تأخيره عن إنبائهم وتعليمهم المستلزمين لتسوية خلقه ، وعلى الثانى اقتصر بعض المفسرين وهو الظاهر .

والسجود لغة الخضوع والانقياد ، ومن أعظم مظاهره وضع الجبهة على التراب ، وكانت تحية للملوك عند بعض القدماء كما ورد من سجود يعقوب وأولاده ليوسف . والسجود لله قسمان : سجود العقلاء تعبدا على الوجه المعروف شرعا ، وسجود المخلوقات كلها بانقيادها وخضوعها لمقتضى إرادته كما قال : « والنجم والشجر يسجدان » وقال : « ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها » .

والملائكة من عالم الغيب لا نعرف حقيقتهم ، والكتاب الكريم يرشد إلى أنهم أصناف ، لكل صنف عمل ، وقد جاء فى لسان الشرع إسناد إلهام الحق والخير إلى الملائكة كما يستفاد من خطابهم لمريم عليها السلام ، وإسناد الوسوسة إلى الشياطين وهو مشهور فى الكتاب والسنة ، فقد روى الترمذى (إن للشيطان لمة بابن آدم ، وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاز بالخير وتكذيب بالشر وأما لمة الملك فإيعاز بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله على ذلك ، ومن وجد الآخر فليتعوذ بالله من الشيطان) ثم قرأ «الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء» ، واللمة الإلمام والإصابة فالملائكة والشياطين أرواح لها اتصال بأرواح الناس لا نعرف حقيقته ، بل نؤمن بما ورد فيه ولا نزيد عليه شيئاً آخر . ويرى بعض المفسرين أن ما ورد من أن الملائكة موكلون بالأعمال من إنماء نبات وخلق حيوان وحفظ إنسان ، فمعناه أن هذا النمو فى النبات إنما هو بروح خاص نفخه الله فى البذرة فكانت به هذه الحياة المخصوصة ، وكذلك يقال فى الحيوان والإنسان . . فكل شىء قائم بنظام خاص تمت به الحكمة الإلهية فى إيجاده ، فإنما قوامه بروح إلهى سمى فى لسان الشرع ملكاً ، ومن لا يعترف بالغيب يسميه قوة طبيعية أو ناموساطبيعيا ، فالمؤمن بالغيب يرى للأرواح وجوداً لا يدرك كنهه ، والذى لا يؤمن به يقول أعرف قوة لا أفهم حقيقتها ، وإذاً فلا خلاف بين الناس فى وجود شىء غير ما يرى ويحس ، لا يفهم حق الفهم ولا يصل العقل إلى إدراك كنهه .

وكلنا نشعر إذا هممنا بأمر فيه وجه للحق أو للخير ، ووجه للباطل أو للشر ، بأن فى نفوسنا تنازعا ، وكأن الأمر قد عرض على مجلس للشورى ، فواحد يقول افعل وآخر يقول لا تفعل حتى ينتصر أحد الطرفين على الآخر ، فهذا الذى أودع فى نفوسنا ونسميه قوة وفكراً هو فى الحقيقة معنى لا ندرك كنهه ، ولا يبعد أن نسميه أو نسمى سببه ملكا ، هذا هو رأى الإمام محمد عبده ، ثم قال الإمام محمد عبده : فإذا جرينا على هذا التفسير فليس ببعيد أن تكون فى الآية

إشارة إلى أن الله لما خلق الأرض ودبرها بما شاء من القوى الروحانية التى بها قوامها ، وجعل كل صنف من القوى مخصوصاً بنوع من المخلوقات لا يتعداه ، خلق الإنسان وأعطاه قوة بها يتصرف فى جميع القوى ويسخرها فى عمارة الأرض ، وهذا التسخير هو المعبر عنه بالسجود الذى يفيد معنى الخضوع ، وبهذه القوة التى لا حد لها جعله الله خليفة فى أرضه ، لأنه أكمل الموجودات ، واستثنى من هذه القوى قوة واحدة تميل بالكامل إلى النقص ، وتصده عن عمل الخير ، وتنازع الإنسان فى صرف قواه إلى المنافع والمصالح التى تتم بها خلافته ، تلك القوة ضلت آثارها قوما فزعموا أن فى العالم إلها يسمى إله الشر ، وما هى بإله ولكنها محنة إله لا يعلم أسرار حكمته إلا هو ، تلك القوة هى المعبر عنها بإبليس . ولو أن نفساً مالت إلى قبول هذا التأويل لم تجد فى الدين ما يمنعها من ذلك ، والعمدة على اطمئنان القلب وركون النفس إلى ما أبصرت من الحق .

وقوله تعالى « فسجدوا إلا إبليس » أى سجد الملائكة جميعاً إلا إبليس ، وللعلماء فى إبليس رأيان : أحدهما أنه كان جنيا واحداً بين أظهر الألوف من الملائكة مغموراً بهم متصفاً بصفاتهم ، ودليل ذلك قوله تعالى : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه » ، ولأن الملائكة لا يستكبرون وهو قد استكبر ، وهو قد خلق مما خلق منه الجن كما يدل عليه قوله تعالى حكاية عنه « أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » .

وثانيهما أنه كان من الملائكة ، لأن خطاب السجود كان مع الملائكة ولأن الظاهر من هذه الآية وأمثالها أنه منهم ، قاله البغوى وهو الأصح ، وقال فى التيسير : إن وصف الملائكة بأنهم لا يعصون الله ما أمرهم دليل على تصور العصيان منهم ، ولولا ذلك ما مدحوا به ، لكن طاعتهم طبع وعصيانهم تكلف ، وطاعة البشر تكلف ومتابعة الهوى منهم طبع ، ولا يستنكر من الملائكة تصور العصيان فقد ذكر عن هاروت وماروت ماذكر ،

وليس هناك دليل على أن بين الملائكة والجن فروقا جوهرية بها يمتاز أحدهما من الآخر ، بل هى فروق فى الأوصاف فقط ، والجميع من عالم الغيب ، لا نعلم حقائقها ولا نضيف إليها شيئا إلا إذا ورد به نص عن المعصوم .

والسجود فى الأصل تذلل مع تطامن ، وفى الشرع وضع الجبهة على قصد العبادة . . والمأمور به : إما المعنى الشرعى فالمسجود له بالحقيقة هو الله تعالى وجعل آدم قبلة سجودهم تفخيما لشأنه أو سببا لوجوبه كما جعلت الكعبة قبلة للصلاة والصلاة لله . فمعنى اسجدوا له أى إليه وكأنه تعالى لما خلقه بحيث يكون أنموذجا أى مثالا للمبتدعات كلها بل الموجودات بأسرها وبجمعا لما فى العالم الروحانى والجسمانى وذريعة للملائكة من استيفاء ما قدر لهم من الكمالات ووصلة إلى ظهور ما تباينوا فيه من المراتب والدرجات ، أمرهم بالسجود تذللا لما رأوا فيه من عظيم قدرته وباهر آياته وشكراً لما أنعم عليهم بواسطته . . وإما المعنى اللغوى وهو التواضع لآدم تحية وتعظيما له كسجود إخوة يوسف له فى قوله تعالى « وخروا له سجدا » ، ولم يكن فيه وضع الجبهة على الأرض إنما كان : بالانحناء ، فلما جاء الإسلام بطل ذلك بالسلام والكلام فى أن المأمور بالسجود الملائكة كلهم أو طائفة منهم مثل ما مر ، ومعنى « فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر » أى امتنع عما أمر به استكبارا من أن يتخذه وصلة فى عبادة ربه أو يعظمه ويتلقاه بالتحية أو يخدمه ويسعى فيما فيه خيره وصلاحه ، وقال: أنا خير ، والإباء: الامتناع والتكبر أن يرى الرجل نفسه أكبر من غيره والاستكبار طلب ذلك وهو التزين بأكبر مما عنده ، يتمكبر ويتزين بالباطل « وكان من الكافرين » أى فى علم الله أو صار منهم باستقباحه أمر الله تعالى إياه بالسجود لآدم اعتقادا بأنه أفضل منه ، والأفضل لا يحسن أن يؤمر بالتواضع للمفضول والتوسل به كما أشعر به قوله تعالى « أنا خير منه » جوابا لقوله تعالى « ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى؟ استكبرت أم كنت من العالين » ، لا بترك الواجب وهو السجود وحده . . والآية تدل على أن آدم أفضل من الملائكة المأمورين بالسجود له ، وأن إبليس كان من الملائكة وإلا لم يتناوله أمرهم ولم يصح استثناؤه منهم ولا يرد

على ذلك قوله تعالى « إلا إبليس كان من الجن » لجواز أن يقال: كان من الجن فعلا ومن الملائكة نوعاً.. فان قيل له ذرية والملائكة لاذرية لهم، فالجواب أن ابن عباس روى أن من الملائكة نوعاً يتوالدون يقال لهم الجن ومنهم إبليس ، وقيل : إن الله تعالى لما أخرجه من الملائكة جعل له ذرية وأن من الملائكة من ليس بمعصوم وإن كان الغالب فيهم العصمة كما أن من الإنس معصومين وهم الأنبياء ، والغالب فى الإنس عدم العصمة ، ولمن زعم أنه لم يكن من الملائكة أن يقول : إنه كان جنا نشأ بين أظهر الملائكة وكان مغمورا بالألوف منهم فغلبوا عليه لقوله تعالى « إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه » ؛ وهو أصل الجن كما أن آدم أصل الإنس ، ولأنه خلق من النار والملائكة خلقوا من النور، وقال سعيد بن جبير : معنى « كان من الجن » أى من الذين يعملون فى الجنة ، وقيل أيضاً : كانوا مأمورين مع الملائكة لكن استغنى بذكر الملائكة عن ذكرهم .

والآيتان السادسة والسابعة ، وهى « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة » ، و « فأزلهما الشيطان عنها » فيهما ذكر لقصة آدم بعد استخلاص الله إياه ، ومعصيته لله عز وجل ، وأن الله تعالى أسكنه هو وزوجه الجنة يأكلان منها رغدا ، فعصيا الله ، وأطاعا الشيطان ، فأخرجهما مما كانا فيه ، وهبطا إلى الأرض يسعيان فى مناكبها ، ومعنى الآيتين أن آدم وزوجه قد كفاهما الله أمر السعى للدنيا وأسكنهما الجنة يأكلان منها رغدا ، ثم جاءت معصيتهما لله تمهيداً لخروجهما من الجنة ، وحملهما أعباء مسئوليات الحياة ، وسعيهما فى الأرض من أجل المعاش .

ومعنى الآية الأولى من الآيتين : أن اتخذ يا آدم الجنة مسكناً لك ولزوجك وقد اختلفت آراء العلماء فى الجنة المرادة هنا ، فمن قائل : إنها دار الثواب التى أعدها الله للمؤمنين يوم القيامة ، لسبق ذكرها فى هذه السورة ، وفى ظواهر السنة ما يدل عليه ، فهى إذا فى السماء حيث شاء الله منها ، ومن قائل : إنها جنة أخرى خلقها الله تعالى امتحاناً لآدم عليه السلام ، وكانت بستاناً فى

الأرض بين فارس وكرمان ، وقيل بفلسطين ، وليست هى الجنة المعروفة ، وعلى هذا جرى أبو حنيفة وتبعه أبو منصور الماتريدى فى تفسيره المسمى بالتأويلات ، قال : نحن نعتقد أن هذه الجنة بستان من البساتين ، أو غيضة من الغياض كان آدم وزوجه منعمين فيها ، وليس علينا تعيينها ولا البحث عن مكانها ، وهذا هو مذهب السلف ، ولا دليل لمن خاض فى تعيين مكانها من أهل السنة وغيرهم ، ويقول الألوسى فى روح المعانى : إنما يؤيد هذا الرأى أن الله خلق آدم فى الأرض ليكون خليفة فيها هو وذريته ، فالخلافة منهم مقصودة بالذات ، فلا يصح أن يكون وجودهم فيها عقوبة عارضة . وأنه تعالى لم يذكر أنه بعد خلق آدم فى الأرض عرج به إلى السماء ، ولو حصل لذكر لأنه أمر عظيم ، وأن الجنة الموعود بها لا يدخلها إلا المتقون المؤمنون ، فكيف يدخلها الشيطان الكافر للوسوسة . وأنها دار للنعيم والراحة ، لا دار للتكليف ، وقد كلف آدم وزوجه ألا يأكلا من الشجرة ، وأنه لا يمنع من فيها من التمتع بما يريد منها . وأنه لا يقع فيها العصيان والمخالفة لأنها دار طهر ، لا دار رجس .

« وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة » : أى اتخذ الجنة مسكناً لتستقر فيه لأنها استقرار ولبث « وكلا منها » أكلا « رغدا » أى واسعاً لذيذا لا حجر فيه « حيث » أى أى مكان من الجنة « شئتما » « ولا تقربا هذه الشجرة » بالأكل منها ، قيل : هى العنب أو التين « فتكونا » أى فتصيرا « من الظالمين » أى العاصين ، وتعليق النهى بالقرب الذى هو من مقدمات التناول مبالغة فى تحريمه ووجوب الاجتناب عنه ، وتنبيه على أن القرب من الشىء يورث ميلا يأخذ بمجامع القلب ويلهيه عما هو مقتضى العقل والشرع كما روى أبو داود (حبك الشىء يعمى ويصم) أى يخفى عليك معايبه ويصم أذنيك عن سماع مساوئه ، وقد جعل قربانهما إلى الشجرة سبباً لأن يكونا من الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب المعاصى .

والشجرة التى نهى آدم وزوجه عن الأكل منها اختلف فيها : هل هى

شجرة التفاح أو الحنطة أوسواها ، ويرى عبد الحميد الخطيب فى تفسيره أن الشجرة كناية عن حواء ، والنهى عن القرب من الشجرة نهى عن الاستمتاع بها ، والاتصال الجنسى معها ، الذى هو سبب دوام النسل وعمارة العالم .

وقوله تعالى « فأزلهما الشيطان » أى إبليس سمى به لبعده عن الخير وعن الرحمة ، ومعنى « عنها » أى الجنة وإزلاله قوله « هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى » ، وقوله « مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين » ومقاسمته إياهما بقوله إنى لكما لمن الناصحين .. واختلف فى أنه تمثيل لهما فقال لهما بذلك أو ألقاه إليهما على طريقة الوسوسة ، وكيف توصل إلى إزلالهما بعد ماقيل له اخرج منها فإنك رجيم ؟ فقيل إنه منع من الدخول بعد خروجه الأول على جهة التكرمة كما كان يدخل مع الملائكة ولم يمتنع أن يدخل لوسوسة ابتلاء لآدم وحواء ، فلما دخل وقف بين يدى آدم وحواء وهما لا يعلمان أنه إبليس فبكى فقالا له : ما يبكيك فقال أبكى عليكما ، تموتان فتفارقان ما أنتما عليه من النعمة ، وكان آدم لما رأى مافى الجنة من النعيم قال : لو كان خالداً ، فاغتنم الشيطان ذلك منه فأتاه الشيطان من قبل الخلد فوقع قوله فى أنفسهما واغتما ومضى إبليس ثم أتاهما بعد ذلك وقال : يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد ، فأبى أن يقبل منه فقاسمهما بالله إنه لهما لمن الناصحين ، فاغترا وماظنا أن أحداً يحلف بالله كاذبا ، فبادرت حواء إلى أكل الشجرة ثم ناولت حواء آدم حتى أكلها ، وكان سعيد بن المسيب يحلف بالله ما أكل آدم من الشجرة وهو يعقل ولكن حواء زينت ذلك له .. « فأخرجهما مما كانا فيه » من الكرامة والنعيم ، قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : قال الله تعالى لآدم أليس فيما أبحتك من الجنة مندوحة عن الشجرة ، قال : بلى يارب وعزتك ولكن ماظننت أن أحداً يحلف بك كاذباً ، قال : فبعزتى لأهبطنك إلى الأرض ثم لا تنال العيش إلا كدا ، فاهبط من الجنة وكانا يأكلان فيها رغدا ، فعلم من صنعة الحديد وأمر بالحرث ، فحرث وزرع ثم سقى حتى إذا بلغ حصد ثم ذراه ثم طحنه ثم عجنه ثم خبزه ثم أكله فلم يبلغه حتى بلغ منه ماشاء الله ، قال إبراهيم

ابن أدهم : أورثتنا تلك الأكلة حزناً طويلا ، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : إن آدم لما أكل من الشجرة التى نهى عنها قال الله عز وجل : يا آدم ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : يارب زينته لى حواء . قال فإنى أعاقبها بأن لا تحمل إلا كرهاً ولا تضع إلا كرهاً . فلما أكلا منها سقطت عنهما ثيابهما وبدت سوآتهما وأخرجا من الجنة ، ولذلك قوله تعالى « وقلنا اهبطوا » وهو خطاب لآدم وحواء لقوله تعالى قال : اهبطا منها جميعاً » وقوله « بعضكم لبعض عدو » الخطاب فيه لذرية آدم وحواء فقط ، فالمراد ببعضكم بعض الذرية أى بعض ذريتكم لبعض عدو من ظلم بعضهم بعضاً « ولكم فى الأرض مستقر » أى موضع قرار « ومتاع » أى ما تتمتعون به من نباتها « إلى حين » أى وقت انقضاء آجالكم .. « فتلقى آدم من ربه كلمات » أى استقبلها بالأخذ والقبول والعمل بها حين علمها ، وهى : ربنا ظلمنا أنفسنا الآية . وقيل : سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله إلا أنت ظلمت نفسى فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : قال آدم يا رب ألم تخلقنى بيدك ؟ قال بلى ، قال : يارب ألم تنفخ فى الروح من روحك ؟ قال بلى ، قال ألم تسكنى جنتك ؟ قال بلى ، قال يارب إن تبت وأصلحت أراجعى أنت إلى الجنة ؟ قال نعم . رواه الحاكم وصححه .. « فتاب عليه » أى قبل توبته وإنما رتب « تاب عليه » على تلقى الكلمات لتضمن تلقى الكلمات معنى التوبة وهو الاعتراف بالذنب والندم عليه والعزم على أن لا يعود إليه ورد المظالم إن كانت ، واكتفى بذكر آدم لأن حواء كانت تبعاً له فى الحكم ولذلك طوى ذكر النساء فى أكثر القرآن والسنن .. « إنه هو التواب » الرجاع على عباده بالمغفرة أو الذى يكثر إعانتهم على التوبة ، وإذ وصف بها البارى أريد بها الرجوع عن العقوبة إلى المغفرة . . « الرحيم » البالغ فى الرحمة وفى الجمع بين التوبة والرحمة وعد للتائب بالإحسان مع العفو .

وفى الحديث الشريف عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهس منها نهسة ثم قال

أنا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرون مم ذلك؟ يجمع الله الأولين والآخرين
فى صعيد واحد يسمعهم الداعى وينفذهم البصر وتدنو الشمس فيبلغ الناس من
الغم والكرب مالا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس: ألا ترون ماقد بلغكم
ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم
فيأتون آدم عليه السلام فيقولون له: أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ
فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى
ما نحن فيه ألا ترى ماقد بلغنا؟فيقول آدم: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم
يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإنه قد نهانى عن الشجرة فعصيته، نفسى
نفسى نفسى اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى نوح؛ فيأتون نوحاً فيقولون يا نوح
إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وقد سماك الله عبداً شكوراً؛ اشفع لنا
إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟فيقول: إن ربى عز وجل قد غضب اليوم
غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإنه قد كانت لى دعوة دعوتها
على قومى، نفسى نفسى نفسى اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم
فيقولون: يا إبراهيم أنت نبى الله وخليله من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك
ألا ترى إلى مانحن فيه فيقول لهم: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله
مثله ولن يغضب بعده مثله وإنى قد كنت كذبت ثلاث كذبات، نفسى نفسى
نفسى اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى موسى، فيأتون موسى فيقولون: ياموسى
أنت رسول الله فضلك الله برسالته وبكلامه على الناس اشفع لنا إلى ربك
ألا ترى إلى ما نحن فيه؟فيقول: إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله
مثله ولن يغضب بعده مثله وإنى قد قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها نفسى نفسى
نفسى اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى عيسى، فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت
رسول الله وكلمة ألقاها إلى مريم وروح منه وكلمت الناس فى المهد صبياً
اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى مانحن فيه؟فيقول عيسى: إن ربى قد غضب
اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله قط ولن يغضب بعده مثله ولم يذكر ذنباً نفسى
نفسى نفسى اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم، فيأتون محمداً

صلى الله عليه وسلم فيقولون : يامحمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه ، فأنطلق فآتى تحت العرش فأقع ساجداً لربى عزوجل ثم يفتح الله على من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلى ثم يقال : يامحمد ارفع رأسك سل تعط واشفع تشفع فأرفع رأسى فأقول : أمتى يارب أمتى يارب أمتى يارب . فيقال يامحمد أدخل من أمتك من لاحساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ثم قال : والذى نفسى بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحمير أو كما بين مكة وبصرى .

والآية « قلنا اهبطوا منها » أى من الجنة « جميعاً » كرر للتأكيد أو لاختلاف المقصود ، فإن الأول دل على هبوطهم إلى هذه الدار الدنيا التى يتعادون فيها ولا يخلدون ، والثانى أشعر بأنهم اهبطوا للتكليف فمن اهتدى لهذا نجا ، ومن ضل هلك ، « فإما يأتينكم » ياذرية آدم « منى هدى » ، أى رشد وبيان شريعة ، وقيل كتاب ورسول .. « فمن اتبع هداى » بأن آمن بى وعمل بطاعتى ، وكرر لفظ « الهدى » ولم يضمر إما لإظهار شأنه وفخامته خصوصاً مع إضافته اليه ، أو لأنه أراد بالثانى أعم من الأول وهو ما أتى به الرسل واقتضاه العقل ، « فلاخوف عليهم » فضلا من أن يحل بهم مكروه « ولا هم يحزنون » بفوات محبوب عنهم ، ومنه النظر فى وجهه تعالى ، فإنه المقصود الأعظم ، فالخوف على الواقع نفى عنهم العقاب فأثبت لهم الثواب على آكد وجه وأبلغه ، وقيل: لاخوف عليهم فى الدنيا ولاهم يحزنون فى الآخرة .

« والذين كفروا » أى جحدوا «وكذبوا بآياتنا» أى كتبنا، « أولئك أصحاب النار » يوم القيامة ، « هم فيها خالدون » ماكثون فيها أبدا لا يخرجون منها ولا يموتون فيها ، والآية فى الأصل هى العلامة الظاهرة ، ويقال للمصنوعات من حيث إنها تدل على الصانع وقدرته وعلمه ، ولكل طائفة من كلمات القرآن المتميزة عن غيرها ؛ وفى هذه الآيات دلالة على أن الجنة مخلوقة وأنها فى جهة عالية وأن التوبة مقبولة وأن متبع الهدى مأمون العاقبة ، وأن عذاب النار دائم،

وأن الكافر مخلد فيه ، وأن غيره لا يخلد فيه ولم يكن آدم وقت معصيته نبيا ، وقيل إن النهى للتنزيه وإنما سمى ظالما وخاسراً لأنه ظلم نفسه وخسر حظه بترك الأولى ، وإنما أجرى الله عليه ماجرى معاتبة على ترك الأولى ووفاء بما قال تعالى للملائكة قبل خلق آدم : « إنى جاعل فى الأرض خليفة » ، ولا يكون خليفة فى الأرض إلا بالإهباط إليها وأمر بالتوبة تلافيا لما فاته ، وقيل بل فعل آدم ذلك ناسيا لقوله تعالى « فنسى ولم نجد له عزما » ولكنه عوتب بترك التحفظ عن أسباب النسيان إذ رفع الإثم بالنسيان من خصائص هذه الأمة كما ثبت فى الأخبار الصحيحة كخبر الشيخين « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان » ، وروى الترمذى وصححه أشد الناس بلاء الأنبياء الأمثل فالأمثل ، ورواه الحاكم : أشد الناس بلاء الأنبياء ثم العلماء ثم الصالحون ، وقيل إنه عليه الصلاة والسلام أقدم عليه بسبب اجتهاده وأخطأ فيه فإنه ظن أن النهى للتنزيه أو الإشارة إلى عين تلك الشجرة فتناول من غيرها من نوعها ، وكان المراد بالإشارة الإشارة إلى النوع لا إلى شجرة معينة كما روى أبو داود وغيره أنه صلى الله عليه وسلم أخذ حريراً وذهباً بيده وقال هذان حرام على ذكور أمتى حل لإناثها ، فإن قيل: المجتهد إن أخطأ لا يؤاخذ ، فالجواب بأنه إنما عوتب على ذلك تعظيما لشأن الخطيئة ليجتنبها أولاده وفى هذا المقام يقول الإمام محمد عبده إن إخبار الله تعالى الملائكة بجعل الإنسان خليفة فى الأرض هو عبارة عن تهيئة الأرض وقوى هذا العالم وأرواحه التى بها قوامه ونظامه لوجود نوع من المخلوقات يتصرف فيها ويكون به كمال الوجود فى هذه الأرض ، وسؤال الملائكة عن جعل خليفة يفسد فى الأرض لأنه يعمل باختياره ويعطى استعداداً فى العلم والعمل لا حد لهما ، تصوير لما فى استعداد الإنسان لذلك ، وتمهيد لبيان أنه لا ينافى خلافته فى الأرض ، وتعليم آدم الأسماء كلها بيان لاستعداد الإنسان لعلم كل شىء فى الأرض وانتفاعه به فى استعمارها ، وعرض الأسماء على الملائكة وسؤالهم عنها وتنصلهم فى الجواب ، تصوير لكون الشعور الذى يصاحب كل روح من الأرواح المدبرة للعوالم محدوداً لا يتعدى وظيفته ، وسجود الملائكة لآدم عبارة عن تسخير هذه الأرواح والقوى له ينتفع بها فى

ترقية الكون بمعرفة سنن الله تعالى فى ذلك ، وإباء إبليس واستكباره عن السجود تمثيل لعجز الإنسان عن إخضاع روح الشر وإبطال داعية خواطر السوء التى هى مثار التنازع والتخاصم والتعدى والإفساد فى الأرض ، ولولا ذلك لجاء على الإنسان زمن يكون أفراده فيه كالملائكة بل أعظم أو يخرجون عن كونهم من هذا النوع البشرى ، ويراد بالجنة الراحة والنعيم . فإن من شأن الإنسان أن يجد فى الجنة التى هى الحديقة ما يلذ له من مأكول ومشروب ومشموم ومسموع فى ظل ظليل وهواء عليل وماء سلسبيل ، ويراد بآدم نوع الإنسان كما يطلق اسم أبى القبيلة الأكبر على القبيلة فيقال كلب فعلت كذا ويراد قبيلة كلب . ويراد بالشجرة معنى الشر والمخالفة كما عبر الله تعالى فى مقام التمثيل عن الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة ، وفسرت بكلمة التوحيد ، وعن الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة وفسرت بكلمة الكفر ، والمعنى على هذا ـ أن الله تعالى كون النوع البشرى فى أطوار ثلاثة :

طور الطفولة وهو طور لا هم فيه ولا كدر ، بل هو لهو ولعب كأنه فى جنة ملتفة الأشجار يانعة الثمار .

وطور التمييز الناقص ، وفيه يكون الإنسان عرضه لاتباع الهوى بوسوسة الشيطان .

وطور الرشد وهو الذى يعتبر فيه المرء بنتائج الحوادث ، ويلتجىء فيه حين الشدة إلى القوة الغيبية العليا التى منها كل شىء وإليها يرجع الأمر كله .

والإنسان فى أفراده مثال للإنسان فى مجموعه ، فقد كان الإنسان فى ابتداء حياته الاجتماعية ابتداء ساذجاسليم الفطرة مقتصراً فى طلب حاجاته على القصد والعدل متعاونا على دفع ماعساه يصيبه من مزعجات الكون ، وهذا هو العصر الذى يذكره جميع طوائف البشر ويسمونه بالعصر الذهبى .

ولكن لم يكفه هذا النعيم العظيم ، فمد بعض أفراده أيديهم إلى تناول ماليس لهم طاعة للشهوة وميلا مع خيال اللذة ، وتنبه من ذلك ما كان نائماً فى

نفوس سائرهم ، فثار النزاع وعظم الخلاف ، وهذا هو الطور الثانى المعروف فى تاريخ الأمم .

ثم جاء الطور الثالث وهو طور العقل والتدبر ووزن الخير والشر بميزان النظر والفكر ، وتحديد حدود للأعمال تنتهى إليها نزعات الشهوات ويقف عندها سير الرغبات ، وهو طور التوبة إن شاء الله .

وبقى طور آخر أعلى من هذه الأطوار ، وهو منتهى الكمال ، وهو طور الدين الإلهى والوحى السماوى الذى به كمال الهداية الإنسانية .

٤٠ — يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ الَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَارْهَبُونِ

٤١ — وَءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُوا بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَاتَّقُونِ

٤٢ — وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ

٤٣ — وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّٰكِعِينَ

٤٤ — أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ

٤٥ — وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَٰشِعِينَ

٤٦ — الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ

فى هذه الآيات السبع دعوة إلهية جليلة لليهود من بنى إسرائيل إلى الإيمان بمحمد ورسالته ، وبالقرآن ودعوته ، وبالإسلام وشريعته ، وهى ذات دلالة واضحة على أن رسالة محمد قد أمرت اليهود ومن فى حكمهم من أهل الكتاب بالايمان بها ، وأنها رسالة الانسانية عامة ، وخاتمة الرسالات كافة .

وقد بدأ الله عز وجل بدعوة اليهود إلى الإسلام لأنهم أقدم الشعوب الحاملة للكتب السماوية ، ولصلتهم القوية بالعرب ، فهم من أحفاد إبراهيم ، وكذلك شأن العرب ، فاليهود بنو إسرائيل ينسبون إلى إسرائيل ، وهو لقب يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم . ومعناه صفى الله ، وبنوه ذريته وهم الأسباط الإثنا عشر ، والعرب هم من عدنان من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام .

ولليهود مع ذلك كله صلات واسعة بالعرب والجزيرة العربية ، ولهم فيها قبل الإسلام وبعده قرى وحصون ، وهم ظاهرون فى المدينة مستقر الإسلام ومهاجر نبى الاسلام ، والعاصمة الروحية الثانية بعد مكة .

ومع كل هذا وذلك فلم يكن ، بل ليس هناك ، أشد حقداً على الاسلام ، وموجدة على المسلمين من اليهود ، طوال عصور التاريخ منذ ظهور الاسلام حتى اليوم ، وقد غدر اليهود برسولنا الأعظم مرات ومرات ، وغدروا بخلفاء الاسلام ، وكادوا للمسلمين ، وما يزالون يكيدون لهم حتى اليوم ، ولما قامت لهم دولة فى إسرائيل بمساعدة الاستعمار ، ومساندة المستعمرين منذ أعوام ، لقى العرب والمسلمون منهم عنتا شديدا ، وهام سكان فلسطين على وجوههم فى كل مكان ، وعاشوا لاجئين على تخوم هذه الدولة التى حان انهيارها ، فلم يؤمنوا مسلما على دينه ، أو عربيا على حياته ، ولا شك فى سوء نيتهم وفساد قلوبهم نحو المسلمين عامة ومصر والعرب خاصة ، هذا كله مع الصلات التاريخية الأولى التى كانت تستوجب التفاهم ، وتستدعى الألفة ، ولكن هيهات هيهات .

وفى هذه الآيات السبعة يذكرهم الله عز وجل بنعمه العديدة ، ومنها نعمة النبوة وإنزال كتاب سماوى هو التوراة على رسول منهم هو موسى عليه السلام ، ونعمة النبوة هذه التى فضلهم الله من أجلها زمانا طويلا حتى كانوا يسمون شعب الله المختار ، ولكنهم نسوا وأنساهم الشيطان ، وخسروا الدنيا والآخرة وضلوا ضلالا بعيدا ، ويدعوهم الله عز وجل إلى الوفاء

بعهده ، وفى مقدمته الإيمان بمحمد الذى دعاهم إليه فى كتابهم المقدس التوراة، كما يدعوهم إلى الخوف من عذاب الله ؛ وإلى الايمان بالقرآن ورسالة الإسلام، فالقرآن إنما نزل مصدقا لما مع بنى إسرائيل من الكتاب المقدس (التوراة) ويحذرهم من الكفر به ، وهنا معجزة ظاهرة فالقرآن الكريم يخاطب اليهود ويقول لهم : لاتكونوا أول الكافرين بالقرآن ؛ لأنهم أقرب الناس رحما بالاسلام وبالعرب ، ومع هذا النهى الشديد ، فقد كفر اليهود بدعوة محمد ، بل كانوا أول الكافرين بها وبه ، ووقع ماأخبر به القرآن الكريم الصادق من تسابقهم فى الكفر وأوليتهم فيه .

وينهاهم الله عز وجل عن أن يشتروا بآيات الله وكتابه ورضائه ثمنا قليلا من متاع الحياة الدنيا وزخرفها ، ويدعوهم إلى تقوى الله ، ومن تقواه الايمان بالقرآن وبنبي الاسلام ، محمد عليه الصلاة والسلام .

ويحذرهم من أن يلبسوا الحق بالباطل ، ويكتموا الحق المنزل على موسى من السماء ، ثم يدعوهم إلى شريعة الاسلام ويعرض عليهم العمل بالتكاليف التى كلف بها المسلمون عامة ، وفى مقدمتها الصلاة والزكاة ، ثم يحذرهم من أن يلبسوا مسوح الزهاد والمؤمنين وهم أول الكافرين ، ويكرر عليهم الدعوة للدخول فى الاسلام والتمسك بأهداب الصبر والصلاة ، وهما من أهم مايدعوا إليه الاسلام وكتابه الحكيم .

ولكنهم عموا وأصموا عن هذه الدعوة الرفيعة السماوية ، وأعلنوا الحرب على محمد ورسالته ، وبئس ماصنعوا وما كانوا يصنعون .

يقول الله عز وجل : « يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم » هذا هو صدر الآية الأولى من تلك الآيات السبع ، وهنا يدعوا الله عز وجل بنى إسرائيل إلى شكره على نعمه التى أنعم بها عليهم وعلى نبيهم موسى عليه السلام ، وإلى تذكر إحسان الله لهم طول عصور تاريخهم القديم ، والذكر يكون بالقلب ويكون باللسان ، والنعمة هنا عامة تشمل كل نعمة ،أو خاصة بما أنعم الله به على آبائهم من فلق البحر ومن إنجائهم من فرعون بإغراقه ومن تظليل

الغمام عليهم فى التيه و إنزال المن والسلوى وغير ذلك من النعم التى لاتحصى ، قال الله تعالى و إن تعدوا نعمة الله لاتحصوها . « وأوفوا بعهدى » أى بامتثال أمرى ، ومنه ماعهدته إليكم من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم « أوف بعهدكم » أى الذى عهدته إليكم من الثواب عليه بدخول الجنة ، هذا وللوفاء بالعهد درجات كثيرة فأول مراتبه منا هو الاتيان بكلمتى الشهادتين وآخرها منازل الاستغراق فى التوحيد ، وأما ماروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما من أن « أوفوا بعهدى » أى فى اتباع محمد « أوف بعهدكم » فى رفع الأثقال والأغلال عنكم وعن غير ابن عباس «أوفوا» بأداء الفرائض وترك الكبائر « أوف » بالمغفرة والثواب ، وأوفوا بالاستقامة على الطريق المستقيم أو بالكرامة والنعيم المقيم ، فبالنظر إلى الوسائط « وإياى فارهبون» فيما تأتون وتذرون ، وخصوصا فى نقض العهد . والرهبة خوف مع تحذير والآية متضمنة للوعد والوعيد دالة على وجوب الشكر والوفاء بالعهد وأن المؤمن ينبغى أن لايخاف أحداً إلا الله « وآمنوا بما أنزلت » من القرآن « مصدقا » حال مؤكدة بما أنزلت . « لما معكم »أى من التوراة بموافقته له ولغيره من الكتب الإلهية فى القصص ونعت النبى صلى الله عليه وسلم والمواعيد والدعاء إلى التوحيد والأمر بالعبادة والعدل بين الناس والنهى عن المعاصى والفواحش ، وفيما يخالفها من جزيئات الأحكام بسبب تفاوت العصور فى المصالح من حيث إن كل واحد منها حق بالإضافة مراعى فيها صلاح من خوطب بها حتى لو نزل المتقدم فى أيام المتأخر لنزل على وفقه ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام كما رواه الامام أحمد وغيره : « لو كان موسى حيا لما وسعه إلا اتباعى » ، وفى ذلك تنبيه على أن اتباع تلك الكتب الالهية لاينافى الايمان بالقرآن بل يوجبه ، ولذلك عرض بقوله : « ولا تكونوا أول كافر به » أى بالقرآن بل يجب أن تكونوا أول مؤمن به ، لأنكم أهل نظر فى معجزاته والعلم بشأنه ، فان قيل : كيف نهوا عن التقدم فى الكفر وقد سبقهم مشركو العرب ؟ فالجواب : بأن المراد : ولا تكونوا أول

كافر من أهل الكتاب لأن خلفكم تبع لكم فإثمهم عليكم أو من كفر بما معه، فإن من كفر بالقرآن فقد كفر بما يصدقه، أو مثل من كفر من مشركي مكة: «ولا تشتروا» أي لا تستبدلوا «بآياتي» أي التي في كتابكم من نعت محمد صلى الله عليه وسلم «ثمناً قليلا» أي عوضاً يسيراً من الدنيا أي لا تكتموها خوف فوات ما تأخذونه من العامة والدهماء، وذلك أن رؤساء اليهود وعلماءهم كانت لهم أموال يصيبونها من سفلتهم وجهالهم يأخذون منهم كل سنة شيئاً معلوما من زروعهم وفروعهم ونقودهم، فخافوا أن يبينوا صفة النبي صلى الله عليه وسلم فتفوتهم تلك الأرباح الطائلة، فاختاروا الدنيا على الآخرة فنهوا عن ذلك فإن حظوظ الدنيا وإن جلت قليلة مسترذلة بالإضافة إلى ما يفوت من حظوظ الآخرة .. «وإياي فاتقون» خافوني في ذلك دون غيري، «ولا تلبسوا» أي تخلطوا «الحق» الذي أنزلت عليكم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم «بالباطل» الذي تخترعونه وتكتبونه بأيديكم من نفيه صفته «ولا تكتموا الحق» أي لا تكتموا نعت النبي صلى الله عليه وسلم «وأنتم تعلمون» أي أنكم لابسون الحق بالباطل كاتمون فإنه أقبح إذ الجاهل يعذر .. «وأقيموا الصلاة» أي الصلوات الخمس بمواقيتها وحدودها «وآتوا الزكاة» أي أدوا زكاة أموالكم المفروضة؛ أمرهم بفروع الإسلام بعد ما أمرهم بأصوله، وقيل: إن هذا دليل على أن الكفار مخاطبون بها، والزكاة مأخوذة من زكا الزرع إذا نما وكثر أو من الزكاة بمعنى الطهارة؛ وكلا المعنيين موجود في الزكاة، فإن إخراج الزكاة يستجلب بركة في المال ويثمر للنفس فضيلة الكرم ويطهر المال من الخبث والنفس من البخل.. «واركعوا مع الراكعين» أي صلوا مع المصلين محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه في جماعتهم فإن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ - أي الفرد - بسبع وعشرين لما فيها من تفاوت النفوس . وعبر عن الصلاة بالركوع احترازاً عن صلاة اليهود لأن صلاتهم لم يكن فيها ركوع، أي صلوا مع الذين في صلاتهم ركوع، وقيل: الركوع الخضوع والانقياد لما يلزمهم به الشارع .

وفى التوراة التحذير من أنبياء كذبة يبعثون فيهم وتكون لهم عجائب وأفاعيل تدهش الألباب . وفيها أن الله يبعث فيهم نبيا من ولد إسماعيل يقيم به أمة ، وأنه يكون من ولد السيدة (هاجر) وبين علامات واضحة له لالبس فيها ولا اشتباه . وقد أخذ الأحبار والرهبان يلبسون على العامة الحق بالباطل ، ويوهمونهم أن النبى صلى الله عليه وسلم من أولئك الأنبياء الذين وصفوا فى التوراة ، ويكتمون ما يعرفونه من أوصاف لا تنطبق إلا عليه ، وما يعرفونه من نعوت الأنبياء الصادقين وسبيل دعوتهم إلى الله ، إلى أنهم كانوا يصدونهم عن السبيل القويم وعن الإيمان بالنبى صلى الله عليه وسلم بزيادات يستحدثونها ، وتقاليد يبتدعونها بضروب من التأويل والاستنباط من كلام بعض سلفهم وأفعالهم ، ويحكمونها فى الدين ويحتجون بأن الأقدمين كانوا أعلم بكلام الأنبياء وأشد اتباعا لهم ، فعلى من بعدهم أن يأخذ بكلامهم دون كلام الأنبياء الذى يصعب علينا فهمه بزعمهم . لكن هذه المعذرة لم يتقبلها الله منهم ، ونسب اليهم اللبس والكتمان للحق الذى فى التوراة إلى يومنا هذا ، كما لم يتقبل ممن بعدهم من العلماء فى أى شريعة ودين أن يتركوا كتابه ويتبعوا كلام العلماء بتلك الحجة عينها ، فكل مايعلم من كتاب الله يجب علينا أن نعمل به ، ومالا يعلم يسأل عنه أهل الذكر ، ومتى فهمناه وعلمناه عملنا به .

فهى تتناول من فعل فعلهم ، فمن أخذ رشوة على تغيير حق وإبطاله ، أو امتنع من تعليم ما وجب عليه ، أو أداء ما علمه وقد تعين عليه أداؤه حتى يأخذ عليه أجراً ، فقد دخل فى حكم الآية .

ولما دعا الله عز وجل بنى إسرائيل إلى الإيمان ، أمرهم بصالح العمل على الوجه المقبول عند الله ، فطلب اليهم إقامة الصلاة لتطهر نفوسهم ، كما طلب إليهم إيتاء الزكاة التى هى مظهر شكر الله على نعمه ، والصلة العظيمة بين الناس ، لما فيها من بذل المال لمواساة عيال الله وهم الفقراء ، ولما بين الناس من تكافل عام فى هذه الحياة ، فالغنى فى حاجة إلى الفقير والفقير فى حاجة إلى الغنى ، كما ورد

فى الحديث : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » . وبعدئذ أمرهم بالركوع مع الراكعين ، أى أن يكونوا فى جماعة المسلمين ويصلوا صلاتهم ، وقد حث على صلاة الجماعة لما فيها من تظاهر النفوس عند مناجاة الله ، وإيجاد الألفة بين المؤمنين ، ولأنهم عند اجتماعهم يتشاورون فى دفع ماينزل بهم من البأساء أو يجلب لهم السراء ، ومن ثم جاء فى الخبر : صلاة الجماعة تفضل على صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة .

وهنا ينتهى الربع الثانى من سورة البقرة ، ليبدأ الربع الثالث ، وقد تضمن الربع الثانى الرد على اليهود فيما عابوا به القرآن الكريم من ضرب الأمثال بالتافه الحقير من الأشياء ، كالذباب والعنكبوت وما إلى ذلك كله ؛ ثم دعوة الخلق إلى الإيمان بالله وتذكيرهم بنعم الله عليهم فى الكون والحياة ، ثم قصة آدم وما فيها من عبر وعظات ، ثم طرفا من قصة بنى إسرائيل ، ودعوة الله عز وجل لهم إلى الإيمـان بمحمد ورسالته .

ويحتوى الربع الثالث على أطراف أخرى من قصة بنى إسرائيل ونعم الله عليهم ، ومقابلتهم هذه النعم بالكفر والجحود .

يقول الله عز وجل لليهود : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » ، نزلت هـذه الآية فى علماء اليهود ، كانوا يقولون لأقربائهم من المسلمين سرا : اثبتوا على الإسلام وعلى دين محمد عليه السلام ، فإنه حق . ولا يتبعونه ، فنزلت ، والمراد بالبر هنا الإيمان برسول الله ، وفى ذلك تقريع مع توبيخ وتعجيب ، والبر شرعاً التوسع فى الخير من البر بالفتح وهو الفضاء الواسع ، وهو يتناول كل خير ، ولذلك قيل : البر ثلاثة : بر فى عبادة الله ، وبر فى مقابلة الأقارب ، وبر فى معـاملة الأجانب ، ومعنى « وتنسون أنفسكم » أى تتركونهـا من البر كالمنسيات ، وقيل : كانوا يأمرون بالصدقة ولا يصدقون ، وقوله تعالى « وأنتم تتلون الكتاب » أى التوراة وفيها الوعيد على العناد وترك البر ومخالفة القول العمل « أفلا تعقلون » سوء فعالكم فيصدكم عنه ، أو فلا عقل لكم يمنعكم عما

تعملون من عدم موافقة عاقبته لكم ، والآية تنعى على من يعظ غيره ولا يتعظ بنفسه بسوء صنيعه وخبث نفسه ، وأن فعله فعل الجاهلية ، إذ هو الأحمق الخالى عن العقل فإن الجامع بين العلم والعقل يأبى كونه واعظا غير متعظ نفسه ، والمراد حث الواعظ على تزكية النفس والإقبال عليها بالتكميل لها ليقوم نفسه ثم يقوم غيره ، لا منع الفسق عن الوعظ فإن الإخلال بأحد الأمرين المأمور بهما لا يوجب الإخلال بالآخر ، ولكن روى عن أنس ابن مالك رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : رأيت ليلة أسرى بى رجالا تقرض شفاههم بمقاريض من نار ، فقلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الخطباء من أمتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب . وعن أسامة رضى الله تعالى عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فيجتمع عليه أهل النار فيقولون : أى فلان ماشأنك أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ قال : كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه .. «واستعينوا» أى اطلبوا المعونة على أموركم .. «بالصبر» للنفس على ما تكره .. «والصلاة» أفردها بالذكر تعظيما لشأنها فإنها جامعة لأنواع العبادات النفسية والبدنية : من الطهارة ، وستر العورة وصرف المال فيهما والتوجه إلى الكعبة والعكوف على العبادة وإظهار الخشوع بالجوارح وإخلاص النية بالقلب ومجاهدة الشيطان ومناجاة الرحمن وقراءة القرآن والتكلم بالشهادتين وكف النفس عن الأطيبين وهما الأكل والجماع . روى الإمام أحمد وغيره أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، أى لجأ إليها إذا أهمه أمر ، ونزل الخطاب لليهود فهو متصل بما قبله ، كأنهم لما أمروا بما يشق عليهم لما فيه من التكلفة وترك الرياسة والإعراض عن المال . أمروا بالصبر وهو الصوم ، ومنه سمى شهر رمضان شهر الصبر لأنه يكسر الشهوة ويزهد فى الدنيا ، وبالصلاة لأنها تورث الخشوع وتنفى الكبر وترغب فى الآخرة ، وقيل : الواو بمعنى على ، أى واستعينوا بالصبر على الصلاة كما قال تعالى : وأمر

أهلك بالصلاة واصطبر عليها، ويحتمل أن يراد بالصلاة الدعاء ؛ «وإنها» أى الصلاة ، ورجوع الضمير إليها لأن الصبر داخل فيها لاستجماعها ضروبا من الصبر ، كما قال تعالى : والله ورسوله أحق أن يرضوه ، ولم يقل يرضوهما ، لأن رضى الرسول داخل فى رضى الله عز وجل ، أو لأنها أعم كما فى قوله تعالى : والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله ؛ فالضمير راجع إلى الفضة لأنها أعم ، وقيل : الضمير راجع إلى كل منهما وإلى كل خصلة منهما ، كما قال تعالى «كلتا الجنتين آتت أكلها» أى كل واحدة منهما ، وقيل معناه : واستعينوا بالصبر وإنها لكبيرة والصلاة وإنها لكبيرة فحذف أحدهما اختصارا ، قال الحسين بن الفضل : مرجع الضمير إلى الاستعانة «لكبيرة» أى ثقيلة شاقة كقوله تعالى : كبر على المشركين ما تدعوهم إليه «إلا على الخاشعين» أى الساكنين إلى الطاعة والخشوع السكون ، قال تعالى : وخشعت الأصوات للرحمن ، والخضوع اللين والانقياد ، وكذا يقال الخشوع بالجوارح والخضوع بالقلب «الذين يظنون» أى يستيقنون ، وأطلق الظن على العلم لتضمنه معنى التوقع .. «أنهم ملاقوا ربهم» بالبعث «وأنهم إليه راجعون» فى الآخرة فيجازيهم بأعمالهم وإن لم تثقل عليهم ثقلها على غيرهم لأن نفوسهم مرتاضة بأمثالها متوقعة فى مقابلتها ما يستحقر لأجله مشاقها وتستلذ بسببه متاعبها ، ومن ثم قال عليه الصلاة والسلام : وجعلت قرة عينى فى الصلاة .

٤٧ — يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ التِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَٰلَمِينَ

٤٨ — وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ

٤٩ — وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ الْعَذَابِ

يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ

٥٠ — وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ

٥١ — وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَٰلِمُونَ

٥٢ — ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

٥٣ — وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ

٥٤ — وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ

٥٥ — وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ

٥٦ — ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

٥٧ — وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

٥٨ — وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ

٥٩ — فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ

ثلاث عشرة آية فى بنى إسرائيل أيضا ، بعد الآيات السبع الأولى التى وردت فى شأنهم .

وهذه الآيات الثلاث عشرة استئناف لحديث آخر مع اليهود ، ففى الآيات السبع السابقة دعاهم الله عز وجل إلى الإيمان بمحمد ورسالته ، وبين لهم حقيقة موقفهم من الدعوة المحمدية . وألزمهم بالإسلام وشعائره إلزام المسلم بهما . وفى هذه الآيات الثلاث عشرة يذكرهم بنعمه عليهم وعلى أجدادهم، هذه النعم المتظاهرة الكثيرة ، التى هى ـ لو عرفوها وفهموها وشكروا عليها ـ موجبة لإيمانهم وانصرافهم عن عنادهم وعن حربهم لله ولرسوله ولدينه ولكتابه الحكيم .

ففى الآية الأولى يكرر الله عز وجل تذكيرهم بنعم الله عز وجل عليهم وبتفضيله لهم على كل العالمين فى زمانهم .

«يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم» بالشكر عليها بطاعتى كرره للتوكيد وربطه بالوعيد الشديد تخويفا لمن غفل عنها وأخل بحقوقها وعطف على نعمتى «وأنى فضلتكم» أى آباءكم الذين كانوا فى عصر موسى صلى الله عليه وسلم وبعده قبل أن يغيروا ماغيروا «على العالمين» أى عالمى زمانهم بما منحهم الله من العلم والإيمان والعمل وجعلهم أنبياء وملوكا مقسطين، وذلك التفضيل وإن كان فى حق الآباء ولكن يحصل به الشرف فى الأبناء ،واستدل بذلك على أن الأصلح لا يجب على الله لأن تفضيلهم لو وجب عليه لم يجز

جعله منة عليهم لأن من أتى بما وجب عليه لا منة له به على أحد .

أما الآية الثانية فهى للتحذير والوعيد ، ومعنى : واتقوا : خافوا . يوما : أى ما فيه من الحساب والعقاب وهو يوم القيامة . لا تجزى : أى لا تقضى نفس عن نفس فيه شيئاً أى حقا لزمها وتنكير كلمة « شىء » مع تنكير النفس للتعميم « ولا تقبل منها شفاعة » أى من النفس الثانية لقوله تعالى : ولا يؤخذ منها عدل ، أى فداء وهم لا ينصرون : أى لا يمنعون من عذاب الله ، والضمير فى الجملتين للنفوس العاصية ، ويصح رجوعه للنفس الأولى لأنها المحدث عنها فى قوله تعالى : لا تجزى نفس عن نفس .

وقد تمسكت المعتزلة بهذه الآية على الشفاعة لأهل الكبائر ، وأجاب أهل السنة عن ذلك بأجوبة منها أن الآية مخصوصة بالكفار للآيات والأحاديث الواردة فى الشفاعة ويؤيد هذا أن الخطاب معهم، ويكون المراد حينئذ أنه ليس لها شفاعة فتقبل كما قال تعالى حاكياً عنهم : فما لنا من شافعين ، ومنها أن الآية نزلت رداً لما كانت اليهود تزعم أن أباهم تشفع لهم ، ومنها أنها لا تشفع إلا بإذن الله .

والآية الثالثة تذكير لهم بفضل الله عليهم حين نجى أجدادهم من فرعون وطغيانه وجبروته وبطشه ، قال تعالى : « و » أى واذكروا « إذ نجيناكم » أى آباءكم والخطاب به وبما بعده للموجودين فى زمن نبينا صلى الله عليه وسلم بما أنعم على آبائهم تذكيراً لهم بنعمة الله ليؤمنوا . « من آل فرعون » أى أتباعه وأهل دينه .

يذكر القرآن الكريم اليهود الذين كانوا فى عصر التنزيل بنعمة كانت لآبائهم ، لأن الإنعام على أمة إنعام شامل لأفرادها سواء منهم من أصابه ذلك ومن لم يصبه لما يكون له من الأثر فى مجموع الأفراد يرثه الخلف عن السلف ، فصنوف البلاء التى ذكر بها اليهود فى القرآن كانت للشعب من جراء جرائم وقعت من مجموعه . وقد روى المؤرخون أن أول من دخل مصر من بنى إسرائيل يوسف عليه السلام وانضم إليه إخوته بعد ، وتكاثر نسلهم

حتى بلغوا فى مدى أربعمائة سنة نحو ستمائة ألف حين خرجوا من مصر باضطهاد فرعون وقومه لهم ، إذ قد رأى تبسط اليهود فى البلاد ومزاحمتهم للمصريين ، فراح يستذلهم ويكلفهم شاق الأعمال فى مختلف المهن والصناعات وهم مع ذلك يزدادون نسلا ، ويحافظون على عاداتهم وتقاليدهم ، لا يشركون المصريين فى شىء ولا يندمجون فى غمارهم ، إلى مالهم من أنانية وإباء وترفع على من سواهم ، اعتقاداً منهم بأنهم شعب الله وأفضل خلقه ، فهال المصريين ما رأوا وخافوا إذا هم كثروا أن يغلبوهم على بلادهم ويستأثروا بخيراتها وينتزعوها من بين أيديهم ، وهم ذلك الشعب النشيط المجد العامل المفكر ، فعملوا على انقراضهم بقتل ذكرانهم واستحياء بناتهم فأمر فرعون القوابل أن يقتلن كل ذكر إسرائيلى حين ولادته .

والعبرة من هذا القصص أنه كما أنعم على اليهود ثم اجترحوا الآثام فعاقبهم الله بصنوف البلاء ثم تاب عليهم وأنجاهم ، أنعم على الأمة الإسلامية بضروب من النعم ، فقد كانوا أعداء فألف بين قلوبهم وأصبحوا بنعمته إخوانا ، وكانوا مستضعفين فى الأرض فمكن لهم وأورثهم أرض الشعوب القوية وجعل لهم فيها السلطان والقوة ، وجعلهم أمة وسطا لا تفريط لديها ولا إفراط ليكونوا شهداء على من أفرطوا أو قصروا . ثم لما كفروا بهذه النعم أذاقهم الله ألواناً من العذاب على يد التتار فى بغداد ، وفى الحروب الصليبية ، إذ جاس الغربيون خلال الديار الإسلامية ، ولا يزالون ينتقصون بلادهم من أطرافها ويجدون من بين المسلمين الخونة والمفسدين : هذا ولفظ « آل » يضاف إلى أولى القدر والشرف كالأنبياء والملوك ، وإنما قيل : آل فرعون ، لتصوره بصورة الأشراف أو لشرفه فى قومه . . « يسومونكم » يكلفونكم ويذيقونكم « سوء العذاب » أى أشده ثم وضح ذلك فقال عز وجل : « يذبحون أبناءكم » أى المولودين « ويستحيون نساءكم » أى يتركونهن أحياء ، هذا بيان يسومونكم ، وذلك أن فرعون على ما يروى رأى فى منامه كأن ناراً أقبلت من بيت المقدس وأحاطت بمصر وأحرقت

كل قبطى بها ولم تتعرض لبنى اسرائيل ، فهاله ذلك وسأل الكهنة عن رؤياه فقالوا : يولد فى بنى إسرائيل غلام يكون على يده هلاكك وزوال ملكك ، فأمر فرعون بقتل كل غلام يولد فى بنى إسرائيل ، وجمع القوابل فقال لهن: لا يولد على أيديكن غلام من بنى إسرائيل إلا قتل ولا جارية إلا تركت ، ووكل بالقوابل فكن يفعلن ذلك حتى قيل : إنه قتل فى طلب موسى اثنى عشر ألف صبى ، وقيل : بل تسعين ألفا ، قالوا : وأسرع الموت فى مشيخة بنى إسرائيل فدخل رؤوس القبط على فرعون ، وقالوا : إن الموت قد وقع فى بنى إسرائيل فتذبح صغارهم ويموت كبارهم ويوشك أن يقع العمل علينا فأمر فرعون أن يذبحوا سنة ويتركوا سنة فولد هارون فى السنة التى لا يذبحون فيها وولد موسى فى السنة التى يذبحون فيها . . « وفى ذلكم بلاء » إن أشير به إلى صنيعهم فهو محنة أو إلى الانجاء فهو نعمة فإن البلاء يكون بمعنى الشدة وبمعنى النعمة ، ويجوز أن يشار بذلكم إلى الأمرين ، فالله تعالى قد يختبر على النعمة بالشكر وعلى الشدة بالصبر ، قال تعالى : ونبلوكم - أى نختبركم - بالشر والخير فتنة ، . « من ربكم » أى بتسليطهم عليكم أو بعث موسى وتوفيقه لتخليصكم ، أو بهما . . وقوله تعالى « عظيم » صفة بلاء ، وفى الآية تنبيه على أنه ما يصيب العبد خيراً وشراً اختبار من الله تعالى ، فعليه أن يشكر عند نعمته ويصبر على مضاره ليكون من خير المختبرين .

والآية الرابعة تذكير لهم بنعمة سابغة عظيمة لله عز وجل على آبائهم ، قال تعالى « وإذ فرقنا » أى فلقنا « بكم » أى بسببكم « البحر » حتى دخلتموه هاربين من عدوكم ، وذلك أن فرعون لما دنا هلاكه أمر الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام أن يسرى ببنى إسرائيل من مصر ليلا ، فأمر موسى قومه أن يسرجوا فى بيوتهم السرج إلى الصبح ، وخرج موسى فى ستمائة ألف وعشرين ألف مقاتل ، لا يدعون ابن العشرين لصغره ، ولا ابن الستين لكبره ، وكانوا يوم دخلوا مصر مع يعقوب عليه الصلاة والسلام اثنين وسبعين إنسانا ما بين رجل وامرأة فساروا وموسى على ساقتهم وهارون فى مقدمتهم ثم علم بهم فرعون

لجمع قومه وأمرهم أن لا يخرجوا فى طلب بنى إسرائيل حتى يصيح الديك ، قال ابن مسعود : فوالله فى ماصاح ديك فى تلك الليلة ، ثم خرج فرعون فى طلبهم وعلى مقدمته هامان فى الف الف وسبعمائة الف وكان فيهم سبعون الفا من دهم الخيل سوى سائر الشيات ، قال محمد بن كعب : وكان فى عسكر فرعون مائة الف حصان أدهم سوى سائر الشيات ، وكان فرعون يكون فى الدهم ، فسارت بنو إسرائيل حتى وصلوا إلى البحر ، والماء فى غاية الزيادة ونظروا فإذاهم بفرعون حين أشرقت الشمس ، فبقوا متحيرين ، وقالوا ياموسى كيف تصنع وأين ماوعدتنا، هذا فرعون خلفنا إن أدركنا قتلنا، والبحر أمامنا إن دخلناه غرقنا ، قال الله تعالى : فلما تراء الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ، قال موسى إن معى ربى سيهدين ، فأوحى الله تعالى إليه « أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم » . فظهر فيه اثنا عشر طريقا لكل سبط طريق وارتفع الماء بين كل طريقين كالجبل وأرسل الريح والشمس على قعر البحر حتى صار يبسا فخاضت بنو اسرائيل البحر كل سبط فى طريق ، ومن جانبيهم الماء كالجبل الضخم ولا يرى بعضهم بعضا فخافوا وقال كل سبط : قد قتل إخواننا فأوحى الله تعالى إلى جبال الماء أن تشبكى فصارت شبكا كالطاقات يرى بعضهم بعضا وسمع بعضهم كلام بعض حتى عبروا البحر سالمين فذلك قوله تعالى « فانجيناكم » أى من آل فرعون « واغرقنا آل فرعون » وذلك أن فرعون لما وصل البحر فرآه منفلقا قال لقومه : انظروا إلى البحر انفلق من هيبتى حتى أدرك عبيدى الذين ادخلوا البحر فهاب قومه أن يدخلوه ، وقيل قالوا له : إن كنت ربا فادخل البحر كما دخل موسى ، وكان فرعون على حصان أدهم ، وخاض البحر واقتحمت الخيول خلفه البحر حتى خاضوا كلهم البحر وأمر الله البحر أن يأخذهم فالتطم عليهم وأغرقهم أجمعين وكان بين طرفى البحر أربعة فراسخ وهو بحر قلزم . . وقوله تعالى ، « وأنتم تنظرون » أى مصارعهم، أو إطباق البحر عليهم ، وانفلاق البحر عن طرق يابسة مذللة ، أو جثثهم التى قذفها

البحر إلى الساحل ، أو ينظر بعضكم بعضا ، وهذه الواقعة من أعظم ما أنعم الله به على بنى إسرائيل ، ومن الآيات الملجئة إلى العلم بوجود الصانع الحكيم وتصديق موسى الكليم ، ثم إنهم اتخذوا العجل ، وقالوا : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة لأنهم بمعزل من الفطنة والذكاء وسلامة النفس وحسن الاتباع من أمة محمد صلى الله عليه وسلم مع أن ما تواتر من معجزاته من أمور نظرية مثل القرآن والتحدى به والفضائل المجتمعة فيه الشاهدة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام دقيقة يدركها الأذكياء .

والآية الخامسة وهى قوله تعالى : « وإذ وعدنا موسى » بغير ألف بين الواو والعين كما قرأ به أبو عمر ، وقرأ الباقون بألف بين الواو والعين لأنه تعالى وعد موسى الوحى وواعد موسى ربه المجىء للميقات إلى الطور ، وقيل هذا من المفاعلة التى تكون من الواحد كعاقبت اللص . « أربعين ليلة » أن يعطيه عند انقضائها التوراة ليتعلموا بها وضرب له ميقاتاً ذا القعدة وعشر ذى الحجة وعبر عنها بالليالى لأنها غرر الشهور ، وقيل : لأن الظلمة أقدم من الضوء وخلق الله الليل قبل النهار قال الله تعالى « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار » . وقول البيضاوى : إن ذلك الوعد لما عادوا إلى مصر بعد هلاك فرعون تبع فى ذلك الكشاف ، ويريد بمصر إقليمها منها وهو طور سيناء . وقوله تعالى : ثم اتخذتم « العجل » أى الذى صاغه لكم السامرى إلها ومعبوداً . « من بعده » أى بعد ذهابه إلى ميقاتنا ، وذلك أن بنى إسرائيل لما أمنوا من عدوهم ولم يكن لهم كتاب ولا شريعة ينتمون إليها فوعد الله تعالى موسى أن ينزل عليهم التوراة فقال موسى لقومه إنى ذاهب لميقات ربى آتيكم بكتاب فيه بيان ما تأتون وما تذرون واستخلف أخاه هارون فلما أتاه الوعد جاء جبريل ليذهب بموسى إلى ميقات ربه فلما رآه السامرى - وكان رجلا صائغا من قبيلة يقال لها سامرة - رأى موضع قدم فرس جبريل يخضر من ذلك - وكان منافقا يظهر الإيمان وكان من قوم يعبدون البقر - فألقى فى روعه أنه إذا ألقى فى شىء غيره . وكان بنو اسرائيل قد استعاروا حليا كثيراً من قوم فرعون حين أرادوا الخروج من مصر لعمل

عرس لهم فأهلك الله فرعون وقومه فبقيت تلك الحلى فى أيدى بنى اسرائيل فأمرهم هارون أن يلقوها فى حفرة حتى يرجع موسى ففعلوا ، فلما اجتمعت الحلى صاغها السامرى عجلا من ذهب فى ثلاثة أيام مرصعا بالجواهر كأحسن ما يكون ، ثم القى فيه القبضة التى أخذها من تراب حافر فرس جبريل فصار يخور ويمشى ، فقال السامرى : هذا إلهكم وإله موسى فنسى أى فتركه هاهنا وخرج يطلبه ، وكان بنو إسرائيل قد أخلفوا الوعد فعدوا اليوم مع الليلة يومين فلما مضى عشرون يوما ولم يرجع موسى وقعوا فى الفتنة ، وقيل كان موسى وعدهم ثلاثين ليلة ثم زيدت العشر قال تعالى ووعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فكانت فتنتهم فى تلك العشرة فلما مضت الثلاثون ولم يرجع موسى ورأوا العجل وسمعوا قول السامرى عكف منهم ثمانية آلاف رجل على العجل يعبدونه ، وقيل كلهم عبدوه إلا هارون مع اثنى عشر الف رجل قال البغوى وهو الأصح ، وقال الحسن : كلهم عبدوه إلا هارون، ولذلك قال تعالى « وأنتم ظالمون » أى باتخاذه لوضعكم العبادة فى غير محلها .

الآية السادسة ، وهى قوله تعالى « ثم عفونا » أى محونا عنكم ذنوبكم حين تبتم ، والعفو محو الذنب من عفى إذا درس « من بعد ذلك » أى الاتخاذ « لعلكم تشكرون » أى لكى تشكروا نعمتنا عليكم .

والآية السابعة وهى قوله تعالى « وإذ آتينا » موسى الكتاب » أى التوراة وقوله تعالى « والفرقان » عطف تفسير أى الفارق بين الحق والباطل والحلال والحرام ، وقيل: أراد بالفرقان معجزات موسى كانفلاق البحر الفارق بين الحق والمبطل فى الدعوى وبين الكفر والإيمان « لعلكم تهتدون » أى لكى تهتدوا بتدبير الكتاب والتفكر فى الآيات .

والآية الثامنة وهى قوله تعالى « وإذ قال موسى لقومه » أى الذين عبدوا العجل « يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل » أى إلها ، قالوا بلى بأى شىء نصنع ؟ قال « فتوبوا » أى ارجعوا عن عبادة العجل « إلى بارئكم » أى خالقكم « فاقتلوا أنفسكم » أى ليقتل منكم البرىء من عبادة العجل من عبده ، وقيل : المراد

بالقتل قطع الشهوة كما قيل: من لم يعذب نفسه لم ينعمها ومن لم يقتلها لم يحيها . ورد هذا جماعة بإجماع المفسرين على أن المراد هنا القتل الحقيقى « ذلكم » أى القتل « خير لكم عند بارئكم » من حيث إنه طهره عن الشرك ووصله إلى الحياة الأبدية والبهجة السرمدية ، فلما أمرهم موسى بالقتل قالوا نصبر لأمر الله وأسلت القوم عليهم الخناجر فكان الرجل يرى ابنه وأباه وأخاه وقريبه فلم يمكنه المضى لأمر الله، فقالوا يا موسى كيف نعمل فأرسل الله عليهم ضبابة تشبه سحابة تغشى الأرض كالدخان ، وسحابة سوداء لا يبصر بعضهم بعضا فكانوا يقتلون إلى المساء فلما كثر القتل دعا موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام وبكيا وتضرعا وقالا يارب هلكت بنو إسرائيل ، البقيا ، البقيا ، فكشف الله تعالى السحابة عنهم وامرهم أن يكفوا عن القتل فكشفت عن ألوف من القتلى ، روى عن على رضى الله تعالى عنه أنه قال : كان عدد القتلى سبعين ألفا فاشتد ذلك على موسى فأوحى الله تعالى اليه أما يرضيك أن أدخل القاتل والمقتول الجنة فكان من قتل منهم شهيداً ومن بقى مكفرا عن ذنوبه فذلك معنى قوله تعالى « فتاب عليكم » أى فعلتم ما أمرتم به فتاب عليكم أى فتجاوز عنكم وقبل توبتكم ، وقوله فتوبوا إلى بارئكم وترتيب الأمر بالقتل عليه إشعار بأنهم بلغوا غاية الجهالة والغباوة حتى تركوا عبادة خالقهم الحكيم إلى عبادة البقر التى هى مثلهم فى الغباوة وأن من لم يعرف حق منعمه حقيق بأن يسترد منه ما أنعم به عليه ولذلك أمروا بالقتل « إنه هو التواب » أى الذى يكثر قبـــول التوبة من المذنبين « الرحيم » أى البالغ فى الإنعـام على خلقه .

والآية التاسعة ، وهى قوله تعالى « وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » تدل على جهلهم المطلق وتفصيل ذلك أن الله تعالى أمر موسى عليه الصلاة والسلام أن يأتيه فى ناس من بنى إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل فاختار موسى سبعين رجلا من قومه من خيارهم وقال لهم صوموا وتطهروا وطهروا

ثيابكم ففعلوا ذلك، فخرج موسى إلى طور سيناء لميقات ربه ، فقالوا لموسى : اطلب لنا نسمع كلام ربنا فقال لهم : أفعل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام فغشى الجبل كله فدخل فى الغمام وخروا سجدا وكان موسى إذا كلمه ربه وقع على وجهه نور ساطع لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه فضرب دونهم الحجاب وسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه وأسمعهم الله تعالى: إنى أنا الله لا إله إلا أنا أخرجتكم من أرض فرعون بيد شديدة فاعبدونى ولا تعبدوا غيرى ، فلما فرغ موسى وانكشف الغمام أقبل عليهم فقالوا : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة عيانا ، وذلك أن العرب تجعل العلم بالقلب رؤية فقالوا جهرة ليعلم أن المراد منه العيان « فأخذتكم الصاعقة » أى الصيحة فمتم ، وقيل: جاءت نار من السماء فأحرقتهم، وذلك لفرط العناد والتعنت وطلب المستحيل فإنهم ظنوا أنه تعالى يشبه الأجسام فطلبوا رؤية مثل رؤية الأجسام فى الجهات والأحيان وهى محال ، بل المراد أن ترى رؤية منزهة عن الكيفية وذلك للمؤمنين فى الآخرة والأفراد من الأنبياء فى بعض الأحوال فى الدنيا ، وقوله تعالى : « وأنتم تنظرون » أى ينظر بعضكم إلى بعض حين أخذكم الموت ، وقيل تعلمون ويكون النظر بمعنى العلم فلما هلكوا جعل موسى يبكى ويتضرع ويقول : ماذا أقول لبنى إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء ، فلم يزل يناشد ربه حتى أحياهم الله تعالى رجلا بعد رجل بعدما ماتوا يوماً وليلة ، ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون .

والآية العاشرة ، وهى قول الله تعالى « ثم بعثناكم » أى أحييناكم والبعث إثارة الشىء عن محله يقال بعثت البعير فانبعث وبعثت النائم فانبعث « من بعد موتكم » بسبب الصاعقة ، قال قتادة: أحياهم ليستوفوا بقية آجالهم وأرزاقهم؛ ولو ماتوا بآجالهم لم يبعثوا وقيد البعث بعد الموت لأنه يكون عن إغماء أو نوم كقوله تعالى « فضربنا على آذانهم فى الكهف » إلى أن قال « ثم بعثناهم » أى من النوم « لعلكم تشكرون » نعمة البعث أو ما كفرتموه من النعم المتتابعة

والآية الحادية عشرة ، وهى قوله تعالى « وظللنا عليكم الغمام » أى فى التيه يقيكم حر الشمس والغمام ، من الغم وأصله التغطية والتستر سمى السحاب غماماً لأنه يغطى وجه الشمس ، وذلك أنه لم يكن لهم فى التيه كن يسترهم فشكوا إلى موسى صلى الله عليه وسلم فأرسل الله غماماً أبيض رقيقا « وأنزلنا عليكم المن والسلوى » فى التيه ، والأكثرون على أن المن هو شيء كالصمغ كان يقع على الأشجار طعمه كالشهد وكان يقع على أشجارهم كل ليلة مثل الثلج لكل إنسان منهم صاع ، فقالوا ياموسى قتلنا هذا المن بحلاوته فادع لنا ربك أن يطعمنا اللحم ، فأنزل الله عليهم السلوى جمع سلوة وهو الطير السمانى ، فكان الله تعالى ينزل عليهم المن والسلوى كل صباح من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، فكان كل واحد منهم يأخذ ما يكفيه يوما وليلة وإذا كان يوم الجمعة يأخذ كل واحد منهم مايكفيه ليومين لأنه لم يكن ينزل يوم السبت ، وقدم فى الآية المن على السلوى مع أنها غذاء والمن حلوى والعادة تقديم الغذاء على الحلوى ، وذلك لأن نزول المن من السماء أمر مخالف للعادة فقدم لاستعظامه بخلاف الطيور المأكولة ، وأيضا هو مقدم فى النزول عليهم .. « كلوا » على إرادة القول أى قلنا لهم « كلوا من طيبات » أى حلال ما رزقناكم ولا تدخروا لغد فكفروا النعمة وادخروا ، فقطع الله ذلك عنهم وفسد ما ادخروه ، فقوله تعالى « وما ظلمونا » أى بذلك فيه اختصار ، وأصله فظلموا بأن كفروا بهذه النعم « وماظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » لأن وباله عليهم .

والآية الثانية عشرة وهو قوله تعالى : « وإذ قلنا » لهم بعد خروجهم من التيه « ادخلوا هذه القرية » أى بيت المقدس كما قاله مجاهد ، أو أريحا كما قاله ابن عباس ، وهى قرية الجبارين ، وكان فيها قوم من بقية عاد يقال لهم العمالقة ، قال ابن الأثير وهى قرية بالغور قريبة من بيت المقدس ، وقيل البلقاء ، وقيل الرملة والأردن وفلسطين ، وقيل الشام : وسميت قرية لأنها تجمع أهلها « فكلوا منها حيث شئتم رغداً » أى واسعا لا حجر فيه « وادخلوا الباب » أى باب

من أبواب القرية وكان لها سبعة أبواب « سجدا » أى متطامنين منحنين، أو ساجدين السجود الشرعى لله شكراً على إخراجكم من التيه « وقولوا حطة » أى مسألتنا حطة ، أى أن نحط عنا خطايانا ، قال قتادة أمروا بالاستغفار ، وقال ابن عباس : بلا إله إلا الله لأنها تحط الذنوب ، وقيل: معناه أمرنا حطة أى شأننا أن نحط فى هذه القرية ونقيم فيها حتى ندخل الباب سجدا مع التواضع « نغفر لكم خطاياكم » بسجودكم ودعائكم « وسنزيد المحسنين » بالطاعة ثوابا جعل الله تعالى امتثال قوله قولوا حطة توبة المسيء وسبب زيادة الثواب للمحسنين وقد خرج قوله تعالى « وسنزيد » عن صورة الجواب إلى الوعد إيهاماً بأن المحسن بصدد ذلك وإن لم يفعله فكيف إذا فعله ، وأنه يفعل لا محالة وسبب إخراج ما ذكر عن صورة الجواب إلى الوعد أن الزيادة إذا كانت من وعد الله كانت أعظم مما إذا كانت مسببة عن فعلهم .

والآية الثالثة عشرة ، وهى قوله تعالى « فبدل الذين ظلموا » أى منهم، « قولا غير الذى قيل لهم » أى بأن أصروا على ذنبهم وعلى ترك التوبة ، وعلى العناد واللجاج « فأنزلنا على الذين ظلموا » أى منهم ، وكون هذا الحديث من الله عز وجل يشعر بأن الله عز وجل من وراء كل ظالم محيط به ، وأنه تعالى لا يترك عقوبة الظالمين ولا يهملهم وإن أمهلهم ، وقوله تعالى « رجزاً » أى عذابا مقدراً ، « من السماء » ، وقيل: أرسل عليهم طاعونا مهلكا « بما كانوا يفسقون » أى بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله عز وجل .

هذه الآيات الثلاث عشرة تحتوى على قصة موسى مع قومه بنى إسرائيل وهى قصة عجيبة فيها عظة وعبرة للمعتبرين ، وتفصيل ذلك كله أن موسى ابن عمران كان من نسل لاوى سبط يعقوب عليه السلام . وكان بنو إسرائيل قد كثروا وأثروا بمصر فى عهد الفراعنة العمالقة وكانوا تحت أيديهم وفيهم بقية مؤمنة على ملة إسرائيل حتى جاء عهد أحد الفراعين الذى حكم مصر لعهد موسى ، وكان أشد الفراعنة غلظة وأقساهم قلبا على بنى إسرائيل ، كان يتخذهم

خدما وخولا وقد صنفهم فى خدمته ؛ فصنف يبنى الهياكل وصنف يحرث الأرض وصنف يزرعها ، ومن لم يكن منهم فى صنعة له فعليه أن يؤدى الجزية فسامهم سوء العذاب ـ ورأى فرعون رؤيا ضاعفت من مقته لليهود ، فقد رأى كأن ناراً أقبلت على مصر من بيت المقدس ، فدعا السحرة والكهنة وسألهم تأويل ما رأى فقالوا : يخرج من بيت المقدس رجل يكون على يديه هلاك أهل مصر ، فأمر فرعون ألا يولد لبنى إسرائيل غـــلام إلا ذبحوه ولا تولد لهم جارية إلا تركت ، فلما كثر القتـــل فى أطفال بنى إسرائيل وأوشكوا على الانقراض دخل عظماء المصريين إلى فرعون وقالوا : إن هؤلاء القوم قد وقع الموت فيهم فقل عـددهم ويوشك أن يكون العمـل فى المزارع والمعابد من نصيب المصريين ، فلو أنك تبقى من اليهود بقية لتقوم بالعمل !! فأمر أن يذبحوا الأطفال سنة ويتركوهم سنة فلما كانت السنة التى لا يذبحون فيها اليهود ولد هارون أخو موسى ولما جاءت السنة التى يذبحونهم فيها حملت أم موسى بموسى ولما آن وقت الوضع اشتد بها الحزن والخوف عليه ، فأوحى الله اليها أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين ، فلما وضعته أرضعته ثم استدعت اليها نجارا فصنع لها تابوتا فوضعته فيه وألقته فى اليم وقالت لأخته : اتبعى أثره ، فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون بأنها أخته ، وأقبل الموج بالتابوت يحمله حتى ألقى به بين الأشجار عند قصر فرعون ، فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزنا ، وكان اللائى التقطنه هن جوارى آسيا امرأة فرعون فحملن التابوت إلى سيدتهن فلما أخرجت موسى من التابوت وقعت عليه رحمتها وعطفها وأخبرت فرعون بشأنه فأراد أن يذبحه فجعلت تتوسل إليه وتسترحمه حتى تركه لها وقال إنى لأخشى أن يكون هذا الطفل من اليهود وأن يكون على يديه هلاكى وبحثوا عن المراضع لغذاء الطفل ولكنه أبى أن يرضع من النساء قاطبة إذ حرم الله عليه المراضع فقالت لهم أخته هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فقالوا لهـا إنك قد عرفت هذا

الغلام فدلينا على أهله فقالت : إنى لا أعرفه ولما جاءت أمه قبل ثديها فكادت تفتضح وتعلن للملأ أنه ولدها لولا أن ربط الله على قلبها لتكون من المؤمنين وكذلك رده الله إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ـ وحملته آسيا زوجة فرعون إلى زوجها وقالت : هذا قرة عين لى ولك فلما حمله أخذ موسى بلحيته فصاح فرعون : على بالذباحين ليقتلوه فقالت آسيا : لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً إنما هو صبى لا يعقل وإليكم البرهان فانى سأحمل له حليا من الياقوت وأضع إلى جانبها جمراً موقداً ، فإن أخذ الياقوت فهو يعقل فاذبحوه ، وإن تناول الجمر فهو صبى لا يعقل ، فلما عرض عليه الجمر والياقوت أمسك بالجمر وكبر موسى واشتد ساعده فدخل المدينة نصف النهار على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان ، هــذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه فندم على فعلته وقال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ، ثم دعا ربه فقال : رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم فقال رب بما انعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين فأصبح فى المدينة خائفا يترقب خشية أن يسجن فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوى مبين ، ثم أقبل لنصرته فلما رآه مقبلا ظنه يريد البطش به فقال له: ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين ، وذهب المصرى يذيع بين الناس أن موسى هو الذى قتل الرجل بالأمس فحمل الخبر إلى فرعون فأمر بالقبض عليه فأسرع إليه رجل من اليهود يحذره وقال له : إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج ، فخرج موسى من المدينة خائفا يترقب وقال : يارب نجنى من القوم الظالمين ، وانطلق يخترق الصحراء ويسأل الله أن يهديه السبيل ولبث فى رحلته ثمانى ليالى حتى بلغ مدين فرأى جمعا من الناس يسقون أغنامهم ووجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما فسألهما ما خطبكما فقالتا لا نسقى غنمنا حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ، فرحمهما موسى وجاء لهما

البئر فاقتلع صخرة كانت عليها كان النفر من أهل مدين يجتمعون عليها حتى يرفعوها فسقى لهما حتى رويت غنمهما وكانتا من قبل لا تسقيان غنمهما إلا من فضول الحياض، ثم تولى موسى إلى ظل شجرة فقال رب إنى لما أنزلت الى من خير فقير ، فلما رجعت الجاريتان إلى أبيهما سألهما فأخبرتاه خبر موسى فأرسل إليه أحدهما فأتته تمشى على استحياء وقالت : إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ؛ فقام معها وكانت تمشى بين يديه فضربتها الرياح فلاحت عجيزتها فاستحيا واستغفر ربه وقال لها : إمشى خلفى ودلينى على الطريق ، فلما اجتمع بأبيها الشيخ وقص عليه حكايته قال له : لا تخف نجوت من القوم الظالمين ، فقالت إحداهما ياأبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين . وكانت هى الجارية التى استدعته إلى أبيها فقال لها أبوها لقد علمت مبلغ قوته حين أقلع الصخرة من فمة البئر فماذا رأيت من أمانته قالت إنى كنت أمشى أمامه فلم يحب أن يخوننى فى نفسى وأمرنى أن أمشى خلفه ، وقال الشيخ لموسى : إنى أريد أن أزوجك إحدى ابنتى هاتين على أن ترعى غنمى ثمانى سنوات أو عشرة والله على ما أقول وكيل ، فقضى موسى فى خدمة الشيخ عشر سنين ثم تزوج من ابنته صفورة فلما قضى الأجل حمل أهله وخرج إلى سبيله وكان الوقت شتاء ، فرأى أمامه نارا فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر فإن لم أجد خبرا آتيكم منها بشهاب قبس لعلكم تصطلون .

فلما أتاها نودى من جانب الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن بورك من فى النار ومن حولها ، فلما سمع موسى النداء فزع وقال : الحمد لله رب العالمين وقال له ياموسى : اخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى ، ياموسى إنى أنا الله رب العالمين ، وما تلك بيمينك ياموسى قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى .

فقال له ربه : ألقها ياموسى فألقاها فإذا هى حية تسعى فلما رآها موسى تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب فناداه الله : ياموسى لا تخف إنى لا يخاف لدى المرسلون ، أقبل ولا تخف إنك من الآمنين ، واضمم إليك جناحك من

الرهب فذلك برهان من ربك ، فقال موسى : رب إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون ، وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون ، فقال الله: سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون فأتياه فقولا إنا رسول رب العالمين ، فعاد موسى إلى زوجته حيث تركها فسار بها حتى دخل ونزل بين قومه حتى بلغ دار أمه وهو لا يعرفها ، فلما جاء هارون أخوه قعد يحدثه فسأله من أنت فقال أنا موسى فقام كل واحد إلى صاحبه فاعتنقه فلما أن تعارفا قال له موسى اسمع ياهارون إنى أريد أن تنطلق معى إلى فرعون لأن الله قد ندبنا كلينا لدعوته فقال هارون سمعا وطاعة، فصاحت أمهما وقالت أنشدكما الله ألا تذهبا إلى فرعون فيقتلكما فأبيا ، فانطلقا إلى قصر فرعون ودخلاه وما زالا حتى حملا إلى مجلس فرعون فأعلنه موسى أنه قد أصبح نبى بنى إسرائيل وقد بعثه الله ليدعو إلى الإيمان بالله رب العالمين ، وأن يطلق سراح بنى إسرائيل . فدهش فرعون من ظهور موسى بهذا المظهر وجعل يذكره بأيامه الأولى فقال له : ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين . فقال له موسى لقد فعلتها إذا وأنا من الضالين ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين ، وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل وربيتنى قبل وليدا ، فقال له فرعون : من ربكما ياموسى ؟ قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . فقال فرعون لمن حوله : ألا تستمعون إلى هذا الرجل الذى يزعم لكم أن هناك إلها سواى، فقال موسى: إن ربكم هو الذى خلق آباءكم الأولين وخلقكم من آبائكم ، فقال له فرعون لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين ، فقال له موسى : وماذا تقول إذا أنا جئتك بشىء مبين تعرف به صدقى ؟ فقال فرعون فأت به إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ، ففر الناس من المجلس وفزع فرعون واشتد به الخوف وادخل موسى يده من جيب قيمصه وأخرجها فإذا هى بيضاء كالثلج ثم ردها كهيئتها

وقال الملأ من قوم فرعون دعه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم ، لعل فيهم من يأتى بسحر مثل سحره .

فاستدعى فرعون السحرة فلما اجتمعوا قال لهم لقد جاءنا ساحر ما رأينا مثله قط ، وإنكم إن غلبتموه أكرمتكم وفضلتكم على أهل مملكتى ، فقال السحرة : أعد لنا يوما نجتمع فيه ، وبعث فرعون إلى موسى أن اجعل بينى وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى ، قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى . فجمع فرعون أهل مملكته وأشار إلى السحرة فقال: ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى . وخرج موسى ومعه أخوه هارون يتكىء على عصاه حتى أتى القوم وفرعون على عرشه بين أشراف مملكته . فقال موسى للسحرة: ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى، فتراود السحرة بينهم وقال بعضهم لبعض: إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى ، ثم أقبلوا على موسى وقالوا له يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى ، قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ، فاختطفوا بصر موسى وفرعون وأبصار الناس من حولهم وإذا هى حيات قد ملأت أرجاء المجلس يركب بعضها بعضا ، فأوجس فى نفسه خيفة موسى فأوحى الله إليه أن ألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ، فألقى موسى عصاه فاستعرضت ما ألقوا من حبالهم وعصيهم فجعلت تبتلعها حية حية حتى أصبح لا يرى منها قليل ولا كثير ، وخر السحرة ساجدين وقالوا: آمنا برب هارون وموسى ، فقال لهم فرعون آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين . وأمر فرعون أن يفعل ذلك بالسحرة فخضعوا لحكمه صابرين بعدما تبين لهم الهدى وملأ الإيمان قلوبهم وقالوا له : لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا، إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا

عليه من السحر والله خير وأبقى . وصلبوا على جذوع النخـــل وقطعت أيديهم وأرجلهم .

وأصر فرعون وقومه على عنادهم وكفرهم من بعد مارأوا الآيات، فأنزل الله بهم عقابه وابتلاهم بتسع آيات هى الفزع الأكبر .

وكان أول بلاء نزل بالنـاس الطوفان ومكث فيهم ثمانية أيام فامتلأت الأسواق والدور وتداعت إلى الخراب وغمرت المياه مزارعهم فأبطلتها وأتت عليها ، فلجأ النـاس إلى فرعون فدعا فرعون موسى وسأله أن يدعو ربه أن يرفع عنهم هذا البلاء فرفع بإذن الله ، ولكن الناس نكثوا بما عاهدوا موسى فبعث الله عليهم الجراد فلبث فيهم ثمانية أيام أتى فيها على الزروع والأشجار ثم صرفه الله بدعاء موسى فلما لم يؤمنوا بعث فيهم القمـل فقرض ثيابهم وأبدانهم وشعورهم حتى ضجوا ثم صرفه الله بدعاء موسى فلم يؤمنوا ، فابتلاهم ربهم بالضفـادع فمكثت ثمانية أيام فكانت تدخل فى طعامهم وشرابهم ثم كشفها الله عنهم ، فلما لم يؤمنوا أحال الله ماء النيل دما قانيا فأشرف الناس على الهلاك .

وأمر الله موسى أن ينادى فى بنى إسرائيل بالرحيل عن مصر فارتحلوا وكانت عدتهم ستمائة الف ، فلما سمع فرعون برحيلهم خرج بجنوده فى أثرهم حتى أدركوهم . فقال بنو إسرائيل ياموسى قد أدركنا فرعون بجنوده والبحر أمامنا والسيف وراءنا فقال موسى كلا إن معى ربى سيهدين : فأوحى الله إليه أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وأصبح فيه اثنا عشر طريقا للاسباط الإثنى عشر فساروا فى طرقهم وموسى يمشى أمامهم وهارون من ورائهم وجعل الله بينهم فتحا ليرى بعضهم بعضا، وبلغ فرعون البحر ورأى تلك المسالك والطرق التى أنشأها فيه فأراد أن يقتحم الماء فالتأمت الطرق وأغرق الله الجنود جميعا ، وكان فرعون ينظر إليهم وقد سرى الإيمان قليلا إلى قلبه حتى إذا أدركه الغرق قال : آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ، ورأى بنو إسرائيل تلك

المعجزة السالفة فكانت عظة لكل مكابر ، وقذف البحر بجسد فرعون ليكون آية للناس .

وبلغ موسى وبنو إسرائيل سفوح الطور فمروا فى طريقهم بقوم يعبدون الأوثان فقالوا : يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال : إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون . وذكرهم بنعمة الله التى لا تنسى إذ نجاهم من فرعون وقال : أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين وأمرهم بالتوبة والاستغفار وانطلقوا ناحية الطور وقلوبهم تفيض بحب الأوثان . أما موسى فقد ذهب لميقات ربه فقد واعده الله ثلاثين ليلة وأتمها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة . وذلك أن موسى قد وعد بنى إسرائيل وهو بمصر إذا خرجوا منها سالمين وهلك عدوهم أن يأتيهم بكتاب من عند الله فيه أوامر الله ونواهيه ، فلما أهلك الله فرعون وقومه وانقذ بنى إسرائيل من أيديهم لم يكن قد نزل عليهم كتاب ولا شريعة ينتهون إليها فقالوا ياموسى ائتنا بالكتاب الذى وعدتنا به . فسأل موسى ربه فى ذلك فأمره الله أن يصوم ثلاثين ليلة ثم يتطهر ويطهر ثيابه ويأتى طور سيناء لمناجاته ليعطيه الكتاب فصام ثلاثين يوما فلما صعد الجبل أنكر رائحة فمه من أثر الصيام فأراد أن يطهر فمه فاستاك بعود من الخرنوب ، فقالت له الملائكة : كنا نشم من فمك رائحة المسك وأنت صائم فأفسدته بالسواك فأوحى الله تعالى إليه أن صم عشرة أيام أخر وقال : أما علمت ياموسى أن خلوف فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك . وحدثت الفتنة فى بنى إسرائيل خلال الليالى العشر الأخيرة وهى التى زادها الله تعالى ، فلما تم الميقات أربعين ليلة تطهر موسى وطهر ثيابه لميقات ربه ، وحين أتى طور سيناء ناجاه ربه وقربه واصطفاه على الناس بالرسالة وبكلامه وكتبت له الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء .

وكان هارون هو خليفة أخيه موسى أثناء غيابه لميقات ربه وكان من عظماء بنى إسرائيل رجل اسمه السامرى ، فلما واعد موسى قومه ثلاثين ليلة

ليلة لميقات ربه زاده الله عشر ليال فصارت أربعين ليلة فلما لم يرجع موسى إلى قومه بعد الثلاثين ليلة حلت الفتنة ببنى إسرائيل ودخل فى صفوفهم السامرى، وكان من المنافقين ، وقال لهم : إن موسى لن يرجع الينا وقد تم الميقات، وصنع لهم عجلا جسدا له خوار وقال لهم هذا هو ربكم فعكف على عبادته أغلب اليهود فقال لهم هارون : يابنى إسرائيل إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى ، قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى. وخشى هارون إن هو اشتد على الذين فتنوا أن يقول له موسى إنك فرقت بين بنى إسرائيل . ولما رجع موسى إلى قومه ألفاهم عاكفين على عبادة العجل فاشتد غضبه عليهم حتى سقطت الألواح التى كان يحملها وكسرت . وأخذ برأس أخيه هارون وقال له : ياهرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعنى أفعصيت أمرى ؟ فقال له هارون : يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ... إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين . ولما أدرك بنو إسرائيل أنهم اخطأوا وضلوا بعبادتهم العجل ندموا على فعلتهم واستغفروا ، فقال لهم موسى يعاتبهم : « ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم ، باتخاذكم العجل ، فتوبوا إلى بارئكم » ، فقالوا : كيف نتوب ؟ قال « اقتلوا أنفسكم » .

هذا وفرق البحر معجزة جليلة لموسى عليه السلام ، وهى معجزة من أضخم المعجزات التى ظهرت على أيدى الرسل عليهم السلام .

وفى هذه القصة إشارة إلى الصاعقة وهى نار محرقة تنزل من السماء ، وسببها اتحاد كهربائية السحاب المختلفة النوع سالبها بموجبها ، أو اتحادها مع كهربائية الأرض السالبة .

وقصة القتل المذكورة هنا فى هذه الآيات مذكورة أيضا فى التوراة التى يتدارسونها إلى اليوم ، ففيها — دعا موسى : من للرب فإلى ، فأجابه بنو لاوى فأمرهم أن يأخذوا السيوف ويقتل بعضهم بعضا ففعلوا ، فقتل فى ذلك اليوم

نحو ثلاثة آلاف رجل ، والعبرة من القصة لا تتوقف على عدد معين فلنمسك عنه ما دام القرآن لم يتعرض له .

وإلى هنا ينتهى الربع الثالث من سورة البقرة الذى قص فيه الله عز وجل أكثر قصة بنى اسرائيل مع موسى عليه السلام ، وفصل عصيانهم وخلافهم وما اقترفوا من الشرك ومن الذنوب والآثام .

ويبدأ الربع الرابع بقول الله تعالى : « وإذ استسقى موسى » .

٦٠ — وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ

٦١ — وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ

٦٢ — إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَٰرَىٰ وَالصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

٦٣ — وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

٦٤ — ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ

٦٥ — وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ

٦٦ — فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ

ست آيات تضمنت كذلك قصة جديدة من قصص بنى إسرائيل العجيبة التى يشبه بعضها بعضاً فى الكفر والطغيان .

والآية الأولى من هذه الآيات الست يذكر الله عز وجل فيها نعمة أخرى آتاها بنى إسرائيل فكفروا بها . ذلك أنهم حين خرجوا من مصر إلى التيه أصابهم ظمأ من لفح الشمس فاستغاثوا بموسى فدعا ربه أن يسقيهم فأجاب دعوته وقد كان من دأب بنى إسرائيل أن يعودوا باللوم على موسى إذا أصابهم الضيق ويمنون عليه بالخروج معه من مصر ويصارحونه بالندم على ما فعلوا ، فقد روى أنهم قالوا : من لنا بحر الشمس ؟ فظلل عليهم الغمام . وقالوا من لنا بالطعام ؟ فأنزل الله عليهم المن والسلوى ، وقالوا من لنا بالماء فأمر موسى بضرب الحجر .

قال تعالى « وإذ استسقى موسى » أى طلب السقى « لقومه » وذلك أنهم عطشوا فى التيه فسألوا موسى أن يستسقى لهم ففعل فأوحى الله عليه كما قال : « فقلنا اضرب بعصاك الحجر » لم يكن حجراً معينا بل كان موسى يضرب أى حجر كان فينفجر عيونا لكل سبط عين ، ثم تسيل كل عين فى جدول

إلى السبط الذى أمر أن يسقيهم ، وكانت بنو إسرائيل اثنى عشر سبطا ، ولكن لما قالوا : كيف بنا لو أفضينا إلى أرض لا حجارة فيها ؟ حمل حجرا فى مخلاته وكان يضربه بعصاه إذ نزل فينفجر ويضربه بها إذا ارتحل فييبس فقالوا : إن فقد موسى عصاه متنا عطشا فأوحى الله تعالى إليه لا تقرع الحجارة وكلها تطيعك لعلهم يعتبرون ، وقوله تعالى « فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا » متعلق بمحذوف أى فضربه فانفجرت أى سالت ، قال أبو عمرو بن العلاء : انبجست عرقت وانفجرت سالت وقال عطاء : كان موسى يضرب اثنتى عشرة ضربة ، فيظهر على كل موضع ضربة مثل ثدى المرأة فيعرق ثم تنفجر الأنهار ثم تسيل . . « قد علم كل أناس » أى سبط منهم « مشربهم » أى عينهم التى يشربون منها لا يدخل سبط على غيره فى شرابه ، وقلنا لهم « كلوا واشربوا من رزق الله » أى كلوا من المن والسلوى واشربوا من الماء فهذا كله من رزق الله الذى يأتيكم بلا مشقة . . « ولا تعثوا » أى لا تعتدوا فى الأرض مفسدين » أى حال إفسادكم . إنما قيده لأنه وإن غلب فى الفساد قد يكون منه ما ليس بفساد كمقابلة الظالم المعتدى ، بفعله ومنه ما يتضمن أصلا راجحا على الفساد كقتل الخضر الغلام وخرقه السفينة ، ومن أنكر أمثال هذه المعجزات فلغاية جهله بالله تعالى وقلة تدبيره فى عجائب صنعه فإنه لما أمكن أن يكون من الأحجار ما يحلق الشعر ويجذب الحديد كالمغناطيس لم يمتنع أن يخلق الله حجراً يسخره لجذب الماء من تحت الأرض أو لجذب الهواء من الجوانب الأربعة وتصييره ماء بقوة التدبير ونحو ذلك .

الآية الثانية وهى قوله تعالى « وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد » تذكير لهم بنعمة أخرى لله عز وجل عليهم وذلك حين سئموا من أكل المن والسلوى ، وإنما عبر عنهما بطعام واحد لعدم تبدلهما كقول العرب طعام مائدة الأمير واحد يريدون أنه لا تتغير ألوانه ، أو لأن العرب تعبر عن الاثنين بلفظ الواحد كما تعبر عن الواحد بلفظ الاثنين كقوله تعالى « يخرج منهما

اللؤلؤ والمرجان، وإنما يخرج من الملح دون العذب ، أو لأنهم كانوا يعجنون المن بالسلوى فيصير واحدا ، أو لأنهم كانوا يأكلون أحدهما بالآخر فكان كطعام واحد أو ضرب واحد ، لأنهما معا كطعام أهل التلذذ وهم كانوا أهل فلاحة وزراعات فاشتاقوا إلى أصلهم الردىء وعاداتهم الخبيثة ، ولذا قالوا « فادع لنا ربك » أى فسل لأجلنا ربك « يخرج لنا » أى يظهر لنا ويوجد وقوله تعالى « مما تنبت الأرض من بقلها » « من » هنا للبيان ، والبقل ما تنبت الأرض من الخضر وهو ماليس له ساق نابؤكل كالكرسف والنعناع والكرات « وقثائها وفومها » وهو الخبز كما قاله ابن عباس ومنه فوموا لنا أى اخبزوا ، أو الحنطة كما قاله عطاء أو الثوم كما قاله الكلبى « وعدسها وبصلها قال » أى الله أو موسى « أتستبدلون الذى هو أدنى » أى أخس وأردأ وأصل الدنو القرب فى المكان فاستعير للخسة كما استعير البعد للشرف والرفعة ، فقيل بعيد المحل « بالذى هو خير » أى أشرف ، وهو المن والسلوى فإنه خير فى اللذة والنفع وعدم الحاجة إلى السعى أى أتأخذون هذا بدل هذا ، والهمزة للانكار فأبوا أن يرجعوا فدعا موسى ربه فقال تعالى « اهبطوا » أى انزلوا « مصرا » من الأمصار والمصر البلد العظيم ، وقيل : أراد به ديار مصر ، قال البيضاوى : ويؤيده أنه غير منون فى مصحف ابن مسعود وهى قراءة شاذة وإنما صرفه على هذا مع أن فيه العلمية والتأنيث لسكون وسطه كما فى هند ودعد لمعادلة أحد سببى منع الصرف بخفة الاسم ، لسكون وسطه أو على تأويل مصر بالمكان « فإن لكم » فيه « ما سألتم » من نبات الأرض . « وضربت عليهم » أى أحيطت بهم إحاطة القبة بمن ضربت عليهم ، أو ألصقت بهم من ضرب الطين على الحائط « الذلة » أى الذل والهوان وقيل الجزية « والمسكنة » أى الفقر ، وسمى الفقير مسكينا لأن الفقر أسكنه وأقعده عن الحركة ، وفعل بهم ذلك مجازاة لهم على كفران النعمة ولذلك تجد اليهود فى غالب الأمر أذلاء مساكين ، إما على الحقيقة أو على التكلف مخافة أن تضاعف جزيتهم ، وقيل : الذلة فقر القلب فلا ترى فى أهل الملل أذل وأحرص على المال من اليهود « وباؤا » أى

رجعوا « بغضب من الله » وأصل البوء المساواة ، وقال أبو عبيدة احتملوا وقوله تعالى «ذلك» إشارة إلى ما مر من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب « بأنهم » أى بسبب أنهم « كانوا يكفرون بآيات الله » بصفة محمد صلى الله عليه وسلم وآية الرجم فى التوراة ويكفرون بالإنجيل والقرآن وبالمعجزات التى من جملتها ما عد عليهم من فلق البحر وإظلال الغمام وإنزال المن والسلوى وانفجار العيون من الحجر « ويقتلون النبيين بغير الحق » أى ظلما فإنهم قتلوا زكريا ويحيى وغيرهما ، روى أن اليهود قتلوا سبعين نبيا فى أول النهار وقامت سوقهم آخر النهار ، فان قيل لم قال بغير الحق وقتل النبيين لا يكون إلا بغير الحق ، فالواجب أنه ذكره وصفا للقتل ، والقتل يوصف تارة بالحق وتارة بغير الحق وهو مثل قوله تعالى : قل رب احكم بالحق . . ذكر الحق وصفا للحكم لأن حكمه ينقسم إلى الحق والجور أو أنه وصف كاشف « ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » أى جرهم العصيان والتمادى والاعتداء فيه إلى الكفر بالآيات ، وقتل النبيين ، فإن صغار الذنوب أسباب تؤدى إلى ارتكاب كبارها ، كما أن صغار الطاعات أسباب تؤدى إلى تحرى كبارها ، وكرر الإشارة للدلالة على أن مالحقهم كما هو سبب الكفر والقتل هو سبب ارتكابهم المعاصى واعتدائهم حدود الله ، وقيل : الإشارة إلى الكفر والقتل جوزت الإشارة بالمفرد إلى شيئين فصاعدا على تأويل ما ذكر .

والآية الثالثة وهى قوله تعالى « إن الذين آمنوا » أى بالأنبياء من قبل « والذين هادوا » أى اليهود سموا به لقولهم إنا هدنا إليك أى ملنا إليك ، وقيل لأنهم هادوا أى تابوا من عبادة العجل وكأنهم سموا باسم أكبر أولاد يعقوب عليه الصلاة والسلام ، وقال أبو عمرو بن العلاء لأنهم يتهودون أى يتحركون عند قراءة التوراة ويقولون إن السموات والأرض تحركت حين أتى الله موسى التوراة « والنصارى » جمع نصرانى كندامى ، والياء فى نصرانى للمبالغة

سمو بذلك لأنهم نصروا المسيح، إذ قال الحواريون نحن أنصار الله، «والصابئين» هم طائفة من النصارى وقيل من اليهود، وقيل قوم بين النصارى والمجوس، وقيل: أصل دينهم دين نوح عليه الصلاة والسلام، وقيل: هم عبدة الملائكة والكواكب «من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً» أى من كان منهم فى دينه قبل أن ينسخ مصدقاً بقلبه وبالمبدأ والمعاد عاملا بمقتضى شرعه، وقيل من آمن من هؤلاء الكفرة إيماناً خالصاً ودخل الإسلام دخولا صادقاً «فلهم أجرهم» أى ثواب أعمالهم «عند ربهم» بأن يدخلهم الجنة «ولا خوف عليهم» فى الدنيا «ولاهم يحزنون» فى الآخرة أو حين يخاف الكفار من العقاب ويحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب.

والآية الرابعة وهى قوله تعالى «وإذ أخذنا ميثاقكم» أى عهدكم باتباع موسى والعمل بما فى التوراة، «ورفعنا فوقكم الطور» أى الجبل حين أعطيتم الميثاق، وروى أن موسى عليه الصلاة والسلام لما جاءهم بالتوراة ورأوا ما فيها من التكاليف الشاقة كبرت عليهم لأنها كانت شريعة ثقيلة وأبوا قبولها فأمر الله تعالى جبريل بقطع الطور فظلله فوقهم وكان على قدر عسكرهم وكان فرسخاً فى فرسخ فرفعه فوق رؤسهم مقدار قامة رجل كالظلة وقال لهم: إن لم تقبلوا التوراة أرسلت هذا الجبل عليكم، وروى عطاء عن ابن عباس رفع من فوق رؤسهم الطور وبعث ناراً من قبل وجوههم وأتاهم البحر المالح من خلفهم وقيل: إن قبلتم وإلا رضختكم بهذا الجبل أو أغرقتكم فى هذا البحر أو أحرقتكم بهذه النار فلما رأوا أن لا مهرب لهم من ذلك قبلوا وسجدوا وجعلوا يلاحظون الجبل وهم سجود فصارت سنة فى اليهود لا يسجدون إلا على أنصاف وجوههم ويقولون: بهذا السجود رفع العذاب عنا، «خذوا» هو على إرادة القول «ما آتيناكم» من الكتاب «بقوة» بجد وعزيمة «واذكروا ما فيه» بالعمل به، أو تفكروا فيه فإنه تذكر بالقلب كما أن الدرس ذكر باللسان أو ادرسوه ولا تنسوه «لعلكم تتقون» لكى تتقوا النار أو المعاصى.

والآية الخامسة ، وهى قوله تعالى « ثم توليتم » أى أعرضتم عن الوفاء بالميثاق « من بعد ذلك » أى بعد أخذه « فلولا فضل الله عليكم ورحمته » أى بتوفيقكم للتوبة أو بالإمهال وتأخير العذاب عنكم أو بإرسال محمد صلى الله عليه وسلم يدعوكم إلى الحق ويهديكم إليه « لكنتم من الخاسرين » أى من المغبونين بالانهماك فى المعاصى أو بالعقوبة وذهاب الدنيا والآخرة .

والآية السادسة . وهى قوله تعالى « ولقـــد علمتم » أى عرفتم « الذين اعتدوا » تجاوزوا الحد « منكم فى السبت » بصيد السمك ، وذلك أنهم حين كانوا زمن داود عليه السلام بأرض يقال لها أيلة حرم الله تعالى عليهم صيد السمك يوم السبت ، فكان إذا دخل السبت لم يبق حوت فى البحر إلا حضر هناك وطفا على سطح الماء حتى لا يرى الماء من كثرة السمك ، فإذا مضى تفرقت ولزمت قعر البحر فذلك قوله تعالى « إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون ، لا تأتيهم « وكذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون » ، ثم إن الشيطان وسوس إليهم وقال : إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت ، فعمد رجال لحفروا الحياض حول البحر وشرعوا منه إليها الأنهار فإذا كان عشية الجمعة فتحوا تلك الأنهار فأقبل الموج بالحيتان إلى الحياض فلا تقدر على الخروج لبعد عمقها وقلة مائها فإذا كان يوم الأحد أخذوها ، فذلك الحبس فى الحياض هو اعتداؤهم ففعلوا ذلك زمانا ولم تنزل عليهم عقوبة فتجرؤا على السبت وقالوا : ما نرى السبت إلا قد أحل لنا فأكلوا وملحوا وباعوا فلما فعلوا ذلك صار أهل القرية وكانوا نحو سبعين ألفا ثلاثة أصناف : صنف أمسك ونهى وصنف أمسك ولم ينه وصنف انتهك الحرمة وكان الناهون اثنى عشر ألفا فلما أبى المجرمون قبول نصحهم قالوا والله لا نساكنكم فى قرية واحدة ، فقسموا القرية بجدار « فقلنا لهم » لإصرارهم على المعصية « كونوا قردة خاسئين » قال مجاهد : ما مسخت صورتهم ولكن قلوبهم فمثلوا بالقردة كما مثلوا بالحمار كما فى قوله تعالى « كمثل الحمار يحمل أسفارا » رواه عنه ابن جرير

فالمعنى على سقوطهم عن درجـــة الـكمال الإنسانى ، قال ابن كثير : المسخ معنوى لا صورى .

وذهب جمهور العلماء إلى أنهم مسخت صورهم فصارت صور القردة ، وروى أن الممسوخ لا ينسل ولا يأكل ولا يشرب ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام . ونظير الآية قوله تعالى : « وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت » ، والطاغوت : الشيطان ، يقول الأستاذ الإمام محمد عبده : الآية ليست نصا فى رأى الجمهور ولم يبق إلا النقل ، ولو صح لما كان فى الآية عبرة ولا موعظة للعصاة لأنهم يعلمون بالمشاهدة أن الله لا يمسخ كل عاص فيخرجه عن نوع الإنسان ، إذ ليس ذلك من سنته فى خلقه ، وإنما العبرة الـكبرى فى العلم بأن من سنن الله فى الذين خلوا من قبـــل — أن من يفسق عن أمره ويتنكب الصراط الذى شرعه له ينزله عن مرتبة الإنسان ويلحقه بعجماوات الحيوان ، وسنة الله واحدة ، فهو يعامل القرون الحاضرة بمثل ما عامل به القرون الخالية اه . وفى هذا تأييد لرأى مجاهد وتفضيل له على رأى الجمهور قال ابن كثير : والصحيح أن المسخ معنوى كما قال مجـــاهد لا صورى كما قال غيره .

والآية السابعة ، وهى قوله تعالى « فجعلناها نكالا » ، معناها : جعلنا تلك العقوبة نكالا أى عبرة تنكل المعتبر بها أى تمنعه من ارتكاب مثل ما عملوا ، ومنه النكول عن اليمين ، وهو الامتناع « لما بين يديها وما خلفها » أى للأمم التى فى زمانها والتى بعد زمانها ، أو لما بحضرتها من القرى وما تباعد عنها ، أو لأهل تلك القرية وما حواليها ، أو لأجـــل ما تقدم عليها من ذنوبهم وما تأخر عنها .

« وموعظة للمتقين » أى الذين اتقوا الله من قومهم ، أو لـــكل متق سمعها ، وخصوا بالذكر لأنهم المنتفعون بها بخلاف غيرهم .

فى هـذه الآيات السبع ذكر لبعض معجزات موسى ، ولصنيع قومه اليهود وعنادهم ولجاجهم بالباطل .

والمعجزة الأولى من هذه المعجزات هي تفجر الماء من الحجر ، وهي معجزة غريبة جليلة ، ليس في معجزات الأنبياء قبل محمد عليه السلام ما يشبهها ، وذكر الدكتور عبد العزيز إسماعيل باشا في كتابه « الإسلام والطب الحديث » ما نصه : « إن الله تعالى كان قادراً على تفجير الماء وفلق البحر بلا ضرب عصا ، ولكنه جلت قدرته أراد أن يعلم عباده ربط المسببات بأسبابها ليسعوا في الحصول على تلك الأسباب بقدر الطاقة إلا أنه تعالى خلق الإنسان محدود الإدراك والحواس ، لا يفهم إلا ما كان في متناول يده ويقع تحت إدراكه وحسه ، فإن رأى شيئاً فوق طاقته اجتهد في رده إلى ما يعرف ، فإذا لم يستقم له ذلك وقف حائراً مدهوشاً ، ولا سيما إذا تكرر ذلك أمامه ، فكان من لطف الله بعباده أن تظهر المعجزات على يد الأنبياء على طريق التدرج ، حتى لا تصطدم بها عقول معاصريها دفعة واحدة .

حكى القرآن في معجزات عيسى عليه السلام قول الله عز وجل « إني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله » . كان الله قديراً على أن يخلق الطير من الطين ومن غير الطين سواء كان في شكل الطير أم لم يكن ، وكذلك لم يكن هناك من داع للنفخ لأن طريق القدرة « كن فيكون » .

ولكن شاء الله أن تظهر قدرته بطريق التدرج ، لأن الطين إذا كان على شكل الطير يشتبه بالطير الحقيقي ولا يكون بينهما فارق بالحياة ، وعملية النفخ تجعل الرائي ينتظر تغييراً في الجسم كما يحدث ذلك في الكرة ونحوها إذا نفخ فيها ، فإذا وجدت الروح في هذا الهيكل الطيني تكون حدة الصدمة قد خفت لأن النفس كانت ترقب ما حدث ، وجميع المقدمات لا دخل لها مطلقا في وجود الحياة والروح ، وكذلك خلق عيسى من نطفة الأم فقط ، مع أن الحيوان في عالمنا لا يخلق إلا من نطفتي الأب والأم ، ونظام الكائنات يجري على سنن واحد إلا حيث يريد الله . وقد لطف الله بمريم فأراها ملكا في صورة بشر ، وقال لها سأهب لك غلاما زكياً ، فأجابته « أني يكون لي غلام

ولم يمسسني بشر ، فرؤية الملك والأحوال التي أحاطت به أوجدت عندها بعض الشك في أنها ربما حملت بطريق غير عادي وبهـــذا تهيأ احتمالها صدمة الحمل عند ما حصل . وكأن الله تعالى جعل النفخ يأخذ مكان نطفة الرجل وكأن تمثل الملك بصورة البشر كتمثل الطين بصورة الطير ، والنفخ في مريم كالنفخ في الطين ، وكل ذلك تقريب لفهم المعجزة وإلا فعيسى خلق من نطفة مريم والجزء الآخر بإذن الله وقدرته « كن فيكون » . . وسنن الله التي أوجدها في الكون كفل لها الاستمرار وعدم التبدل ، فقد قام عليها نظام العالم ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، وقد بدلت في المعجزات بالقدرة الإلهية التي تضع جميع السنن ، وكأن المعجزة سنة جديدة وقد أراد موسى أن يجتث أصول الشرك التي تغلغلت جذورها في نفوس قومه ، ويربأ بهم عن الذي ألفته نفوسهم بتقادم العهد واستعباد المصريين إياهم ، ويعودهم العزة والشمم والإباء بعبادة الله وحده . وكانوا لا يخطون خطوة إلا اجترحوا خطيئة ، وكلما عرض لهم شيء من مشاق السفر برموا بموسى وتحسروا على فراق مصر وتمنوا الرجوع إليها ، واستبطئوا وعد الله فطلبوا منه أن يجعل لهم إلها غير الله ، وصنعوا عجلا وعبدوه . وحينما أمرهم أن يدخلوا الأرض المقدسة التي وعدوا بها ، اعتذروا بالخوف من أهلها الجبارين . كما قصه الله علينا ، قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها ، فضرب الله عليهم التيه أربعين سنة حتى ينقرض ذلك الجيل الذي تأصلت فيه جذور الوثنية ويخرج جيل جديد يتربى على العقائد الحقة وفضائل الأخلاق فتاهوا هـــذه المدة وقضى الله أمراً كان مفعولا . فالمعجزات كلها من صنع الله ، وهي سنة جديدة غير ما نشاهد كل يوم ، فحركة الشمس وطلوعها من المشرق مع عظمها لا تحدث دهشة لتعودنا إياها ، ولكن إن طلعت من المغرب دون المشرق كان ذلك معجزة وأحدث غرابة ودهشة ، مع أن الحركتين من صنع الله لا فارق بينهما ولكي لا تحدث الصدمة حين حصول المعجزة يهيء الله الظروف لتحملها ويهيء النبي لقبولها

ويهيء الحاضرين لمشاهدتها وقبولها ، فأمر الله موسى بإدخال يده في جيبه وإخراجها بيضاء تهيئة لمعجزاته الأخرى ، وليس للعقل أن يحكم أن أى المعجزات أعظم من الأخرى لأنه يتكلم عن مجهول هو من صنع الله لا يعرفه ، فلا يمكن لإنسان مهما ارتقى عقله أن يصل إلى صنعها بل هى فوق قدرته ؛ أما المخترعات العلمية فهى مبنية على السنن العلمية ، مهما ظهرت مدهشة كالكهرباء والمسرة (التليفون) والذرة . وغاية ماهنالك أن العلماء سخروها لأغراضهم ، فالذى يتكلم فى أوربا ويسمع صوته فى مصر بوساطة (الراديو) إنما استطاع ذلك لأنه استخدم الهواء الذى يحمل أمواج الصوت إلى العالم كله ، وهكذا حال سائر المخترعات ، إنما هى كشف لناموس إلهى يتكرر دائما على يد كل إنسان ، لكن المعجزات تجرى على طراز آخر ، فهى خلق سنة جديدة فى الكون ، ولا تتكرر إلا بإذن الله ، ولا يعرف الإنسان لها قاعدة ولا يدرك طريقا لصنعها .

والمعجزة الثانية هى رفع الطور فوق رؤوسهم تهديدا لهم وإلزاما لهم بالعمل بما فى التوراة .

والطور : هو الجبل المعروف الذى ناجى فيه الله موسى عليه السلام ، ورفعه قد فسره فى سورة الأعراف فقال : « وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم » النتق الهز والزعزعة والجذب ، فالنتق فى الجبل كان بما يشبه الزلزال فيه . وقد حدثت هذه المعجزة الجليلة ورآها قوم موسى وآمنوا مرغمين . وبعد أن أخذ الله على بنى إسرائيل المواثيق التى ذكرها بقوله : « وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا » فقبلوها ، وأراهم من الآيات ما فيه مقنع لهم . رفع الجبل فوقهم كالظلة حتى ظنوا أنه واقع بهم ؛ وطلب إليهم التمسك بالكتاب والعمل بما فيه بالجد والنشاط ، كى يعدوا أنفسهم لتقوى الله ورضوانه ثم كان منهم أن أعرضوا عن ذلك وانصرفوا عن طاعته ، ولولا لطف الله بهم لاستحقوا العقاب فى الدنيا

وخسروا سعادة الآخرة وهى خير ثوابا وخير أملا ، لكن وفقهم الله بعد ذلك فتابوا ورحمهم فقبل توبتهم .

وما أكثر ما أظهر موسى لهم من معجزات ، وما أكثر ما دعاهم إلى الطاعة والإيمان ، ولكنهم لجوا فى الطغيان ، وانقلبوا من حقيقة الإنسان إلى حقيقة أخرى هى بمثابة العجماوات الضارية التى لا تعرف دينا ، ولا تهتدى بهدى ولا كتاب ولا رسول .

وفى هذه الآيات يقص الله عز وجل قصص بنى إسرائيل مع موسى ، وكان من قصص اليهود معه أنهم قالوا لموسى عليه السلام إنك ذكرت لنا يوم أخرجتنا من مصر أن الله تعالى بعثك لتنقذنا من عذاب فرعون ونراك الآن تحملنا على ماهو أشق علينا وبيننا وبين الأرض المقدسة التى وعدتنا مفاوز وقفار فكيف ندخلها ولا زاد معنا ولا ماء ، فأوحى الله تعالى إليه : ياموسى قل لهم إنى منزل عليهم المن والسلوى وقد أمرت الحجر أن يتفجر لهم بالماء العذب وأمرت الغمام أن يظلهم ويسير معهم حيث ساروا . فلما سمع اليهود ذلك طابت نفوسهم وساروا نحو الأرض المقدسة ، والغمام يظلهم فى مسيرهم والسماء تمطرهم المن وهو حلو الطعم . والريح تحمل إليهم السلوى وهو طائر السمان ويقرع موسى الحجر فتتفجر لهم اثنتا عشرة عينا تجرى كل عين إلى سبط من الأسباط فهم فى خفض من العيش وسعة من الرزق ودعة ، لعلهم يشكرون . ولكن بنى إسرائيل بطروا بنعمة ربهم وسئموا طعام المن والسلوى ، وقالوا ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها . فقال لهم موسى : أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ماسألتم ، يريد بذلك أن ينزلوا الأمصار العامرة ، وذلك لأن اليهود يقولون : إن نبيهم موسى عليه السلام قد حرم عليهم بنصوص التوراة الدخول إلى الديار المصرية من عهد أن خرجوا منها حين اتبعهم فرعون ، وأنهم لن يدخلوها بعد ذلك أبداً ، وأمر الله بنى إسرائيل بالمسير إلى الأرض المقدسة

التى يسكنها الكنعانيون الجبارون ، فخاف بنو إسرائيل سطوة الجبارين وقالوا ياموسى: إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها. فلما أمرهم الله بقتال الجبارين قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، فغضب موسى من قولهم هذا ولجأ إلى ربه فقال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . فقال له الله تعالى : إنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض ، ولما انقضت مدة التيه سار موسى ببنى إسرائيل إلى أريحا وكان أخوه هارون قد مات فى فترة التيه . ومات موسى بعد دخول بنى إسرائيل أرض فلسطين .

٦٧ — وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَٰهِلِينَ

٦٨ — قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ

٦٩ — قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّٰظِرِينَ

٧٠ — قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ

٧١ — قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِى الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْـَٰٔنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ

٧٢ — وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّٰرَءْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ

٧٣ — فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

٧٤ — ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

قصة أخرى لبنى إسرائيل مع رسولهم موسى عليه السلام . تدل على عصيانهم ولجاجهم وعنادهم وإبائهم ، وتدل على استحقاقهم ما استحقوه من غضب الله ونقمته .

وهذه القصة هى قصة البقرة التى سميت بها السورة ، بقرة بنى إسرائيل وفى هذا القصص بيان نوع آخر من مساوىء اليهود وصنيعهم مع نبيهم موسى عليه السلام لنعتبر به ونتعظ ، وفيه من وجوه العبرة أن التنطع فى الدين والإلحاف فى السؤال مما يقضى التشديد فى الأحكام ، ومن ثم نهينا عن ذلك بقول الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم » ، وبما جاء فى صحيح الحديث من قوله صلى الله عليه وسلم « وكره لكم قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال » .

وفيه كذلك أنهم أمروا بذبح بقرة دون غيرها من الحيوان ، لأنها من جنس ما عبدوه وهو العجل ليهون عندهم ماكانوا يرون من تعظيمه ، وليعلم بإجابتهم ما كان فى نفوسهم من حب عبادته .

وفى هذه الآيات أبلغ دلالة على استهزاء بنى إسرائيل بأوامر الأنبياء وفيها كذلك بيان أن القتيل قد أحيى بقتل حى ، وهذا أظهر لقدرته تعالى فى اختراع الأشياء من أضدادها .

وأول القصة معنى قوله تعالى « وإذ قتلتم نفسا » الخ إذ هى المخالفة التى صدرت منهم ، ثم ذكر المنة فى الخلاص منها فى قوله : « فقلنا اضربوه ببعضها » إلخ ؛ وقدم على ذلك وسيلة الخلاص منها وهى ذبح البقرة . . وهذا الأسلوب أدعى لتشويق السامع وأبعث له على البحث عن معرفة السبب فى ذبح البقرة والمفاجأة بحكاية ماكان من الجدل بين موسى وقومه ، فإن الحكمة فى أمر الله أمة بأن تذبح بقرة قد تخفى فيحرص السامع على طلبها . والكتاب الكريم لا يراعى ترتيب المؤرخين فى تنسيق الكلام على حسب الوقائع ، وإنما ينسق الكلام على الطريق الذى يستثير اللب ويأخذ بمجامع القلب ويستوخى شغف السامع بما يدور حوله الحديث . فقد ذكر الله عز وجل هذه القصة فى ثمانى آيات . وفى الآية الأخيرة منها بيان للعبرة من القصة .

والآية الأولى من هذه الآيات الثمانى ، هى قوله تعالى : « وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة . هى تذكير لهم بهذه القصة وبصنيعهم مع رسولهم موسى عليه السلام .

واذكر « إذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم » قرأ أبو عمرو بسكون الراء . . وأول هذه القصة هو كما سبق قوله تعالى . « وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها » ، وإنما قدمت عليه لاستقلاله بنوع آخر من مساوئهم وهو الاستهزاء بالأمر والاستقصاء فى السؤال وترك المسارعة إلى الامتثال ، وقصة البقرة هذه تتلخص فى أنه كان فيهم رجل غنى وله ابن عم فقير لا وارث له سواه ، فلما طال عليه موته قتله ليرثه وحمله إلى قرية أخرى فألقاه ببابها ثم أصبح يطلب ديته ، وجاء بناس إلى موسى يدعى عليهم القتل فسألهم فجحدوا فاشتبه أمر القتل على موسى ، قال الكلبى : وذلك قبل نزول القسامة فى التوراة فسألوا موسى ليدعو الله ليبين لهم بدعائه فدعا فأمرهم الله تعالى بذبح بقرة ويضربون القتيل ببعضها فيحيي فيخبر بقاتله . فقال موسى « إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا » ، أى أتستهزىء بنا ؟ نحن نسأل عن أمر القتيل

وتأمرنا بذبح بقرة ، وإنما قالوا ذلك استبعادا لما قاله واستخفافا به ، قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ، لأن الهزء فى مثل ذلك جهل وسفه ، نفى عن نفسه مارمى به على طريقة البرهان ، وأخرج ذلك فى صورة الاستعاذة استفظاعا له ، فلما علم القوم أن ذبح البقرة عزم من الله استوصفوه ، ولو أنهم عمدوا إلى أدنى بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم ، ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، وكان تحته حكمة ، وذلك أنه كان فى بنى إسرائيل رجل صالح له ابن طفل وله بقرة أتى بها إلى غيضة وقال : اللهم إنى استودعتك هذه لابنى حتى يكبر ومات الرجل فصارت العجلة فى الغيضة عوانا وكانت تهرب من كل من رآها ، فلما كبر الإبن كان بارا بوالدته فكان يقسم الليل أثلاثا يصلى ثلثا وينام ثلثا ويجلس عند رأس أمه ثلثا ، فإذا أصبح انطلق فاحتطب على ظهره فيأتى به السوق فيبيعه بما شاء الله ثم يتصدق بثلثه ويأكل ثلثه ويعطى والدته ثلثه ، فقالت له أمه يوما إن أباك ورثك عجلة استودعها الله فى غيضة كذا فانطلق وادع الله إله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق أن يردها عليك ، وعلامتها أنك إذا نظرت إليها يخيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلدها وكانت تلك البقرة تسمى الذهبية لحسنها وصفرتها ، فأتى الفتى الغيضة فرآها ترعى فصاح بها وقال : أعزم عليك بإله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب فأقبلت تسعى حتى قامت بين يديه فقبض على عنقها يقودها ، فتكلمت البقرة بإذن الله وقالت : أيها الفتى البار بوالدته اركبنى فإن ذلك أهون عليك ، فقال الفتى إن أمى لم تأمرنى بذلك ولكن قالت خذ بعنقها فقالت : البقرة بإله بنى إسرائيل لو ركبتنى ما كنت تقدر على أبدا فانطلق فإنك لو أمرت الجبل أن يتقطع من أصله وينطلق معك لفعل لبرك أمك فسار الفتى بها إلى أمه فقالت له : إنك فقير ويشق الاحتطاب عليك بالنهار والقيام بالليل فانطلق فبع هذه البقرة فقال : بكم أبيعها فقالت : بثلاثة دنانير ولا تبع بغير مشورتى ، وكان ثمن البقرة ثلاثة دنانير ، فانطلق بها إلى السوق فبعث الله ملكا ليرى خلقه قدرته وليختبر الفتى كيف بره بوالدته وكان الله به خبيرا ، فقال الملك بكم تبيع هذه البقرة ؟ قال بثلاثة دنانير وأشترط

عليك رضى والدتى فقال الملك : لك ستة دنانير . ولا تستأمر والدتك ، فقال الفتى لو أعطيتنى وزنها ذهبا لم آخذه إلا برضى أمى فردها إلى أمه فأخبرها بالثمن فقالت : ارجع فبعها بستة دنانير على رضى منى فانطلق بها إلى السوق وأتى الملك فقال : استأمرت أمك فقال الفتى : إنها أمرتنى أن لا أنقصها عن ستة دنانير على أن تستأمرها فقال الملك : إنى أعطيت اثنى عشر دينارا على أن لا تستأمرها فأبى الفتى ورجع إلى أمه وأخبرها بذلك فقالت إن الذى يأتيك ملك فى صورة آدمى ليختبرك . فإذا أتاك فقل له أتأمرنا أن نبيع هذه البقرة أم لا ، ففعل فقال الملك : اذهب إلى أمك وقل لها أمسكى هذه البقرة فإن موسى ابن عمران يشتريها منك لقتيل يقتل فى بنى إسرائيل فلا تبيعيها إلا بملء جلدها ذهبا ودنانير فأمسكوها وقدر الله تعالى على بنى إسرائيل ذبح تلك البقرة بعينها فما زالوا يستوصفونه إياها حتى وصف لهم تلك البقرة مكافأة لهم على بره بوالدته فضلا منه ورحمة .

والآية الثانية وهى قوله تعالى : « قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى » أى ما سنها وكان من حقه أن يقولوا أى بقرة هى « قال موسى إنه » أى ربى « يقول إنها بقرة لا فارض » أى مسنة وسميت فارضا لأنها فرضت سنها أى قطعتها وبلغت آخرها « ولا بكر » أى صغـــيرة « عوان » أى نصف أى وسط « بين ذلك » أى بين ما ذكر من الفارض والبكر .

وعنه عليه السلام : لو ذبحوا أى بقرة أرادوا لأجزأتهم ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، وتقريعهم بالتمادى وزجرهم عن المراجعة بقوله تعالى : « فافعلوا ما تؤمرون » به من ذبحها .

والآية الثالثة هى قوله تعالى : « قالوا ادع لنا ربك يبين لنا مالونها قال » أى موسى « إنه » أى ربى ، « يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها » أى شديد الصفرة ولذلك تؤكد به الصفرة فيقـال : أصفر فاقع كما يقال أسود حالك وعن الحسن سوداء شديدة السواد ، وبه فسر قوله تعالى « جمالات صفر » ، قال البيضاوى ، ولعله عبر بالصفرة عن السواد لأنه من مقدماته ، قال البغوى :

والأول أصح لأنه لا يقال : أسود فاقع إنما يقال أصفر فاقع وأسود حالك وأخضر ناصع ، «تسر الناظرين» إليها أى يعجبهم حسنها وصفاء لونها، والسرور أصله لذة فى القلب عند حصول نفع أو توقعه .

والآية الرابعة هى قوله تعالى : « قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى » أى أسائمة أم عاملة ، أو التقدير : ما هى تلك العلامة الفارقة ، وعلى هذا فليس تكرارا للسؤال الأول . « إن البقر » أى جنسه المنعوت « تشابه» أى التبس واشتبه أمره « علينا » لكثرته فلم نهتد إلى المقصود ، ولم يقل « تشابهت » لأن المراد جنس البقر أو لتذكير لفظ البقر كقوله تعالى : « أعجاز نخل منقعر » « وإنا إن شاء الله لمهتدون » إلى وصفها ، وفى الحديث لو لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد .

والآية الخامسة هى قوله تعالى : « قال » موسى « إنه » أى ربى « يقول إنها بقرة لا ذلول » أى غير مذللة بالعمل «تثير الأرض» تقلبها للزراعة والجملة صفة ذلول داخلة فى النفى « ولا تسقى الحرث » أى الأرض المهيئة للزراعة ولا الثانية مزيدة لتأكيد الأولى والفعلان صفتا ذلول كأنه قال لا ذلول مثيرة وساقية، « مسلمة» من العيوب وآثار العمل «لا شية» أى لا لون فيها سوى لون جميع جلدها ، قال مجاهد : لا بياض فيها ولا سواد ، قالوا الآن جئت » أى نطقت « بالحق » أى بالبيان الشافى الذى لا إشكال فيه فطلبوها فوجدوها عند هذا الفتى البار بأمه فاشتروها على ملء جلدها ذهبا كما قال الملك ، وقوله تعالى « فذبحوها » فيه اختصار والتقدير فحصلوا على البقرة المنعوتة فذبحوها «وما كادوا» أى ما قاربوا « يفعلون» لتطويلهم وكثرة مراجعتهم أو لخوف الفضيحة فى ظهور القاتل أو لغلاء ثمنها ، ولا ينافى قوله وما كادوا يفعلون قوله فذبحوها لاختلاف وقتيهما ، إذ المعنى ما قاربوا أن يفعلوا حتى انتهت سؤالاتهم وانقطعت تعللاتهم ففعلوا كالمضطر الملجأ إلى الفعل .

والآية السادسة هى قوله تعالى : «وإذ قتلتم نفسا» والخطاب فيها للجميع لوجود القتل فيهم « فادارأتم » أى تخاصمتم وتدافعتم « فيها » أى فى شأنها إذ

المتخاصمان يدفع بعضهم بعضا أى تدافعتم بأن طرح كل قتلها عن نفسه إلى صاحبه « والله مخرج » أى مظهر « ما كنتم تكتمون » فان القاتل كان يكتم القتـــل .

والآية السابعة « فقلنا اضربوه » أى القتيل ، عطف على « ادارأتم » وما بينهما اعتراض ، والضمير للنفس ، وتذكير الضمير على تأويل الشخص أو القتيل « ببعضها » أى ببعض البقرة ، واختلفوا فى ذلك البعض فقال ابن عباس رضى الله عنهما وأكثر المفسرين : ضربوه بالعظم الذى يلى الغضروف وهو مالان من العظام ، وقال مجاهد وسعيد بن جبير : بعجب الذنب لأنه أول ما يخلق وآخر ما يبلى ويركب عليه الخلق ، وقال الضحاك بلسانها قال الحسين ابن الفضل لأنه آلة الكلام ، وقال عكرمة والكلبى بفخذها الأيمن ، وقيل بعضو منها لا بعينه ، ففعلوا ذلك فقام القتيل حيا بإذن الله تعالى وقال قتلنى فلان ثم سقط ومات مكانه فحرم قاتله من الميراث وقتل .

قال تعالى . « كذلك » الإحياء « يحيى الله الموتى » والخطاب لمن حضر حياة القتيل أو نزول الآية ، « ويريكم آياته » أى دلائل قدرته « لعلكم تعقلون » لكى يكمل عقلكم وتعلموا أن من قدر على إحياء نفس قدر على إحياء الأنفس كلها فتؤمنون ، قال البيضاوى : ولعله تعالى إنما لم يحيه ابتداء وشرط فيه ماشرط لما فيه من التقريب وأداء الواجب ونفع اليتيم والشفقة على الأولاد ، وأن من حق الطالب أن يقدم قربة والمتقرب أن يتحرى الأحسن ويغالى بثمنه .

والآية الثامنة هى موضع العبرة من القصة وهى تدل دلالة واضحة على أخلاق بنى إسرائيل وعنادهم ، قال تعالى : « ثم قست قلوبكم » أيها اليهود أى صلبت من قبول الحق لأن القساوة عبارة عن الغلظة مع الصلابة كما فى الحجر وقساوة القلب مثل فى بعده عن الاعتبار ، وثم لاستبعاد القسوة عن الأحياء لا للتراخى فى الزمان ، على معنى أنه يبعد عن العاقل قسوة القلب بعد ظهور تلك الآية العظيمة « من بعد ذلك » المذكور من إحياء القتيل وماقبله من الآيات فإن ذلك مما يوجب لين القلب « فهى كالحجارة » فى قسوتها « أو أشد قسوة »

من الحجارة، وقيل (أو) بمعنى الواو كقوله: «مائة ألف أو يزيدون»، وإنما لم يشبهها بالحديد مع أنه أصلب من الحجارة لأن الحديد قابل للين فانه يلين بالنار وقد لان لداود عليه الصلاة والسلام، والحجارة لا تلين قط. ثم فضل الحجارة على القلب القاسي، فقال: «وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار» أى من بعض الحجارة كماء الينابيع المتفجر من الصخور، وقيل: أراد به الحجر الذى كان يضرب عليه موسى للأسباط «وإن منها لما يشقق فيخرج منه» أى من وسطه «الماء» عيونا دون الأنهار «وإن منها لما يهبط» أى ينزل من أعلى الجبل إلى أسفله «من خشية الله» أو المراد الجبال العالية التى تهبط فى بطن الأرض بتأثير البراكين وغيرها.. وقلوبكم لا تتأثر ولا تلين ولا تخشع يا معشر اليهود قيل الحجر جماد لا يفهم فكيف يخشى، فالجواب أن الله يفهمه ويلهمه فيخشى بالهامه. قال البغوى: ومذهب أهل السنة أن لله تعالى علما فى الجمادات وسائر الحيوانات سوى العقلاء لا يقف عليها غيره، فلها صلاة وتسبيح كما قال جل ذكره «وإن من شىء إلا يسبح بحمده» وقال تعالى: «ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر» الآية. فيجب على المرء الإيمان به ويكل علمه إلى الله سبحانه وتعالى.

روى البخارى عن جابر أنه قال كان النبى عليه السلام إذا خطب استند الى جذع نخلة من سوارى المسجد فلما صنع له المنبر فاستوى عليه اضطربت تلك السارية وحنت كحنين الناقة حتى سمعها أهل المسجد حتى نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاعتنقها فسكنت، وقال مجاهد لا ينزل حجر من أعلى إلى أسفل إلا من خشية الله ويشهد لذلك قوله تعالى: «لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله».. «وما الله بغافل» أى بساه «عما تعملون» وعيد وتهديد. وقيل بتارك عقوبة ما تعملون فيجازيكم به.

فى هذه الآيات الثمان يقص الله عز وجل قصة لتعنت بنى إسرائيل مع رسولهم موسى عليه السلام، ويبين قساوة قلوبهم، وانصرافهم عن الحق، وتماديهم فى الضلال، ويمثل قلوبهم فى قسوتها بالحجارة، أو هى أشد منها قسوة

فقد وصف الله عز وجل فى هذه الآيات الثمان حال بنى إسرائيل — بعد أن رأوا من آياته التى آتاها موسى عليه السلام ما رأوا ، كانفجار الماء ورفع الجبل ومسخهم قردة وخنازير وإحياء القتيل إلى نحو ذلك — ووصفهم بقساوة القلوب وضعف الوازع الدينى فيها حتى أصبحت كالصم الصلاد ، بل أشد منها قسوة ، فلا أثر فيها لعاطفة ولا شعور لها بعظة ، فقد فقدت التأثر والانفعال وكأن أصحابها هبطوا من درجة الحيوان إلى دركات الجماد كالحجارة ، بل نزلوا إلى ما دونها ، فإن من الحجارة ما يتأثر فيشقه الماء العذب الزلال الذى يسيل أنهارا وجداول وعيونا يستقى منها الإنسان والحيوان ويحيى الأرض وينفع النبات ، ومنها ما ينحط من أعلى الجبل ، أو من أثنائه بحادث من حوادث الكون الهائلة كالبراكين والزلازل والصواعق التى تدك الصخور وتدمر الحصون ، ، أما هذه القلوب فلم تتأثر بالعظات والعبر ولم تستطع تلك النذر أن تشقها وتنفذ إلى أعماق الوجدان فيها ، وصارت لا تهزها الآيات الكونية الرهيبة التى أظهرها الله على يد نبيه ، فقد كانوا مع كل ما يرونه لا يزدادون إلا عنادا ، وعتوا فى الأرض وفسادا .

وبهذه الآيات ينتهى الربع الرابع من سورة البقرة ، وفيه جوانب من من تاريخ بنى إسرائيل — اليهود — مع نبيهم موسى عليه السلام ، وتصوير لجحودهم وتماديهم فى الجدل والعناد ، وبعدهم عن قبول الحق والإذعان له ، ويبدأ بعد هذه الآيات الربع الخامس من سورة البقرة .

وفى هذه الآيات تصوير لقبول الحجارة لسنن الله التى يجريها عليها ، فينفجر الماء من بعضها ، ويخرج من بعضها الآخر ، ويهبط بعضها كذلك إلى أسفل من خشية الله . أما قلوب اليهود فلا تتأثر ولا تلين ، إنها فى ضلال مبين .

٧٥ — أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ

٧٦ — وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءامَنُوا قَالُوا ءامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ

٧٧ — أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ

٧٨ — وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَٰبَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ

٧٩ — فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ

٨٠ — وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ

٨١ — بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ

٨٢ — وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ

ثمان آيات أخرى فيها تصوير لجحود بنى إسرائيل وعنادهم ونفاقهم وصدودهم عن الدين الحق، دين الإسلام، دين القيمة، وفيها ذكر لتحريف علمائهم لكلام الله عن عمد وعلم بأثر ذلك، مع أمية بعض اليهود وقبولهم لما

يلقيه كهانهم عليهم من باطل وزور ، وتبيين لافترائهم على الله ، وتقرير لأن الجزاء عند الله إنما هو على قدر العمل ، فمن كسب سيئة أو أحاطت به خطيئته فهو فى النار ومن آمن وعمل صالحا فهو فى النعيم والرضوان

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه شديدى الحرص على دخول اليهود فى ساحة الدين الجديد طامعين فى انضوائهم تحت لوائه ، لأن دينهم أقرب الأديان إلى الإسلام فى تعاليمه ومبادئه وأغراضه ، فهم يشركونهم فى فى الاعتقاد بالتوحيد والتصديق بالبعث والنشور ، وكتابهم مصدق لما معهم ، فقص الله فى هذه الآيات على المؤمنين من أنبائهم ماأزال به اطماعهم وأيأسهم من إيمانهم ، بذكر ما كان يحدث من أسلافهم مع نبيهم موسى صلوات الله عليه بين آن وآخر من تمرد وعناد وجحود وإنكار فتأتيهم الآية تلو الآية ويحل بهم من العقاب ماهم له أهل فيطلبون من موسى أن يدعو الله ليرفع عنهم العذاب ويستجيبوا لدعوته ، حتى إذا ما رفعه عنهم عادوا سيرتهم الأولى معاندين جاحدين ، وقد بلغ من عنادهم أن قالوا له : لا نصدق بك ولا نطيع أوامرك حتى نسمع كلام الله ومناجاته إياك : فاختار موسى بأمر الله سبعين رجلا منهم لسماع الوحى ومصاحبته إلى حيث يناجى ربه ، فسمعوا كلامه بطريق نحن لا نعرفها ولا ندرك كنهها ، واستيقنوا مناجاته ربه وسمعوا أوامره ونواهيه ، ثم كان منهم أن حرفوا كلام الله الذى حضروا وحيه وصرفوه عن وجهه بالتأويل والتحريف ، وهذا مثبت عندهم فى التوراة وهى كتابهم المقدس . فلا عجب إذن فى إعراض الحاضرين عن هدى الله الذى جئت به يا محمد . فالمعارضة والاستكبار دأبهم ورثوهما من أسلافهم الذين كانوا يحرفون ويبدلون ويكابرون وهم يشاهدون الدلائل الحسية ترى بين يدى موسى عليه السلام ، فأحرىهم أن يجحدوا دينا دلائله عقلية وآيته الكبرى معنوية وهى القرآن الكريم ، بما اشتمل عليه من تشريع فيه سهولة وتيسير للناس ، وفيه فصاحة أعجزت فصحاء العرب عن محاكاته ، فلجئوا إلى السيف والسنان بعد أن أعجزتهم الحجة والبرهان ، ثم ذكر حالا أخرى لهم هى أن علماءهم وقعوا فى

الحيرة والاضطراب حين مجيء الدين الجديد ، أيتبعونه ولكن ربما خذله أتباعه . أم يحتفظون بالقديم ولكن ربما كسدت سوقه وقل أنصاره، وقالوا : من الخير كل الخير أن نوافق كل حزب نخلو به ونعتذر إلى الحزب الآخر إذا عرف ما كان منا حتى يتبين اتجاه ريح السفينة . أما عامتهم فلا علم لهم بشيء من الكتاب ، وما عندهم من الدين إلا ظنون أخذوها من أسلافهم دون أن يكون لديهم دليل على صحتها أو فسادها ، ومثل هذا لا يسمى علما ، وإنما العلم ما كان عن حجة وبرهان . ولا يقبل الله إلا العلم الصحيح فى عقائد الأديان.

ثم ذكر سبحانه فى هذه الآيات ضربا من ضروب غرورهم وصلفهم وادعائهم أنهم شعب الله المختار ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه ، فهو لا يعذبهم دوما بل يعذبهم تعذيب الأب ابنه والحبيب حبيبه وقتا قصيرا ثم يرضى عنهم .

قال تعالى : « أفتطمعون » أى أفترجون أيها المؤمنون ، وفى مقدمتكم محمد رسولكم الأمين ، « أن يؤمنوا » أى اليهود ، « لكم » أى لأجل دعوتكم أو يصدقوكم بما تخبرونهم به . « وقد كان فريق منهم » أى طائفة منهم . وهم أحبارهم وكهانهم ، « يسمعون كلام الله » أى التوراة « ثم يحرفونه » أى يغيرونه ، من مثل : نعت محمد صلوات الله عليه ، ومن مثل آية الرجم . وقيل هؤلاء من السبعين المختارين سمعوا كلام الله حين كلم موسى عليه الصلاة السلام بالطور ، ثم قالوا : سمعنا الله يقول فى آخره إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا وإن شئتم فلا تفعلوا . . « من بعد ما عقلوه » أى فهموه بعقولهم ولم يبق لهم فيه ريبة ، « وهم يعلمون » أنهم مفترون . والهمزة فى « أفتطمعون » للتعجب ، أو هى للانكار أى لا تطمعون فى إيمانهم فلهم سابقة فى الكفر .

ومعنى هذه الآية ، وهى الآية الأولى من الآيات الثمان أن اليهود لا يمكن أن يطمع فى إيمانهم بالإسلام ، بل إنهم لم يؤمنوا بدينهم حق الإيمان ، حتى أحبارهم وكهانهم ، الذين كان فريق منهم يعرفون التوراة عن علم ولكنهم حرفوها وغيروا فيها عن عمد .

والآية الثانية وهي قوله تعالى : « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا » أي إذا لقي منافقو اليهود المؤمنين نافقوهم وأعلنوا أنهم مؤمنون مثلهم ، وأنهم يعتقدون أن المؤمنين على الحق، ورسولهم هو المبشر به في التوراة. « وإذا خلا » أي رجع « بعضهم إلى بعض قالوا » أي رؤساؤهم الذين لم ينافقوا ككعب ابن الأشرف وكعب بن أسد ووهب بن يهود لمن نافق « أتحدثونهم » أي المؤمنين « بما فتح الله عليكم » أي بما بين لكم في التوراة من نعت محمد صلى الله عليه وسلم « ليحاجوكم » أي ليخاصموكم « به عند ربكم » أي بما أنزل ربكم في كتابه ويقيموا عليكم الحجة بترك اتباعه مع علمكم بصدقه ، جعلوا محاجتهم بكتاب الله محاجة عند الله كما يقال: عند الله كذا ويراد به أنه في كتابه وحكمه وقيل : بين يدي رسول ربكم وقيل عند ربكم في الآخرة . وقوله تعالى : « أفلا تعقلون » إما من تمام كلام اللائمين وهم خلص اليهود وتقديره : أفلا تعقلون أنهم يحاجوكم فيحججونكم ، وإما خطاب من الله للمؤمنين متصل بقوله أفتطمعون والمعنى : أفلا تعقلون حالهم وأنه لا مطمع لكم في إيمانهم ؟ .

والآية الثالثة تدل على شمول علم الله عز وجل لكل ما ظهر وما خفي . « أو لا يعلمون » أي اللائمون أو المنافقون أو كلاهما ، « أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون » من إسرارهم للكفر وإعلانهم للايمان وإخفاء ما فتح الله عليهم وإظهار غيره وغير ذلك فيرعووا عن ذلك .

والآية الرابعة بيان لأمية طبقة الكهان اليهود وإضلالهم الناس « ومنهم » أي اليهود « أميون » أي عوام جهلة « لا يعلمون الكتاب » أي لا يعرفون التوراة ، أو الكتابة فيطالعون التوراة ، ويتحققون ما فيها . وقوله تعالى: « إلا أماني » أي لكن أكاذيب تلقوها من رؤسائهم فاعتمدوها « وإن هم » أي ماهم « إلا » قوم « يظنون » ظنا لا علم لهم ، وقد يطلق الظن بإزاء العلم على كل رأي واعتقاد من غير دليل قاطع وإن جزم به صاحبه كاعتقاد المقلد وكالزائغ عن الحق بسبب شبهة قامت عنده .

والآية الخامسة بيان لجزائهم الشديد عند الله ؛ وعقابهم الأليم الذي سوف

ينالونه « فويل » الويل الهلاك ، وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنه هو شدة العذاب . وقيل : الويل واد فى جهنم يعذب فيه العصاة والكافرون . « الذين يكتبون الكتاب » أى المحرف من التأويلات الزائغة « بأيديهم » تأكيد كقوله كتبته بيمينى « ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا » من الدنيا وهم اليهود غيروا صفة النبى صلى الله عليه وسلم فى التوراة وآية الرجم وغيرهما فكتبوها على خلاف ما أنزل ، وغيروا آية الرجم بالجلد « فويل لهم مما كتبت أيديهم » من المحرف « وويل لهم مما يكسبون » من أموال حرام كالرشوة وغيرها .

وفى الآية السادسة تهكم وسخرية من اليهود وصنيعهم « وقالوا » أى اليهود لما وعدهم النبى صلى الله عليه وسلم النار « لن تمسنا » أى تصيبنا « النار إلا أياما معدودة » محصورة قليلة ، ثم كذبهم الله تعالى بقوله : « قل » لهم يا محمد « أتخذتم » حذف منه همزة الوصل استغناء بهمزة الاستفهام « عند الله عهدا » أى ميثاقا مؤكدا « أم تقولون على الله مالا تعلمون » أى بل تقولون على التقرير والتقريع .

والآية السابعة فيها بيان لاستحقاقهم للعذاب كغيرهم من العصاة الجاحدين فكل إنسان يدان بعمله ، يجازى على ما كسب من سيئات وكفر وعناد « بلى » إثبات لما نفوه من مساس النار لهم فان (بلى) و(بل) حرفا استدراك ومعناهما نفى الخبر الماضى وإثبات الخبر المستقبل أى بل تمسكم وتخلدون فيها « من كسب سيئة » أى قبيحة « وأحاطت به خطيئته » وقرأ نافع خطيئاته ، أى استولت عليه وشملت جميع أحواله حتى صار كالمحاط بها لا يخلو عنها شىء من جوانبه وهذا يصح فى شأن الكافر ، إذ غيره وإن لم يكن له سوى تصديق قلبه وإقرار لسانه فإن الخطيئة لم تحط به ، ولذلك فسرها السلف بالكفر وقيل : السيئة الكبيرة ، والإحاطة أن يصر عليها لأن من أذنب ذنبا وارتكب ما هو أكبر منه حتى تستولى عليه الذنوب وتأخذ بمجامع قلبه فيصير بطبعه مائلا إلى المعاصى مستحسنا إياها معتقدا أن لا لذة سواها مبغضا لمن يمنعه عنها مكذبا لمن ينصحه بالبعد

عنها كما قال تعالى « ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى أن كذبوا بآيات الله » والفرق بين السيئة والخطيئة أن السيئة قد تقال فيما يقصد بالذات والخطيئة تغلب فيما يقصد بالعرض لأنها من الخطأ ، والكسب استجلاب النفع ، وتعليقه بالسيئة على التهكم كقوله تعالى فبشره بعذاب أليم « فأولئك أصحاب النار » أى يلازمونها فى الآخرة كما أنهم ملازمون لأسبابها « هم فيها خالدون » أى دائمون روعى فيه معنى من . والآية كما ترى لا حجة فيها على خلود صاحب الكبيرة لأنها فى الكافر كما مر .

والآية الثامنة تقرير لمنزلة طائفة أخرى عند الله تعالى وهم أضداد أولئك من المؤمنين الصادقين فى الإيمان ، الذين استحقوا رضاء الله وثوابه وجناته وفى ذلك بيان للفرق بين طبقة الكافرين والمؤمنين ، والأشقياء والسعداء ، وحث للعاقل لكى يعمل عمل أهل السعادة .. « والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » ، فلقد جرت عادته سبحانه على أن يتبع وعده بوعيده لترجى رحمته ويخشى عذابه . وعطف العمل على الإيمان يدل على أن « يعمل » ليس داخلا فى مفهوم الإيمان .

والمعنى : أولئك جديرون بدخول الجنة جزاء وفاقا على إخباتهم لربهم وإنابتهم إليه وإخلاصهم له فى السر والعلن وفى هذا دليل على أن دخول الجنة منوط بالإيمان الصحيح والعمل الصالح معا كما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لسفيان بن عبد الله الثقفى وقد قال له : يا رسول الله ، قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك ، قال : قل آمنت بالله ثم استقم . رواه مسلم .

٨٣ — وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ

٨٤ — وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ

٨٥ — ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

٨٦ — أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ

أربع آيات كريمة فيها بيان لصنيع بنى إسرائيل فى عصر موسى وفى عصر نبينا عليه الصلاة السلام ، من إعراضهم عن العمل بما فرض عليهم من شرائع وواجبات ، ومن سفكهم للدماء ، واعتدائهم على حقوق المسالمين الوادعين وإيمانهم ببعض التوراة وكفرهم ببعضها ، إلى غير ذلك من سوء صنيعهم وقبيح أعمالهم ، البالغة فى العناد والكفر والضلال ، مبلغا كبيرا ، وكم كان لهم من سيئات وإساءات فى عصر نبينا عليه السلام ، فهذا كعب بن الأشرف يسرف فى إيذاء المسلمين حتى يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله فقام محمد بن مسلمة فقال يارسول الله أتحب أن أقتله قال نعم قال فأذن لى أن أقول شيئا قال قل ، فأتاه محمد بن مسلمة فقال إن هذا الرجل قد سألنا صدقة وإنه قد عنانا وإنى قد أتيتك أستسلفك قال وأيضا والله لتملنه قال إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أى شىء يصير شأنه

وقد أردنا أن تسلفنا وسقا أو وسقين فقال نعم أرهنونى قالوا أى شىء تريد قال : ارهنونى نساءكم قالوا : كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب قال فارهنونى أبناءكم قالوا كيف نرهنك أبناءنا ، فيسب أحدهم فيقال رهن بوسق أو وسقين هذا عار علينا ولكننا نرهنك اللأمة فواعده أن يأتيه فجاءه ليلا ومعه أبو نائله وهو أخو كعب من الرضاعة فدعاهم إلى الحصن فنزل إليهم فقالت له امرأته : أين تخرج هذه الساعة ؟ فقال : إنما هو محمد بن مسلمة وأخى أبو نائلة قالت : إنى أسمع صوتا كأنه يقطر منه الدم . قال : إنما هو أخى محمد بن مسلمة ورضيعى أبو نائلة ، إن الكريم لو دعى إلى طعنة بليل لأجاب، قال : ويدخل محمد بن مسلمة ومعه رجلين وفى رواية أبو عبس بن جبر والحارث بن أوس وعباد بن بشر فقال : إذا ما جاءنى فإنى قائل بشعره فأشمه فإذا رأيتمونى استمكنت من رأسه فدونكم فاضربوه وقال مرة ثم أشمكم فنزل إليهم متوشحا وهو ينفح منه ريح الطيب فقال : ما رأيت كاليوم ريحا أى أطيب ، فقال : عندى أعطر نساء العرب وأكمل العرب فقال : أتأذن لى أن أشم رأسك ؟ ل : نعم ، فشمه ثم أشم أصحابه ثم قال : أتأذن لى ؟ قال : نعم. فلما استمكن منه قال : دونكم ، فقتلوه ، ثم أتوا النبى صلى الله عليه وسلم فأخبروه .

وهذا أبو رافع اليهودى بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه رجالا من الأنصار فأمر عليهم عبد الله بن عتيك وكان أبو رافع يؤذى رسول الله ﷺ ويعين عليه وكان فى حصن له بأرض الحجاز فلما دنوا منه وقد غربت الشمس وراح الناس بسرحهم فقال عبد الله لأصحابه اجلسوا مكانكم فانى منطلق ومتلطف للبواب لعلى أن أدخل فأقبل حتى دنا من الباب ثم تقنع بثوبه كأنه يقضى حاجة وقد دخل الناس فهتف به البواب يا عبدالله ان كنت تريد أن تدخل فادخل فإنى أريد أن أغلق الباب فدخلت فكمنت فلما دخل الناس أغلق الباب ثم علق الأغاليق على وتد قال فقمت إلى الأغاليق فأخذتها ففتحت الباب وكان أبو رافع يسمر عنده وكان فى علالى له فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت اليه فجعلت كلما فتحت بابا أغلقت على من داخل قلت ان القوم نذروا

بى لم يخلصوا إلى حتى أقتله فانتهيت إليه فاذا هو مظلم وسط عياله لا أدرى أين هو من البيت فقلت أبا رافع فقال: من هذا فأهويت نحو الصوت وأضربه ضربة بالسيف وأنا دهش فما أغنيت شيئا وصاح، فخرجت من البيت فأمكث غير بعيد ثم دخلت إليه فقلت ما هذا الصوت يا أبا رافع فقال لأمك الويل إن رجلا فى البيت ضربنى قبل بالسيف فأضربه ضربة أثخنته ولم أقتله ثم وضعت ظبة السيف فى بطنه حتى أخذ فى ظهره فعرفت أنى قتلته فجعلت أفتح الأبواب بابا بابا حتى انتهيت إلى درجة له فوضعت رجلى وأنا أرى أنى قد انتهيت إلى الأرض فوقعت فى ليلة مقمرة فانكسرت ساقى فعصبتها بعمامة ثم انطلقت حتى جلست على الباب فقلت لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته فلما صاح الديك قام الناعى على السور فقال أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز. فانطلقت إلى أصحابى فقلت النجاء فقد قتل الله أبا رافع فانتهيت إلى النبى صلى الله عليه وسلم فحدثته فقال لى: ابسط رجلك فبسطت رجلى فمسحها فكأنما لم اشتكها قط.

وفى الآية الأولى من هذه الآيات الأربع تذكير بأهم ما أمر الله جل جلاله به أسلافهم من عبادات ومعاملات، ثم ما كان منهم من إهمالها وترك اتباعها، وقد كرر ذلك أيضا فيما يلى، لأن المقام يحتاج إلى الإطناب والبسط، ولأن القلوب مستحجرة لا ينفذ شعاع الحق فى أكنانها، وأذهانهم كليلة فهى فى حاجة إلى التكرار بين آن وآخر؛ لعلها ترجع إلى رشدها، وقد خوطب النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنون بهذا ليؤديهم التأمل فى أحوالهم إلى قطع الطمع فى إيمانهم لأن قبائح أسلافهم تمنعهم من الهدى والرشاد قال حكيم: «إذا طاب أصل المرء طابت فروعه».

والآية الأولى: «وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل» فيها تذكير لهؤلاء المعاصرين للرسول الأعظم بقصة أجدادهم وكفرهم وعنادهم، والميثاق المأخوذ عليهم هو ما أخذ عليهم فى التوراة من عهد والتزام لشريعة موسى، والميثاق العهد الشديد المؤكد، وقد أخذ هذا العهد عليهم على لسان موسى وأنبياء بنى إسرائيل، والعهد قسمان: عهد خلقة وفطرة، وعهد نبوة ورسالة، والمراد

هنا عهـــد الرسالة الذى أخذه عليهم على لسان أنبيائهم ؛ أى واذكر أيها الرسول حين أخذنا عليهم الميثاق ، وليس المراد بالذكر زمن الميثاق ، وإنما المراد الميثاق نفسه .

والآية الثانية « لا تعبدون إلا الله » بيان للميثاق يقال: أخذت عليك عهدا أن تفعل كذا ، وأن تفعل كذا ، ويرد مثل هذا الخبر فى كلامهم متضمنا معنى النهى أو الأمر كما تقول: تذهب إلى فلان وتقول له كيت وكيت ، على معنى اذهب وقل له . وفى هذا الأسلوب القرآنى مبالغة وتوكيد كأن المخاطب سيمتثل النهى حتما ويسارع الى الترك فيخبر الناهى به ، أى لا تعبدوا إلا الله وقد نهوا عن عبادتهم غير الله مع أنهم كانوا يعبدون الله خوفا من أن يشركوا به سواه من ملك أو بشر أو صنم بدعاء أو غيره من أنواع العبادات . ودين الله على ألسنة الرسل جميعاً فيه الحث على عبادة الله وعدم الشرك بعبادة أحد سواه « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً » فالتوحيد عماده الأمران معاً .

وقوله تعالى « لا تعبدون » إخبار فى معنى النهى وهو أبلغ من النهى الصريح لما فيه من إيهام أن المنهى مسارع إلى الانتهاء فهو مخبر عنه ، وقوله تعالى : « وبالوالدين إحسانا » أى برا بهما وعطفا عليهما ونزولا عند أمرهما فيما لا يخالف أمر الله تعالى ، و«إحسانا» منصوب على المصدر المؤكد لعامله أى « وتحسنون » أو « وأحسنوا » وتقديم الوالدين لمزيد الاهتمام بهما ، وأن الإحسان يجب أن يكون لهما أولا قبل غيرهما ، لما لهما من فضل كبير على الإبن. «وذى القربى» أى القرابة « واليتامى والمساكين » عطف على الوالدين ، واليتامى جمع يتيم وهو الطفل الذى لا أب له كنديم وندامى وهو قليل ، مسكين مفعيل من السكون كأن الفقر مسكنة « وقالوا للناس حسنا » من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصدق فى شأن محمد صلى الله عليه وسلم والرفق بهم وقيل هو اللين فى القول والمعاشرة بحسن الخلق وقرأ حمزة والكسائى بفتح الحاء والسين والباقون بضم الحاء وسكون السين مصدر أو وصف به مبالغة « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » ، قال البيضاوى: يريد الله عز وجل بهما مافرض عليهم فى ملتهم

« ثم توليتم » فى هذا التفات عن الغيبة ، قال البيضاوى : ولعل الخطاب مع الموجودين منهم فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن قبلهم على التغليب أى أعرضتم عن الميثاق ورفضتموه « إلا قليلا منكم » أى وهو من أقام اليهودية على وجهها قبل النسخ ومن أسلم منهم « وأنتم معرضون » أى عادتكم الإعراض عن المواثيق كإعراض آبائكم .

والآية الثانية : « وإذ أخذنا ميثاقكم » أى اذكروا ذلك واعتبروا به.. وقلنا « لاتسفكون دماءكم » أى تريقونها بقتل بعضكم بعضا . « ولاتخرجون أنفسكم من دياركم » أى لا يخرج بعضكم بعضاً من داره وإنما جعل غير الرجل نفسه لا تصاله به نسبا أو دينا ، وقيل: لا تفعلوا ما يردكم ويصرفكم عن الحياة الأبدية فإنه القتل فى الحقيقة ولا تقترفوا ماتمنعون به عن الجنة التى هى داركم . « ثم أقررتم » بهذا العهد أنه حق وقبلتم « وأنتم تشهدون » على أنفسكم ، هذا توكيد كقوله أقر فلان شاهدا على نفسه . وقيل أنتم أيها المشهودون تشهدون على إقرار أسلافكم فيكون إسناد الإقرار إليهم مجازاً .

والآية الثالثة نعى عليهم بقبيح أعمالهم «ثم أنتم» يا «هؤلاء تقتلون أنفسكم» فيه استبعاد لما ارتكبوه بعد الميثاق والإقرار والشهادة عليه ، أى ثم بعد ذلك يقتل بعضكم بعضا «وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون» قرأعاصم وحمزة والكسائى بتخفيف الظاء والباقون بتشديدها أى تتعاونون ، « عليهم بالإثم » أى المعصية «والعدوان» أى الظلم ، « وإن يأتوكم أسارى » قرأحمزة بفتح الهمزة وسكون السين ولا ألف بعد السين ، والباقون بضم الهمزة وفتح السين وألف بعدها « تفادوهم » أى تنقذونهم من الأسر بالمال أو غيره ، وقوله تعالى : « وهو » أى الشأن «محرم عليكم إخراجهم» متعلق بقوله تعالى : « وتخرجون فريقا منكم من ديارهم » وما بينهما اعتراض ، ومعنى الآية أن الله أخذ على بنى إسرائيل العهد فى التوراة أن لايقتل بعضهم بعضا ولايخرج بعضهم بعضا من ديارهم وترك المظاهرة عليهم مع أعدائهم ، وأيما عبد أو أمة وجدتموه من بنى إسرائيل أسيراً فاشتروه بما قام من ثمنه وأعتقوه ، وكانت قريظة حالفوا

الأوس وحالفت النضير الخزرج فكان كل فريق يقاتل مع حلفائه ويخرب ديارهم ويخرجهم منها ، فإذا أسروا أحدا فدوه وكانوا إذا سئلوا: لم تقاتلونهم وتفدونهم ؟ قالوا أمرنا بالفداء ، فيقال : فلم تقاتلونهم فيقولون حياء أن يستذل حلفاؤنا، فعيرهم الله تعالى بقوله : « أفتؤمنون ببعض الكتاب » ، وهو الفداء وتكفرون ببعض » وهو ترك القتل والإخراج والمظاهرة .

وفى التعبير عن المخالفة والمعصية بالكفر – كما يقول الإمام محمد عبده – دليل على أن من يقدم على الذنب لا يتألم ولا يندم بعد وقوعه ، بل يسترسل فيه بلامبالاة بنهى الله عنه وتحريمه له ، فهو كافر به ، وهذا هو الوجه فى الأحاديث الصحيحة نحو « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن .» فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب » هذا وعيد من الله لهم على نقضهم الميثاق – الذى جعلهم أمة واحدة ذات شريعة هى رباط وحدتهم بخزى عاجل فى الحياة وعذاب آجل فى الآخرة ، وقد دلت المشاهدة على أن كل أمة تفسق عن أمر ربها وتطرح أوامر دينها وراءها ظهريا يتفرق شملها وينزل بها عذاب الهون جزاء فساد أخلاقها وكثرة شرورها . أما من استقاموا على الطريقة وزكت نفوسهم وصلحت أحوالهم فلهم عند ربهم نعيم مقيم ، يرشد إلى ذلك قوله : « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » ، « وما الله بغافل عما تعملون » فهو مجازيكم على ما اجترحتم من السيئات ، ولا يخفى ما فى هذا من وعيد شديد وزجر عظيم .

وأما الآية الرابعة ففيها بيان لجزائهم الأليم فى الآخرة قال تعالى « أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة » أى أولئك الذين آثروا الحياة الدنيا واستبدلوها بالآخرة ، فقدموا حظوظهم فى هذه الحياة على حظوظهم فى الحياة الأخرى بما أهملوا من الشرائع وتركوا من أوامرها التى يعرفونها كما يعرفون أبناءهم كالانتصار للحليف المشرك ومظاهرته على قومه الذين تجمعهم وإياه رابطة الدين والنسب ، وإخراج أهله من دياره ابتغاء مرضاته . « فلا يخفف

عنهم العذاب، يوم القيامة، ولا هم ينصرون، لأن أعمالهم قد سجلت عليهم الشقاء، وأحاطت بهم الخطايات من كل جانب، فسدت عليهم باب الرحمة، وقطعت عنهم الفيض الإلهي، فلا يجدون شافعا ينصرهم، ولا وليا يدفع عنهم ماحل بهم من النكال والوبال في جهنم وبئس القرار.

هذه الآيات الأربع فيها من سوء حال اليهود وكفرهم وعنادهم وطغيانهم وافترائهم على الله مافيها، وبئس ما صنعوا وما كانوا يصنعون.

٨٧ — وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ، فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ

٨٨ — وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ

٨٩ — وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَٰفِرِينَ

٩٠ — بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ

٩١ — وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ

٩٢ — وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ

٩٣ — وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ

سبع آيات كريمة فيها تصوير وأى تصوير لطبيعة نفوس اليهود الذين مرنوا على الشقاق، ودأبوا على الخلاف، وآثروا الكفر، واختاروا المعصية، وآمنوا ببعض وكفروا ببعض، وهى نفوس مريضة لا تؤمن بفضيلة. ولا تهوى المثل الشريفة، ولا تلوذ بالمنطق والعقل وحكم الفكر، وإنما تؤثر الشجب والهوى والخلاف.. وبئسما كانوا يفعلون.

أما الآية الأولى فتصور وحدة الدين تصويرا رائعا، وأن اليهودى لمجرد إيمانه باليهودية لا يصح أن يغفل ما نزل بعدها من الأديان ولا أن يظن أن إيمانه باليهودية وحدها يعصمه من عذاب الله. يقول الله تعالى: «ولقد آتينا» أى أعطينا «موسى الكتاب» أى التوراة جملة واحدة «وقفينا من بعده بالرسل» أى أتبعناهم رسولا فى أثر رسول كقوله تعالى: ثم أرسلنا رسلنا تترى يقال قفاه إذا أتبعه إياه «وآتينا عيسى بن مريم البينات» أى المعجزات الواضحات كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار بالمغيبات أو الإنجيل وعيسى بالعبرية يسوع ومريم بمعنى الخادم «وأيدناه» أى قويناه «بروح القدس» قرأ ابن كثير بإسكان الدال حيث جاء، والباقون بضمها، وهذا من إضافة الموصوف إلى الصفة أى الروح المقدسة وهو جبريل وصف به لطهارته، وتأييده به أنه أمر أن يسير معه حيث سار حتى يصعد به السماء، وقيل روح عيسى عليه الصلاة والسلام، ووصفها به لطهارته عن مس الشيطان أو لأنه لم

تضمه الأصلاب والأرحام الطوامث من ذوات الحيض ، وقيل اسم الله الأعظم الذى كان يحيى به الموتى ، ولما سمعت اليهود ذكر عيسى عليه الصلاة والسلام قالوا يا محمد لا مثل عمل عيسى كما تزعم عملت ولا كما تقص علينا من فعل الأنبياء فعلت فأتنا بما أتى به عيسى إن كنت صادقا . فقال الله تعالى : « أفكلما جاءكم » يا معشر اليهود « رسول بما لا تهوى » أى تحب « أنفسكم » من الحق وقوله تعالى : « استكبرتم » أى تكبرتم عن اتباعه وهو جواب كلما وهو محل الاستفهام والمراد به التوبيخ . « ففريقا » أى طائفة « كذبتم » مثل موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام « وفريقا تقتلون » كزكريا ويحيى ، وذكر الفعل بلفظ المضارع على حكاية الحال الماضية ، استحضارا لها فى النفوس .

والآية الثانية فيها قرار من اليهود على أنفسهم بالغباء وبالإصرار على العناد والكفر « وقالوا » للنبى استهزاء « قلوبنا غلف » جمع أغلف ، مغشاة بأغطية لا يتوصل إليها ما جئت به ولا نفقهه مستعار من الأغلف الذى لم يختن كقولهم « قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه » ، والمعنى أنها أوعية العلم لا تسمع علما إلا وعته ولا تعى ما تقول ، أى فما تقول ليس بعلم « أونحن مستغنون بما فيها عن غيره » ثم رد الله تعالى عليهم أن تكون قلوبهم كذلك بقوله تعالى : « بل » إضراب « لعنهم الله بكفرهم » أى بسبب كفرهم والمعنى أنها خلقت على الفطرة والتمكن من قبول الحق ولكن الله خذلهم بكفرهم فأبطل استعدادهم كما قال الله تعالى : فأصمهم وأعمى أبصارهم وهم كفرة ملعونون فمن أين لهم دعوى العلم والاستغناء عنه ؟ « فقليلا ما يؤمنون » ما مزيدة لتأكيد القلة أى إيمانهم إيمان قليل جداً وهو إيمانهم ببعض الكتاب وقيل أراد بالقلة العدم .

والآية الثالثة تصور كفرهم برسالة محمد كما كفروا برسالة عيسى ، يقول الله تعالى : « ولما جاءهم كتاب من عند الله » هو القرآن « مصدق لما معهم » من كتابهم وهو التوراة لا يخالفه « وكانوا » أى اليهود « من قبل » مجيئه « يستفتحون » أى يستنصرون « على الذين كفروا » أى مشركى العرب إذا قاتلوهم يقولون اللهم انصرنا عليهم بالنبى المبعوث فى آخر الزمان الذى نجد صفته ونعته فى

التوراة ويقولون لأعدائهم من المشركين : قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، « فلما جاءهم » أي اليهود « ما عرفوا » من الحق وهو بعثة النبي صلى الله عليه وسلم « كفروا به » حسداً أو خوفاً على الرياسة وجواب لما الأولى دل عليه جواب لما الثانية ، « فلعنة الله » أي عذابه وطرده « على الكافرين » أي عليهم ، وإنما أتى بالمظهر للدلالة على أنهم لعنوا لكفرهم .

والآية الرابعة فيها تهديد وفيها بيان لمصيرهم الذي ينتظرهم لحسدهم الذي تمكن من نفوسهم ، « بئسما اشتروا » أي باعوا « به أنفسهم » أي حظها من الثواب « أن يكفروا » أي كفرهم « بما أنزل الله » من القرآن « بغيا » أي حسداً وطلبا لما ليس لهم وهو علة يكفروا أو اشتروا ، وحسدوه على « أن ينزل الله من فضله » اى الوحي « على من يشاء » الرسالة « من عباده » وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، « فباءوا » اى رجعوا « بغضب على غضب » أي مع غضب ، واختلف في معنى ذلك : فقال ابن عباس ومجاهد الغضب الأول بتضييعهم التوراة وتبديلهم والثاني بالكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقال السدي : الأول بكفرهم بعبادة العجل والثاني بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقال قتادة الأول بكفرهم بعيسى والإنجيل ، والثاني بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن « وللكافرين عذاب مهين » أي ذو إهانة بخلاف عذاب العاصي فإنه طهرة الذنوب .

وفي الآية الخامسة تأكيد لكفرهم بالرسالات المنزلة بعد موسى . وتصليهم مع الأنبياء والمرسلين « وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله » من القرآن وغيره فيعم سائر الكتب المنزلة « قالوا نؤمن بما أنزل الله علينا » أي التوراة يكفينا ذلك « ويكفرون » الواو للحال « بما وراءه » أي بما سواه من الكتب لقوله تعالى : « فمن ابتغى وراء ذلك » أي سواه ، وقال أبو عبيدة بما بعده من القرآن ، وقوله تعالى : « وهو » أي ما وراءه « الحق مصدقا لما معهم » أي

من التوراة حال ثانية مؤكدة تضمن رد مقالهم فإنهم لما كفروا بما يوافق التوراة فقد كفروا بها ثم اعترض الله تعالى بقتل الأنبياء مع ادعائهم الإيمان بالتوراة بقوله تعالى « قل » لهم يا محمد : « فلم تقتلون » أي قتلتم « أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين » بالتوراة والتوراة لا تسوغه بل نهيتم فيها عن قتلهم ، والخطاب للموجودين فى زمن نبينا صلى الله عليه وسلم بما فعل آباؤهم لرضاهم به وعزمهم عليه .

أما الآية السادسة ففيهـــا بيان لسابق كفرهم بالتوراة وبموسى عليه السلام ولعبادتهم العجل وكفرهم بالله : « ولقد جاءكم موسى بالبينات » أى الآيات التسع فى قوله تعالى : ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات كالعصى واليد وفلق البحر « ثم اتخذتم العجل » أى إلها « من بعده » أى بعد ذهابه إلى الميقات . وقوله تعالى : « وأنتم ظالمون » أى باتخاذه أى اتخذتم العجل ظالمين بعبادتها وبالإخلال بآيات الله أو وأنتم عادتكم الظلم .

وفى الآية السابعة بيان لعجيب عنادهم وأنهم لم يرجعوا عن كفرهم وعبادة العجل إلا بعد أن رأوا عذاب الله عيانا « وإذ أخذنا ميثاقكم » على العمل بما فى التوراة وقد « رفعنا فوقكم الطور » أى الجبل حين امتنعتم من قبولها ليسقط عليكم وقلنا « خذوا ما آتيناكم بقوة » أى بجد واجتهاد « واسمعوا » ما تؤمرون به سماع قبول « قالوا سمعنا » قولك « وعصينا » أمرك ، وقيل سمعنا بالآذان وعصينا بالقلوب ، قال أهل المعانى إنهم لم يقولوا هذا بألسنتهم ولكن لما سمعوا بالآذان وتلقوه بالعصيان نسب ذلك إلى القول اتساعا « وأشربوا فى قلوبهم العجل » أى خالط حبه قلوبهم كما يتداخل الشراب أعماق البدن وفى قلوبهم بيان لمكان الإشراب كقوله تعالى : « إنما يأكلون فى بطونهم نارا » . « بكفرهم » أى بسبب كفرهم وذلك أنهم جسمية أو حلولية ولم يروا جسما أعجب منه فتمكن من قلوبهم ما سول لهم السامرى « قل » لهم يا محمد « بئس ما » أى شيئا « يأمركم به إيمانكم » بالتوراة عبادة العجل وإسناد الأمر إلى إيمانهم

تهكم كما قال قوم شعيب أصلاتك تأمرك بإسناد الإيمان إليها وقوله تعالى : « إن كنتم مؤمنين » فيه تهكم وسخرية بهم .

وتكرار آية أخذ الميثاق ورفع الطور فى سورة البقرة لغرابة هذه المعجزة الخارقة التى ليس لها مثيل فى روعتها وفى قهرها لنفوس هؤلاء المردة والشياطين .

٩٤ — قُلْ إن كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللهِ خالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا المَوْتَ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ

٩٥ — وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ

٩٦ — ولَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ العَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ واللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ

٩٧ — قُلْ مَن كانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ

٩٨ — مَن كانَ عَدُوًّا لِلهِ وَمَلَـٰئِكَتِهِ ورُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَـٰلَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ

٩٩ — وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ءايَـٰتٍ بَيِّنَـٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إلاَّ الْفَـٰسِقُونَ

١٠٠ — أَوَ كُلَّمَا عَـٰهَدُوا عَهْداً نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ

١٠١ — وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ

١٠٢ ـ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ

١٠٣ ـ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ

١٠٤ ـ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ

١٠٥ ـ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ

اثنتا عشرة آية من آيات القرآن الكريم ، فيها رد على اليهود بأبلغ عبارة ، وفيها بيان لحبهم الشديد للحياة وكراهيتهم للموت ، وفيها تصوير لشديد كفرهم بالله ورسله وملائكته ، وفيها ذكر لكثرة نقضهم للعهود، ونسيانهم لما أخذ عليهم من مواثيق أمام الله بأن يؤمنوا بدين محمد خاتم الرسالات والأديان ، وأنهم يفرون من أحكام السماء ويهربون منها ليؤمنوا بالسحر

والأوهام والأباطيل ، وبئس ما كانوا يصنعون . ثم فيها إبداء الحرص من الله على إيمانهم وأن إيمانهم خـــير لهم لو كانوا يعلمون ، وفيها دعوة المؤمنين بالاحتراس من مكائد اليهود ومن استهزائهم وضلالهم وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله والله ذو الفضل العظيم .

والآية الأولى وهى قوله تعالى : «قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين» معناها إن صدق قولكم وصحت دعواكم أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً ، وفى أنكم شعب الله المختار ، وأن النار لن تمسكم إلا أياما معـــدودات ، فتمنوا الموت الذى يوصلكم إلى ذلك النعيم الخالص الدائم الذى لا ينازعكم فيه أحد ، إذ لا يرغب عن السعادة ويختار الشقاء .

وقد روى عن كثير من الصحابة رضوان الله عليهم تمنى الموت عند القتال معبرين بألسنتهم عما يجول فى صدورهم من صدق الإيمان بما أعد الله للمؤمنين فى الدار الآخرة ، فقد جاء فى الأخبار أن عبدالله بن رواحة كان ينشد وهو يقاتل الروم :

يا حبـذا الجنة واقترابها   طيبـــة وبارد شرابها

وعمار بن ياسر فى حرب صفين كان يقول :

غـداً نلقى الأحبـه   محـــدا وصحبـه

وكان على يحارب وهو يقول : لا أبالى على الموت سقطت أم على سقط الموت . . . فإن لم تتمنوه أيها اليهود ، بل كنتم شديدى الحرص على هذه الحياة فما أنتم بصادقى الإيمان ، وهذه حجة تنطبق على الناس عامة ، فيجب على المسلمين أن يجعلوها ميزانا يزنون به دعواهم اليقين والإيمان والقيام بحقوق الله . فإن ارتاحت نفوسهم لبذل أرواحهم فى سبيـل الله والذود عن الدين كانوا مؤمنين حقا ، وإن ضنوا بها وكانوا شديدى الحرص على الحياة إذا جد الجد ودعا الداعى كانوا بعكس ما يدعون .

وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

لو تمنوا الموت لغص كل إنسان منهم بريقه فمات مكانه وما بقى على الأرض يهودى إلا مات .

والآية الثانية فيها تأكيد لحال أنفسهم المريضة وبيان لجزعهم من الموت وخوفهم الشديد منه لما اقترفوا من سيئات سيعاقبون عليها فى الآخرة عقاباً شديداً ، « ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم » من موجبات النار من الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به وتحريف كتاب الله وسائر أنواع الكفر والعصيان ، ولما كانت اليد العاملة مختصة بالإنسان لأنها آلة لقدرته ، وبها عامة صنائعه ومنها أكثر منافعه ، عبر بها عن النفس تارة كما هنا ، وعن القدرة أخرى كما فى قوله تعالى : « يد الله فوق أيديهم » . وهذه الجملة إخبار بالغيب فإنهم لم يتمنوا الموت أبداً وإنهم لو تمنوه لنقل ذلك كما نقل سائر الحوادث ، ولكان ناقلوه من أهل الكتاب وغيرهم من أولى المطاعن فى الإسلام أكثر ، وليس منهم أحد نقل ذلك ، فإن قيل : التمنى من أعمال القلوب وهو سر لا يطلع عليه ، فمن أين علم أنهم لم يتمنوا ، فالجواب بأن التمنى ليس من أعمال القلوب إنما هو قول الإنسان بلسانه ليت لى كذا فإذا قاله قالوا تمنى ، وليت كلمة التمنى ، ومحال أن يقع التحدى بها فى الضمير والقلوب ، ولو كان التمنى بالقلوب وتمنوا لقالوا قد تمنينا الموت فى قلوبنا ولم ينقل أنهم قالوا ذلك . فإن قيل : لم يقولوه لأنهم علموا أنهم لا يصدقون ، فالجواب بأنه كم حكى عنهم أشياء نالوا بها المسلمين من الافتراء على الله وتحريف كتابه وغير ذلك مما علموا أنهم غير مصدقين فيه ، وما لا محل له إلا الكذب الصرف ولم يبالوا فكيف يمتنعون من أن يقولوا إن التمنى من أفعال القلوب وقد فعلناه مع احتمال أن يكونوا صادقين فى قولهم وإخبارهم عن ضمائرهم ، وكان الرجل يخبر عن نفسه بالإيمان فيصدق مع احتمال أن يكون كاذباً لأنه أمر خفى لا سبيل إلى الاطلاع عليه « والله عليم بالظالمين » أى الكافرين فيجازيهم على كفرهم ، وفى هذا تهديد لهم وتنبيه على أنهم ظالمون بعنادهم وبهتانهم وكفرهم .

والآية الثالثة فيها بيان لحرصهم الشديد على الحياة مما ينم عن عدم إيمان

وثقة بالآخرة وعدم عمل لها، «ولتجدنهم» اللام لام القسم والنون لتأكيد القسم تقديره والله لتجدنهم يا محمد أي اليهود «أحرص الناس على حياة»، وهو من وجد بمعنى علم المتعدى إلى مفعولين ومفعولاه هم أحرص، وتنكير حياة للدلالة على إرادة حياة مخصوصة هى فرد من أفرادها وهى الحياة المتطاولة «و» أحرص «من الذين أشركوا» أى المنكرين للبعث لعلمهم بأن مصيرهم النار دون المشركين لإنكارهم له وإفراد المشركين بالذكر مع دخولهم فى عموم الناس، لأن حرصهم شديد، وفيه توبيخ عظيم لأن الذين أشركوا لا يؤمنون بباقيه؛ ولا يعرفون إلا الحياة الدنيا، فحرصهم عليها لا يستبعد لأنها جنتهم، فإذا زاد عليهم فى الحرص من له كتاب وهو مصدق بالدين وبالجزاء، كان خليقا بأعظم التوبيخ. وفى الآية تحذير شديد من التكالب على الدنيا والحرص عليها، ومن كراهية النصيحة والجهاد فى سبيل الله والمثل العليا التى يدعو إليها الإسلام والقرآن

وهذا التكالب على الدنيا هو الذى جعل اليهود تعيش فى الذل أبد الآباد، وجعلهم تصدق عليهم الآية الكريمة تمام الصدق وهى: وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله (١)، وفى تصديق ذلك يقول صاحب كتاب «القرآن والعلم (٢)»: الذلة وغضب الله قد لازما اليهود وسيلازمانهم أينما حلوا على مدى الدهور وإن هذا الغضب من الله وماهم فيه من ذلة ومسكنة وما ينتابهم من نكبات مرجعة إلى كفرهم بالله وقتلهم الأنبياء وإغراقهم فى المعـــاصى.

ففى عصر نشأة اليهودية ترى اضطهاد فرعون مصر لهم وقيام العداوة بينهم فى فلسطين ثم أسر البابليين لهم والنكبات التى توالت عليهم من السوريين وما لاقوه على يد الرومان من عنت وقتل وتمثيل وتشريد. واليهود يبدأ تاريخهم فى مصر بقدوم يوسف وعائلته بما فيهم يعقوب (إسرائيل) إليها ثم

(١) من آية ٦١ سورة البقرة.
(٢) ص ٨٥ وما بعدها.

سكناهم فى أرض جاسان (الشرقية الآن) حتى تكاثروا وبلغوا فيما يقال مئات الألوف وارتضوا العيش بجانب المصريين وطابت لهم الإقامة وتأثرت عقائدهم الدينية بعقائد المصريين الوثنية ، وبيناهم كذلك فى رغد من العيش إذ شاء سوء طالعهم أن يتنبأ الكهان أن نهاية فرعون ستكون على يد فتى يولد فى إسرائيل وكان فرعون هذا على الأرجح هو « منفتاح بن رمسيس الثانى » فما كان منه إلا أن أمر بذبح أطفالهم الذكور وترك أطفالهم الإناث، ففكر الإسرائيليون فى الخلاص من هذا الاستعباد ولم يجدوا خيرا من أن يتركوا مصر إلى الأرض الموعودة (فلسطين) وقد تم إخراجهم من مصر على يد موسى عليه السلام وإلى هذا يشير القرآن الكريم بقوله : « وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » . .

وبعد موسى دخل بنو إسرائيل فلسطين بعد أن ظلوا أربعين سنة فى صحراء سينا ، وقد بلغوا قمة مجدهم فى عهد « سليمان بن داود » الذى بنى معبدهم فى (أورشليم) والذى بلغت فى عهده مملكة بنى إسرائيل أقصى قوتها واتساعها ، ولكن بعد موته انقسمت مملكة الإسرائيليين إلى قسمين : القسم الشمالى ويسمى (مملكة إسرائيل) والقسم الجنوبى ويسمى (مملكة يهوذا) ، ولسوء الحظ ساءت العلاقات بين هاتين المملكتين الشقيقتين ووقعتا فى مصادمات دموية مستمرة وصار كل فريق يستعين بالأجانب على الآخر وبذلك أذاق الله بعضهم بأس بعض .

وكان بجوار فلسطين امبراطورية قوية آخذة فى النمو وهى امبراطورية (آشور) التى تطلعت فى عهد (سالماذار) إلى الاستيلاء على مملكة إسرائيل فاستولى على عاصمة مملكة إسرائيل (السامرة) وقادهم أسرى إلى بلاده فلم يبق إلا مملكة يهوذا (المملكة الجنوبية) وهذه لقيت حتفها بدورها حينما تولى (يواقيم) عرشها إذ حاربه بختنصر (ملك كلديا) وأخضعه أسيراً إلى بابل

ولكن يواقيم عندما عاد إلى فلسطين ثانية ثار على بختنصر ، فما كان من بختنصر إلا أن رجع ودخل أورشليم وخربها وقاد أكثر أهلها أسرى سنة ٧٨٥ ق . م وفى الأسر ازداد حنينهم إلى فلسطين وبكاها شعراؤهم .

وشاء الله أن يرجعهم إلى فلسطين ثانيا ليذوقوا من العذاب أشد مما ذاقوا أولا لحينما استولى كورش (أمبراطور الفرس) على بابل سمح لهم بالعودة إلى بلادهم فعاد منهم سنة ٦٢٥ ق م ٤٢ ألف رجل وأسسوا مملكة يهوذا تحت الحماية الفارسية ، ومنذ ذلك الوقت أطلق عليهم اسم اليهود ولم يكونوا يعرفون به من قبل وقد أعاد لهم «دارا» بناء بيت المقدس . وبعد فتح الاسكندر للشام وفلسطين وقعوا تحت حكم الأغريق وفى سنة ٣٠٠ ق م حكمهم ملوك سوريا لأول مرة . وفى سنة ٢٢٠ ق م دخلت مملكة يهوذا لثانى مرة تحت حكم السوريين وقد اضطهدهم ملوك سوريا وأثقلوا كواهلهم بالضرائب فإن (سوليسيد) كان يعتبر مملكتهم غنيمة وحاول (سلكس الرابع) أن ينهب معبدهم كما حاول (انتيخيوس ايفان) أن يمحو ادياناتهم إذ أمر بنصب تمثال (جوبيتر) إله اليونانيين الأكبر فى وسط معبدهم ومنعهم من الختان وأمرهم بتضحية الخنازير وقتل جمهوراً كبيراً منهم . ولكنهم بعد ذلك تغلبوا على السوريين وطردوهم من بلادهم وأعادوا الشريعة الموسوية فازدهرت مملكتهم وأعادوا ذكر أيام داود .

وحوالى سنة ٦٣ ق م وقعت فلسطين تحت حكم الرومان ، وعند استيلاء بومبى على أورشليم ذبح الأحبار فى المحراب وهلك ما يقرب من أثنى عشر الفا من اليهود ، وسام الرومان اليهود سوء العذاب وقبضوا عليهم بيد من حديد وقمعوا جميع المحاولات التى بذلت لإعادة مجد بنى إسرائيل . وقد بلغ اضطهاد الرومان حدا أدى إلى الثورة سنة ٧٠ م فما كان من (تيتوس) إلا أن أمر بإحراق معبدهم وذبح معظم أهل أورشليم وبيع من بقى منهم ولم يبق منهم غير الذين هربوا إلى الجبال

وهذا ما تشير به الآية الكريمة « ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه » .

ولم يمض غير قليل حتى عمرت أورشليم بالسكان ثانية ولكن البقية الباقية من اليهود عادت فثارت ، فما كان من الامبراطور (هارديان) إلا أن هدم المدينة من أساسها سنة ١٢٥ م وبنى على انقاضها مدينة جديدة حرم دخولها عليهم وجعل جزاء من يتجاسر على ولوجها القتل وسماها باسم جديد هو (ايليا كابيتولينا) . كما أمر بذبح مئات الآلاف من اليهود وبيع الباقين وتشريدهم فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة ومزقوا شر ممزق ، فهاجرت طائفة إلى شواطىء الفرات وطائفة إلى بلاد العرب وطائفة إلى الأفغان وطائفة أخرى إلى الهند والصين وأقامت طائفة في أوربا حيث كانوا موضع الإهانة والسخرية والعذاب وخصوصاً في عهد الامبراطور جستنيان ثم في عهد هرقل حيث تحملوا أشد أنواع الاضطهاد .

والآية الرابعة تؤكد حرص اليهود على الحياة ، وهي قوله تعالى : «يود» أي يتمنى «أحدهم لو يعمر ألف سنة» ولو مصدرية بمعنى (أن) وهي والفعل بعدها في تأويل مصدر مفعول يود ، والألف للتكثير لا لخصوص العدد «وما هو» أي أحدهم أو هذا التمني «بمزحزحه» أي مبعده «من العذاب» أي النار وقوله تعالى : «أن يعمر» فاعل مزحزحه ، أي تعميره «والله بصير بما يعملون» فيجازيهم .

وسأل «عبد الله بن صوريا» رسول الله صلى الله عليه وسلم عمن ينزل عليه بالوحي فقال جبريل ، فقال ذاك عدونا ، واليهود يجعلون بينهم وبين جبريل عداوة ، مدعين أنه أمر أن يجعل الرسالة فيهم ، فجعلها في غيرهم . وقالوا للمؤمنين لو أن ميكائيل ينزل عليكم لاتبعناكم ، فإنه ينزل بالرحمة والغيث ، فكشف الله شرهم ، وقال في هذه الآية الرابعة «قل» لهم «من كان عدوا لجبريل» . روى أنه كان لعمر رضى الله تعالى عنه أرض بأعلى المدينة وكان ممره على مدارس اليهود وكان يجلس إليهم ويسمع كلامهم فقالوا يا عمر قد أحببناك وإنا نطمع فيك

فقال والله ما أحبكم لحبكم ولا أسألكم لأنى شاك فى دينى وإنما أدخل عليكم لأزداد بصيرة فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم وأرى آثاره فى كتابكم ثم سألهم عن جبريل فقالوا : ذاك عدو لنا يطلع محمداً على أسرارنا وإنه صاحب كل خسف وعذاب وميكائيل صاحب الخصب والسلامة فقال عمر : ومامنزلتهما عندالله قالوا جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره وبينهما عداوة فقال لئن كان كما تقولون فليسا بعدوين لقرب منزلتهما عند الله. ولأنتم أكفر من الحمار والحيوان الأعجم ، لأن الكفر نتيجة الجهل والبلاهة والحمار مثل فيهما ومن كان عدوا لأحدهما فهو عدو لله تعالى ، ثم رجع فوجد جبريل قد سبقه بالوحى فقرأ رسول الله هذه الآية وقال عليه الصلاة والسلام : لقد وافقك ربك ياعمر ، فقال عمر : لقد رأيتنى فى دين الله بعد ذلك أصلب من الحجر ، وقال مقاتل : قالت اليهود إن جبريل عدونا لأنه أمر أن يجعل النبوة فينا فجعلها فى غيرنا ، ومعنى جبريل عبد الله فجبر هو الله وايل هو العبد . . « فإنه » أى جبريل « نزله » أى القرآن ونحو هذا الاضمار اعنى اضمار مالايسبق ذكره فيه فخامة لشأن صاحبه حيث يجعل لفرط شهرته كأنه يدل على نفسه ويكتفى عن اسمه الصريح بذكر شىء من صفاته ، « على قلبك » يامحمد ، وقوله تعالى « بإذن الله » أى بأمره « مصدقا » أى موافقا « لما بين يديه » أى لما قبله من الكتب ، « وهدى » من الضلالة ، « وبشرى » بالجنة للمؤمنين .

ذكر قبل هذه الآيات معاذير لليهود اعتذروا بها عن الإيمان بمحمد ﷺ وبما جاء به من الآيات البينات ، كقولهم إنهم مؤمنون بكتاب من ربهم فلا حاجة لهم بهداية غيره فنقض دعواهم وألزمهم الحجة ، وقولهم إنهم ناجون حتما فى الآخرة لأنهم شعب الله وأبناؤه فأبطل مزاعمهم ودحض حججهم . وهنا ذكر تعلة أخرى هى أعجب من كل ماتقدم وفندها كما فند ما قبلها تلك هى قولهم : إن جبريل الذى ينزل على محمد بالوحى عدوهم ، فلا يؤمنون بما يجىء به منه ، وقد أثر عنهم عدة روايات تشرح هذه المقالة ذكرناها فى أسباب نزول هذه الآية الكريمة .

والمعنى : من عادى جبريل فقد خلع ربقة الإنصاف ، أو كفر بما معه من الكتاب بمعاداته إياه لنزوله بالوحى على الرسول لأنه نزل بكتاب مصدقا للكتب المتقدمة . وجواب الشرط محذوف أى من كان عدوا لجبريل فليمت غيظا أى فهو عدو لى وأنا عدوه .

والآية الخامسة فيها هذا المعنى ، قال الله تعالى : « من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل فإن الله عدو للكافرين » والمراد بمعاداة الله مخالفته عنادا أو معاداة المقربين من عباده ، وصدر الكلام بذكره تعالى تفخيما لشأنه كقوله تعالى : والله ورسوله احق أن يرضوه ، وإفراد الملكين بالذكر مع دخولهما فى الملائكة لفضلهما فإنهما من جنس آخر وقدم جبريل لشرفه وقدم الملائكة على الرسل كما قدم الله على الجميع لأن عداوة الرسل بسبب نزول الكتب ، ونزوله بتنزيل الملائكة وتنزيلهم لها بأمر من الله فذكر الله ومن بعده على هذا الترتيب .

أما الآية السادسة : فقد نزلت فى عبد الله بن صوريا لما قال للنبى صلى الله عليه وسلم ما جئتنا بشىء نعرفه وما أنزل عليك آية زائدة فنتبعك . قال الله تعالى : « ولقد أنزلنا إليك » يا محمد « آيات بينات » واضحات مفصلات بالحلال والحرام والحدود والأحكام « وما يكفر بها إلا الفاسقون » أى المتمردون من الكفرة . والفسق إذا استعمل فى نوع من المعاصى دل على أعظمه وكان متجاوزا عن حده .

والآية السابعة تدل على نقضهم الدائم للعود ، قال الله تعالى « أو كلما عاهدوا عهدا » الهمزة للانكار والواو للعطف على محذوف تقديره أكفروا بالآيات وكلما عاهدوا الله عهدا على الإيمان بالنبى ، وقوله تعالى : « نبذه » أى طرحه « فريق منهم » أى اليهود بنقضه وهو محل الاستفهام الانكارى ، وإنما قال « فريق » لأن بعضهم لم ينقض وقوله تعالى : « بل » للانتقال « أكثرهم لا يؤمنون » رد لما يتوهم أن الفريق هم الأقلون .

والآية الثامنة تدل على أن كفر اليهود برسالة محمد هو كفر منهم بكتابهم المنزل على نبيهم موسى عليه السلام ، قوله تعالى : « ولما جاءهم رسول من عند الله » هو محمد ﷺ « مصدق لما معهم » من التوراة « نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله » أي التوراة لأن كفرهم بالرسول المصدق لها كفر بها فيما يصدقه من وجوب الإيمان بالرسل المؤيدين بالآيات ، وقيل كتاب الله هو القرآن نبذوه بعد ما لزمهم تلقيه بالقبول . وقوله تعالى : « وراء ظهورهم » أي لم يعملوا بما في التوراة من الإيمان بالرسل وهو مثل لإعراضهم عنه بالكلية ، « كأنهم لا يعلمون » ما فيها من إنه نبي حق يعني أن علمهم بذلك ثابت ولكنهم كابروا وعاندوا .

بين الله سبحانه في هذه الآيات حالا من أحوالهم هي علة ما يصدر عنهم من جحود وعناد ومعاداة للنبي صلى الله عليه وسلم ، هي أن فريقا منهم نبذوا كتاب الله الذي به يفخرون ، حين جاء الرسول بكتاب مصدق لما بين أيديهم ، فإن ما في كتابهم من البشارة بنبي يجيء من ولد إسماعيل لا ينطبق إلا على هذا النبي الكريم .

وليس المراد أنهم نبذوا الكتاب جملة وتفصيلا ، بل نبذوا منه ما يبشر بالنبي ﷺ ويبين صفاته وما يأمرهم بالإيمان به واتباعه ، ولاشك أن ترك بعضه كترك كله إذ أنه يذهب باحترام الوحي ويفتح الباب لترك الباقي ، وهذا الجحود ليس بضائر للنبي صلى الله عليه وسلم ولا لدعوته فقد قبلها واهتدى بها كثير من اليهود ومن غيرهم وحين نبذوه اشتغلوا بصناعات وأعمال صادرة عن الأديان من أصنع شياطين الإنس والجن ، فاشتغلوا بالسحر والشعوذة والطلسمات التي نسبوها إلى سليمان زعموا أن ملكه كان قائما عليها .

والآية التاسعة تدل على بعد اليهود عن الحقائق واشتغالهم بالسحر والأوهام بقوله تعالى : « واتبعوا » عطف على نبذ « ما تتلو » أي تلت « الشياطين » ، والعرب تضع المستقبل موضع الماضي والماضي موضع المستقبل ،

وقيل ما كانت تتلو أى تقرأ « على » عهد « ملك سليمان » من السحر وكانت دفنته تحت كرسيه لما نزع ملكه فلم يشعر بذلك سليمان ، فلما مات استخرجوه وقالوا للناس إنما ملككم سليمان بهذا فتعلموه فأما علماء بنى إسرائيل وصلحاؤهم فقالوا معاذ الله أن يكون هذا من علم سليمان عليه الصلاة والسلام ، وأما سفهاؤهم فقالوا هذا علم سليمان وأقبلوا على تعلمه ورفضوا كتب أنبيائهم فلم تزل هذه حالهم حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم وأنزل الله عليه براءة سليمان ، وقال السدى : وكانت الشياطين تسرق السمع فيسمعون كلام الملائكة فيما يكون فى الأرض من موت وغيره فيأتون الكهنة ويخلطون بما يسمعون ويخبرونهم بها فاكتتب الناس ذلك وفشا فى بنى إسرائيل أن الجن تعلم الغيب فبعث سليمان فى الناس وجمع تلك الكتب فجعلها فى صندوق ودفنها تحت كرسيه وقال : لا أسمع أن أحداً يقول إن الشيطان تعلم الغيب إلا ضربت عنقه ، فلما مات سليمان وذهبت العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان ودفنه الكتب وخلف من بعدهم خلف ، أتى نفر من بنى إسرائيل فقال بعضهم : هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبداً قالوا نعم قال : فاحفروا تحت الكرسى فأراهم المكان فحفروا وأخرجوا تلك الكتب وفشا فى الناس أن سليمان كان ساحراً وأخذ بنو إسرائيل تلك الكتب فلذلك أكثر ما يوجد السحر فى اليهود ، فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم برأ الله سليمان من ذلك ، وأنزل تكذيبا لمن زعم ذلك « واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان » ؟ « وما كفر سليمان » أى لم يعمل السحر وعبر عنه بالكفر ليدل على أنه كفر أى إن استحله ، وهذا مذهب الشافعى وعند أحمد يكفر مطلقا « ولكن الشياطين هم الذين » كفروا « باستعمال السحر وتدوينه « يعلمون الناس السحر » أى يقصدون به إضلالهم والسحر لغة صرف الشىء عن وجهه يقال ما سحرك عن كذا أى ماصرفك عنه ، واصطلاحا مزاولة النفوس الخبيثة لأقوال وأفعال يترتب عليها أمور خارقة للعادة، واختلف هل هو تخييل أو حقيقة ؟ قال بالأول المعتزلة واستدلوا بقوله تعالى يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى، وقال بالثانى أهل السنة ويدل

لذلك الكتاب والسنة الصحيحة، والساحر قد يأتى بفعل أو قول يتغير به حال المسحور فيمرض أو يموت منه ويفرق به بين الزوجين. والسحر يحرم تعليمه وتعلمه، قال إمام الحرمين: ولا يظهر السحر إلا على فاسق ولا تظهر الكرامة على فاسق، ويحرم أيضاً تعليمه أو تعلم الكهانة والتنجيم والضرب بالرمل وما شاكل ذلك، ويحرم إعطاء العوض وأخذه عنها بالنص الصريح فى حلوان الكاهن، والباقى بمعناه، والكاهن من يخبر بوساطة النجم عن المغيبات الواقعة كتعيين السارق ومكان المسروق والضالة، وقوله تعالى: «وما أنزل على الملكين» عطف على السحر، وقيل عطف على ما تتلو أى واتبعوا ما أنزل عليهما أى ألهماه وتعلماه من السحر، فالإنزال بمعنى الإلهام والتعليم.. قال البيضاوى وهما ملكان أنزلا لتعليم السحر ابتلاء من الله للناس وتمييزا بينه وبين المعجزة، وقوله تعالى «ببابل» بلد فى العراق وقوله تعالى: «هاروت وماروت» بدل أو عطف بيان للملكين ومنع صرفهما للعلمية والعجمة، ومن جعل «ما» فى ما أنزل نافيه أبدل هاروت وماروت من الشياطين بدل البعض وما بينهما اعتراض «وما يعلمان» أى الملكان «من أحد» أى أحـداً ومن صلة «حتى» ينصحاه و«يقولا» له «إنما نحن فتنة» ابتلاء من الله للناس ليمتحنهم بتعليمه، وأصل الفتنة الاختبار والامتحان: من قولهم فتنت الذهب والفضة إذا أذبتهما بالنار لتمييز الجيد من الردىء، وقوله تعالى: «فلا تكفر» أى بتعلمه أى فلا تتعلمه معتقداً حله فتكفر على ما تقـدم فإن أبى إلا التعليم علماه.

والآية لا ترشد إلى حقيقة ما يتعلمونه من السحر — أمؤثر بطبعه أو بسبب خفى أو بخارق من خوارق العادات. أم غير مؤثر؟ كما أنها لم تبين نوع ما يتعلمونه أتمائم وكتابة هو أم تلاوة رقى وعزائم أم. أساليب سعاية، أم دسائس تنفير ونكاية، أم تأثير نفسانى، أو وسواس شيطانى، فأى ذلك أبينه للملكان تفصيلا لما أجمله القرآن، ولا نتحكم فى حمله على نوع منها،

ولو علم الله الخير فى بيانه لبينه ، ولكنه وكل ذلك إلى بحوث الناس وارتقائهم فى العلم ، فهو الذى يجلى الغامض ويكشف الحقائق .

« فيتعلمون منهما » الضمير لما دل عليه من أحد أى فيتعلم الناس من الملكين « ما » أى سحراً « يفرقون به بين المرء وزوجه » بأن يبغض كلا منهما الآخر بسبب حيلة أو تمويه كالنفث فى العقد ونحو ذلك مما يحدث الله عنده الفراق ابتلاء منه أى لا أن السحر له أثر فى نفسه بدليل قوله تعالى : « وما هم » أى السحرة « بضارين به » أى السحر « من أحد » أى أحـــداً ومن زائدة « إلا بإذن الله » أى إرادته لأن الأسباب غير مؤثرة بالذات بل بإرادته تعالى « ويتعلمون ما يضرهم » فى الآخرة « ولا ينفعهم » أى السحر « ولقد » اللام لام القسم « علموا » أى اليهود « لمن اشتراه » أى استبدل ما تتلو الشياطين بكتاب الله « ماله فى الآخرة من خلاق » أى نصيب فى الأجر « ولبئس ما » أى شيئاً « شروا » أى باعوا « به أنفسهم » أى الشارين أى حظها من الآخرة أن تعلموه أوجب لهم النار « لو كانوا يعلمون » حقيقة ما يصيرون إليه من العذاب ما تعلموه .

والآية العاشرة دعوة لهم إلى الإيمان ، قال تعالى : « ولو أنهم » أى اليهود « آمنوا » بالنبى والقرآن « واتقوا لمثوبة » أى ثواب « من عند الله خير » أى خير مما اشتروا به أنفسهم « لو كانوا يعلمون » أن ثواب الله خير لما آثروه عليه لجهلهم لترك التدبر أو العمل بالعلم .

والآية الحادية عشرة تحذير للمؤمنين من تقليد اليهود فى القول كما حذرهم من تقليدهم فى العمل « يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا » للنبى ﷺ « راعنا » أمر من المراعاة ، وكانوا يقولون ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فلما سمع اليهود هذه اللفظة من المسلمين وكانت كلمة يتسابون بها عبرانية أو سريانية وهى « راعنا » قالوا فيما بينهم كنا نسب محمداً سراً فأعلنوا به الآن فكانوا يأتون ويقولون يا محمد راعنا وهم يعنون به تلك السبة ويضحكون فيما بينهم فسمعها سعد بن معاذ وكان يعرف لغتهم فقال لليهود: يا أعداء الله عليكم لعنة الله والذى نفسى

يده لئن سمعتها من أحد منكم يقولها لرسول الله لأضربن عنقه فقالوا أو لستم تقولونها فأنزل الله تعالى النهى عن ذلك لكيلا يجد اليهود بذلك سبيلا الى شتم رسول الله وأمروا بما هو فى معناها وهو قوله تعالى : «وقولوا انظرنا» أى انظر إلينا ، وقيل اسمع منا وقيل لا تعجل علينا «واسمعوا» ما تؤمرون به سماع قبول لا كسماع اليهود حيث قالوا سمعنا وعصينا أو واسمعوا ما أمرتم به بجد حتى لا ترجعوا الى مانهيتم عنه من قولكم راعنا «وللكافرين» أى الذين تهاونوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وسبوه «عذاب أليم» أى مؤلم وهو النار .

أما الآية الثانية عشرة فقد نزلت فى تكذيب جمع من اليهود يظهرون مودة المؤمنين ويزعمون أنهم يودون لهم الخير «مايود الذين كفروا من أهل الكتاب» وقوله تعالى : «ولا المشركين» أى من العرب عطف على أهل الكتاب ، ومن للبيان لأن الذين كفروا جنس تحته نوعان أهل الكتاب والمشركين .

وقوله تعالى : «أن ينزل عليكم من خير من ربكم» أى إن الذين عرفتم شأنهم مع أنبيائهم من أهل الكتاب حسدة لكم لا يودون أن ينزل عليكم خير من ربكم . والكتاب الكريم أعظم الخيرات فهو الهداية العظمى ، به جمع الله شملكم ووحد شعوبكم وقبائلكم وطهر عقولكم من زيغ الوثنية وأقامكم على سنن الفطرة ، وكذلك المشركون إذ يرون فى نزول القرآن على طريق التتابع الوقت بعد الوقت قوة للإسلام ورسوخا لقواعده وتثبيتا لأركانه وانتشارا لهديه ، وهم يودون أن تدور عليكم الدوائر ، وينتهى أمركم ويزول دينكم من صفحة الوجود . «والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم» أي إن حسد الحاسد يدل على أنه ساخط على ربه معترض عليه لأنه أنعم على المحسود بما أنعم ، والله لا يضيره سخط الساخطين ، ولا يحول مجارى نعمته حسد الحاسدين ، فهو يختص من يشاء برحمته متى شاء ، وهو ذو الفضل العظيم على من اختاره للنبوة ، وهو صاحب الإحسان والمنة وكل عباده غارق فى بحار

نعمته ، فلا ينبغى لأحد أن يحسد أحداً على خير أصابه وفضل أوتيه من عند ربه .

وبهذا ينتهى الربع السادس من سورة البقرة ، الذى تضمن مجيء موسى بالآيات البينات ، ونزول التوراة عليه ، ثم عصيان بنى إسرائيل له ، وعنادهم إياه ، وكفرهم برسالته ، وعبادتهم للعجل ضلالا وبهتانا ، كما تضمن المعجزة الكبيرة التى ظهرت على أيدى موسى ، وهى رفع الجبل فوقهم إلزاما لهم بالإيمان ، والوفاء بالعهد ، ولكنهم ضلوا وأضلوا ، وسمعوا ثم عصوا ، وأشربت قلوبهم الكفر .

وفى هذه الربع أيضاً بيان لحرص اليهود على الحياة ، ونفورهم من الموت ويستتبع ذلك الجبن والبخل والطمع وعبادة المال ، وسوء الحال والمآل ، وقد تضمن كذلك عداوة اليهود لله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل ، وكفرهم كذلك برسالة محمـــد ونبوته وكتابه الحكيم المنزل عليه من السماء مع أنهم أعطوا العهد لنبيهم موسى بأن يؤمنوا بالتوراة والتوراة تضمنت ظهور رسول اسمه أحمد يجب الإيمان به ، ويذكر الله عز وجل أن اليهود لا يتبعون حكم الدين ولا حكم العقل إنما يتبعون الأوهام والسحر والأباطيل ولو أنهم آمنوا بكتابهم و بالقرآن لنالوا الخير والمثوبة من عند الله لو كانوا يعقلون ، لو كان لديهم علم وبصيرة ، ويختم الله عز وجل هذا الربع بذكر حسد أهل الكتاب للمسلمين ولأتباع رسالة محمد عليه السلام ، ولو تدبروا لعلموا أن الله يختص بفضله من يشاء والله ذو الفضل العظيم .. وأعظم ما فى هذا الربع محاربة القرآن الكريم للسحر والسحرة والأوهام والأهواء التى ليست من العلم ولا العقل فى قليل ولا كثير .. ومن العجيب أن ينسب كثيرون من الناس لليهود العقل والذكاء ، وهذه خرافة ما بعدها من خرافة ، حتى اينشتين مدعى نظرية النسبية كان أفاقا منتحلا ، ويقول بعض الباحثين : إن انجلترا اشتهرت بكثير من اليهود المختصين منذ أقدم العصور فى المحاورات الفقهية التى تساعدهم على جحد الرسالات السماوية والتهرب من المسئوليات

التى تتفق مع العدل والكرامة الوطنية فى المجموعة البشرية . وذلك راجع إلى سبب واحد هو اعتقادهم أنهم شعب الله المختار — لهم أن يستولوا على خيرات هذا العالم — قديما بالتجارة وحديثا بالاستعمار والمؤسسات المالية ، والقروض الدولية ، والمؤامرات التاريخية . ولذلك سيطروا على أقدار العالم زمنا طويلا . ولا ننسى أبداً أن زعماء اليهود الدينيين هم كل شيء فى توجيه سياستهم ، فهم بمثابة البوصلة لرجال المال والتجارة والاقتصاد لذين يسيرون دفة الاتجاهات فى السياسة الدولية . وقد وجدنا محاضر حكماء صهيون أى برنامج السياسة الصهيونية الذى قد تم وضعه فى مؤتمر الحاخاميين المنعقد فى روسيا عام ١٨٩٧ ، وقد سبقه مؤتمر آخر عام ١٨٨١ بعد اغتيال القيصر الروسى اسكندر الثانى ، وقد ترجم كتاب « محاضر حكماء صهيون » إلى اللغة الانجليزية أولا عام ١٩٠٥ ، وتوجد منه نسخة فى المتحف البريطانى ؛ وظل هذا سراً خافيا على العالم أجمع حتى عام ١٩٢٥ حيث انفضح أمره وترجم إلى لغات العالم بعد القضية الدولية فى محاكم برن عام ١٩٣٢ — ١٩٣٧ .

وقد نشرته وقامت بتوزيعه بعض المكتبات السويسرية فادعى اليهود أنه من وضع الألمان ولكنه من حسن الحظ قد سبق العرب الألمان بربع قرن فى ترجمة هذا الكتاب عام ١٩١٠ فى بيروت .

وهناك اتجاه خطير فى معظم البلاد يرمى إلى تمجيد الزعيم الصهيونى (اينشتين) الذى ادعى لنفسه أنه صاحب نظرية « النسبية والتناسب » . بدعوى أن هذه النظرية كانت مفتاح العلوم الذرية والهيدروجينية ؛ والدعوى غير شرعية ومخالفة للحقيقة ، لأن (اينشتين) ، لم يستطيع أن يقدم الأبحاث العلمية دقيقة واحدة ، ولم يكن هو نفسه صاحب نظرية علمية ولكنه استغل وظيفته كاتبا فى معهد الأبحاث العلمية فى مدينة زوريخ وبطبيعة الحال كان يطلع على تسجيلات العلماء لأبحاثهم . أما مكتشف الطاقة الذرية ، فهو أستاذ ألمانى اسمه بلانك ومكتشف القنبلة الذرية الدكتور هان الألمانى ومكتشف نظرية النسبية والتناسب العالم الفرنسى (برجليس) . ولكن العلماء الألمان اتهموا

بأنهم نازيون ، كما اتهم العالم الفرنسى بأنه فاشيستى ، فاستغلت الصحافة الدولية هذه الظروف لإخفاء الحقيقة للقيام بالدعاية الانتخابية عام ١٩٣٦ لحساب (ليون بلوم) اليهودى الفرنسى رئيس الجبهة الشعبية . وقد استمرت هذه الحالة السياسية العلمية المغرضة حتى الحرب العالمية الثانية ، فانتقل (اينشتين) إلى أمريكا وحرض (روزفلت) على دراسة الطاقة الذرية لأنها تقتل أكبر عدد من الألمان والفرنسيين .

ومع ذلك فقد خطب (جوبلز) قبل نهاية الحرب العالمية الثانية يقول : إن ألمانيا أنتجت فعلا القنبلة الذرية ، ولكن يرجع عدم استعمالها لأن الغارات الجوية التى شنتها أمريكا على المدن والقرى الألمانية أعطبت مصانع الطائرات التى كانت معدة لإلقاء هذه القنابل على جيوش الحلفاء .

ولما دخلت الجيوش الأمريكية البلاد الألمانية وضعت يدها توا على قنبلتين ذريتين قذفتهما فيما بعد على هورشيما وناجازاكى ، وعند دخول الجيوش الروسية إلى البلاد الألمانية وجدت بطريق الصدفة قنبلتين ذريتين فى جزيرة ولم تعرف عنهما شيئا حتى أرشدها بعض الألمان إلى هذا السر . ومنذ هذه اللحظة والمنافسة قائمة بين أمريكا وروسيا ، لأن اليهود فى البلدين يسيطرون على الطاقة الذرية ، وذلك ليس عن طريق العلم بل عن طريق المال لأن البنوك الأمريكية هى التى تقوم بتمويل هذه الصناعة حتى أصبح أعضاء لجنة الطاقة الذرية أربعة من اليهود وواحدا مسيحيا . على أن تاريخ هذه الأبحاث العلمية يرجع إلى عام ١٩٠٥ حيث كان العالم (لو نتز) يدرس نظريته الحسابية ويطبقها مع نظرية (غاليه) فى الجاذبية ونظرية (بلانك) عن الضوء وتأثيره فى النقاط الصور . ومن هذا كله نجد أن نظرية النسبة والتناسب ليست ملكا (لا ينشتين) الصهيونى الإسرائيلى المتعصب .

١٠٦ — مَا نَنْسَخْ مِنْ ءايَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ

١٠٧ — أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ

١٠٨ — أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ

١٠٩ — وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

١١٠ — وَأَقِيمُوا الصَّلٰوةَ وَءَاتُوا الزَّكٰوةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

هذه الآيات الخمس رد على شبهة أثارها اليهود أو المشركون حول نسخ بعض آيات القرآن الكريم ، فقد طعن بعض الكفار فى النسخ وقالوا إن محمداً يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه وما هذا إلا من تلقاء نفسه ، يقول اليوم قولا ويرجع عنه غدا كما أخبر الله تعالى «وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر» فنزلت الآية الكريمة ، قال تعالى : «ما ننسخ من آية» فبين وجه الحكمة فى النسخ بهذه الآية ، والنسخ فى اللغة شيآن : أحدهما بمعنى التحويل والنقل ومنه نسخ الكتاب وهو أن يحول من كتاب إلى كتاب فعلى هذا الوجه كل القرآن منسوخ لأنه نسخ من اللوح المحفوظ ، والثانى بمعنى الرفع يقال نسخت الشمس الظل أى ذهبت به وأبطلته ، فعلى هذا يكون بعض القرآن ناسخا وبعضه منسوخا وهو المراد من الآية ، وهذا على وجوه أحدها أن يثبت التلاوة وينسخ الحكم كآية الوصية للأقارب وآية عدة الوفاة بالحول ، والثانى أن ترفع التلاوة ويبقى الحكم كآية الرجم ، والثالث أن يرفع الحكم

والتلاوة كما روى أن قوما من الصحابة قاموا ليلة ليقرأوا سورة فلم يذكروا منها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فغدوا إلى النبي ﷺ وأخبروه فقال صلى الله عليه وسلم: تلك سورة رفعت بتلاوتها وأحكامها. وقيل كانت سورة الأحزاب مثل سورة البقرة فرفع أكثرها تلاوة وحكما، ثم من نسخ الحكم ما يرفع ويقام غيره مقامه كما أن القبلة نسخت من بيت المقدس إلى الكعبة والوصية للأقارب نسخت بالميراث وعدة الوفاة نسخت من الحول إلى أربعة أشهر وعشر، ومصابرة الواحد للعشرة نسخت بمصابرته للاثنين. قال البغوى: والنسخ إنما يعترض على الأوامر والنواهى دون الإخبار. والنسخ اصطلاحا رفع تعلق حكم شرعى بدليل شرعى، ويفارق التخصيص بأن التخصيص لا يرد إلا على متعدد وبأنه غير مشروط بالنص بخلاف النسخ فيهما وبأنه يفيد عدم إرادة المخرج فى الأصل والنسخ يفيد إرادة المنسوخ فى الأصل لكن غير مستمر. «أو ننسها»، أى نؤخرها فلا ننزل حكمها ونرفع تلاوتها أو نؤخرها فى اللوح المحفوظ ومعنى ننسها: نمحها من قلبك وقال ابن العباس رضى الله تعالى عنهما، نتركها لا ننسخها. قال تعالى: «نسوا الله فنسيهم» أى تركوه فتركهم وقرىء: ننسأها «نأت بخير منها» أى بما هو أنفع لكم وأسهل عليكم وأكثر لأجركم وإن كان كلام الله كله خيرا «أو مثلها» فى التكليف والثواب والمنفعة وتكون الحكمة فى تبديلها بمثلها الاختبار. «ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير» فيقدر على النسخ والإتيان بمثل المنسوخ وبما هو خير. والآية دلت على جواز النسخ وتأخير الإنزال إذ الأصل اختصاص أن وما يتضمنها بالأمور المحتملة. وذلك لأن الأحكام شرعت والآيات نزلت لمصالح العباد وتكميل نفوسهم فضلا من الله ورحمة، وذلك يختلف باختلاف الأبصار والأشخاص كأسباب المعاش، فإن النافع فى عصر قد يضر فى غيره، واحتج بها من منع النسخ بلا بدل أو ببدل أثقل ومن منع نسخ الكتاب بالسنة فإن الناسخ هو المأتى به بدلا والسنة ليست كذلك. قال البيضاوى: والكل ضعيف إذ قد يكون عدم الحكم والأثقل أصلح. والنسخ قد يعرف بغيره واستدل بهذه الآية المعتزلة على حدوث القرآن

فإن التغير والتفاوت من لوازم الحدوث . وأجاب أهل السنة بأنها من عوارض الأمور المتعلق بها المعنى القائم بالذات القديم لا من عوارض هذا المعنى : « ألم تعلم » خطاب لمنكرى النسخ فالهمزة للانكار ، وقيل خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد أمته فالهمزة للتقرير .. « إن الله على كل شىء قدير » ، ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ، يفعل فيهما مايشاء ويحكم مايريد فهو يملك أموركم ويدبرها ويجريها على حسب ما يصلحكم وهو أعـــلم بما يتعبدكم به من ناسخ ومنسوخ وهذا كالدليل على قوله « إن الله على كل شىء قدير » : وعلى جواز النسخ. « وما لكم من دون الله » ، أى غيره « من ولى » أى ولى يحفظكم ومن صلة أى زائدة « ولا نصير » يمنع عنكم عذابه ، وفرق بين الولى والنصير بأن الولى قد يضعف عن النصرة والنصير قد يكون أجنبيا عن المنصور . . ونزل لما سأل أهل مكة النبى صلى الله عليه وسلم أن يوسعها لهم وأن يجعل الصفا ذهبا « أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى » ، أى سأله قومه « من قبل » ، أى من قولهم له « أرنا الله جهرة » ، وقيل قالوا له : « لن نؤمن لك حتى تأتى بالله والملائكة قبيلا » أو ائتنا بكتاب نقرؤه أو فجر لنا أنهارا حتى نتبعك . وقال عبد الله بن أمية لن نؤمن لك حتى تأتى بكتاب فيه : « من الله رب العالمين إلى ابن أمية ، اعلم أنى أرسلت محمدا إلى الناس » . . . « ومن يتبدل الكفر بالإيمان » أى يأخذه بدله بترك النظر فى الآيات البينات واقترح غيرها « فقد ضل سواء السبيل » أى أخطأ الطريق الحق ، والسواء فى الأصل الوسط .

ونزل فى نفر من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بعد وقعة أحد : لو كنتم على الحق ما هزمتم فارجعا إلى ديننا فنحن أهدى سبيلا منكم ، فقال عمـــار : كيف نقض العهد فيكم قالوا شديد قال : فإنى قد عاهدت الله فلا أكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ماعشت ، فقال اليهود أما هـــذا فقد صبأ ، وقال حذيفة . وأما أنا فقد رضيت بالله ربا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا وبالإسلام دينا وبالقرآن إماما وبالكعبة قبلة وبالمؤمنين إخوانا ، ثم أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه بذلك فقال : أصبتما الخير وأفلحتما :

فنزلت الآية الكريمة : « ود » أى تمنى « كثير من أهل الكتاب » من اليهود « لو يردونكم » أى يامعشر المؤمنين « من بعد إيمانكم كفارا » مرتدين « حسدا » كائنا « من عند » أى من تلقاء « أنفسهم » أى لم يأمرهم الله بذلك وإنما حملتهم عليه أنفسهم الخبيثة «من بعد ما تبين لهم» أى فى التوراة «الحق» فى شأن النبى صلى الله عليه وسلم «فاعفوا» عنهم أى اتركوهم « واصفحوا» أى أعرضوا عنهم فلا تجازوهم، وكان هذا قبل آية القتال ولهذا قال تعالى «حتى يأتى الله بأمره» فيهم من القتال وقد أذن فى قتالهم وضرب الجزية عليهم .

وروى عن ابن عباس وابن مسعود، أن هذا منسوخ بقوله تعالى : قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر الآية ، وأبى النسخ جماعة من المفسرين والفقهاء واحتجوا بأن الله تعالى لم يأمر بالعفو والصلح مطلقا ، وإنما أمر به إلى غاية وما بعد الغاية يخالف ما قبلها وما هذا سبيله لا يكون من باب النسخ بل يكون الأول قد انقضت مدته والآخر يحتاج إلى حكم آخر « إن الله على كل شىء قدير » فهو يقدر على الانتقام من الكفار .

والآية الكريمة « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » عطف على (فاعفوا) كأنه تعالى أمرهم بالصبر والمخالفة والملجأ إليه بالعبادة والبر « وما تقدموا لأنفسكم من خير » أى طاعة كصلاة وصدقة « تجدوه » أى ثوابه «عند الله» فيجازيكم به « إن الله بما تعملون بصير » لا يضيع عنده عمل عامل .

١١١ — وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ .

١١٢ — بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ

١١٣ — وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

ثلاث آيات كريمة اشتملت على جدال اليهود والنصارى حول الدين الحق وتضمنت الرد عليهم بأبلغ بيان ، وأوضح عبارة ، وفيها ما فيها من رائع الكلام ، وبليغ الأداء ، وقد ذكر الله عز وجل فيها حالين من أحوال اليهود أولاهما تضليل من عداهم وادعاؤهم أن الحق لا يعدوهم وأن النبوة مقصورة عليهم ، وثانيهما تضليل اليهود للنصارى وتضليل النصارى لهم كذلك مع أن كتاب اليهود أصل لكتاب النصارى ، وكتاب النصارى متمم لكتاب اليهود . والعبرة من هذا القصص ـ أنهم قد صاروا إلى حال من اتباع الأهواء لا يعتد معها بقول أحد منهم لا فى نفسه ولا فى غيره ، فطعنهم فى النبى صلى الله عليه وسلم وإعراضهم عن الإيمان به لا يثبت دعواهم فى أنه مخالف للحق ، فاليهود قد كفروا بعيسى وقد كانوا ينتظرونه ، والنصارى كفروا بموسى ورفضوا التوراة وهى حجتهم على دينهم ، فكيف بعدئذ يعتد برأيهم فى محمد صلى الله عليه وسلم وهو من غير شعبهم وجاء بشريعة نسخت شرائعهم .

وسبب نزول الآيات أن يهود المدينة تماروا مع وفد نصارى نجران عند النبى صلى الله عليه وسلم وكذب بعضهم بعضا ، فقال اليهود لبنى نجران : لن يدخل الجنة إلا اليهود ، وقالت بنو نجران لليهود : لن يدخل الجنة إلا النصارى ، ، وسواء أصحت هذه الرواية أم لم تصح ، فعقيدة كل من الفريقين فى الآخر كذلك .

والآية الأولى من هذه الآيات الثلاث اشتملت على لون من هذا الجدل بينهم « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى » أى وقالت

اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ، وقالت النصارى كذلك . وهذه آراء الفريقين إلى يومنا هذا . « تلك أمانيهم » أى هذه الأمنية السالفة التى تشمل أمانى كثيرة كنجاتهم من العذاب ووقوع أعدائهم فيه وحرمانهم من النعيم . والأمانى واحد الأمنية وهى ما يتمناه المرء ولا يدركه ، والعرب تسمى كل مالا حجة عليه ولا برهان له تمنيا وضلالا ، « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » أى قل لكلا الفريقين هاتوا البرهان على ما تزعمون، وهذا وإن كان ظاهره طلب الدليل على صدق المدعى ، فهو فى عرف التخاطب تكذيب له لأنه لا برهان لهم عليه .

وفى هذا إيماء إلى أنه لا يُقبل من أحد قول لا برهان عليه . والقرآن ملىء بالاستدلال على القدرة والإرادة الوحدانية بالآيات الكونية والأدلة العقلية كقوله : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا »، « بلى » كلمة تذكر جوابا بالإثبات نفى سابق ، ورد لما زعموه فهى مبطلة لقولهم « لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى » ، أى بلى يدخلها من لم يكن هوداً ولا نصارى ، إذ رحمة الله لا تختص بشعب دون شعب ، بل كل من عمل لها وأخلص فى عمله فهو من أهلها .

وقوله تعالى : « من أسلم وجهه لله » أى انقاد لأمره وخص الوجه لأنه أشرف الأعضاء الظاهرة فغيره أولى « وهو محسن » أى فى عمله ، وقيل مخلص . وقيل مؤمن « فله أجره » ، أى ثواب عمله ثابتا « عند ربه » لا يضيع ولا ينقص ، والجملة جواب من إن كانت شرطية وخبرها إن كانت موصولة والفاء فيها لتضمنها معنى الشرط . فيكون الرد بقوله بلى وحده ويحسن الوقف عليه ، ويصح أن يكون من أسلم فاعل فعل مقدر أى بلى يدخلها من أسلم فلا يحسن الوقف عليه ، ويصح أن يكون قوله : « فله أجره عند ربه » كلاما معطوفا على يدخلها من أسلم « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » فى الآخرة.

ولما قدم النصارى ـ أهل نجران ـ على النبى صلى الله عليه وسلم أتاهم أحبار

اليهود فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم فقالت لهم اليهود : ما أنتم على شيء من الدين وكفروا بعيسى والإنجيل ، وقالت النصارى لليهود : ما أنتم على شيء من الدين وكفروا بموسى والتوراة ، وأنزل الله تعالى الآية الكريمة «وقالت اليهود ليست النصارى على شيء » أى يعتد به وكفروا بعيسى والإنجيل . «وقالت النصارى ليست اليهود على شيء » أى يعتد به وكفروا بموسى والتوراة ، «وهم » أى الفريقان «يتلون الكتاب » أى المنزل عليهم ، وفى كتاب اليهود تصديق عيسى ، وفى كتاب النصارى تصديق موسى أى قالوا ذلك وحالهم أنهم من أهل العلم والكتاب . «كذلك » أى كما قال هؤلاء «قال الذين لا يعلمون » كعبدة الأصنام والملحدين «مثل قولهم » بيان لمعنى ذلك أى قالوا كل ذلك أى قالوا : كل ذى دين عدا دينهم ليس على شيء ووبخهم الله تعالى على المكابرة والتشبه بالجهال «فالله يحكم بينهم » أى بين الفرق الثلاثة وهم اليهود والنصارى والذين لا يعلمون «يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » من أمر الدين فيقسم لكل فريق منهم من العقاب الذى استحقه ، وعن الحسن : حكم الله بينهم أن يكذبهم ويدخلهم النار .

وهذا يشير إلى العداوة القائمة بين اليهود والنصارى ، يقول صاحب كتاب «القرآن والعلم» : إن هذه العداوة ترجع إلى ثراء اليهود ، وإلى أن المسيحيين يحملون اليهود تبعة دم المسيح ، وقد لاقى اليهود من المسيحية شر المعاملة ، فقد اضطهدوا فى أسبانيا القديمة اضطهاداً شديداً ، ولما فتح المسلمون شمال أفريقيا كانت أسبانيا فى ذلك الوقت تئن من حكم القوط الغربيين ، وكان اليهود فيها مضطهدين من جانب الأشراف ورجال الدين حتى اعتبروا جميعاً عبيداً ، فما أن سمعوا بتسامح المسلمين وعدلهم حتى هرب كثير منهم إلى إفريقيا وطلبوا إلى موسى بن نصير أن يخلصهم من ظلم لزريق فهب موسى بن نصير لنصرتهم وفتح الأندلس ، ولما فتح المسلمون الأندلس تمتع اليهود هناك بالحرية بعد الاستعباد وفى أيام الحروب الصليبية سقط ألوف منهم صرعى بأيدى الجموع الهائجة ، وعند انتشار الموت الأسود فى أوربا سنة ١٣٤٧ صب الناس جام

غضبهم على اليهود وقاموا بسلسلة من الهجمات ضدهم وفى مينتز والمدن الألمانية الأخرى أخذ الشعب الهائج يلقى بهم فى النار بالمئات والألوف اعتقادا منهم أن الوباء من عملهم ، وكان من جراء ذلك أن هاجر اليهود من غرب أوربا إلى بولندا .

وكان إذا ارتكب أحدهم هفوة انتقم من سائر اليهود أشد انتقام، وكان المسيحيون يبتكرون الأسباب للانتقام منهم ومصادرة أموالهم ، وناهيك بما كانوا يتقولون به عليهم من تسميم ينابيع المياه وقتل الأولاد الصغار وتحريق الخبز المقدس بالسكاكين .

كانوا يعتبرون طرد اليهود وقتلهم من أعمال البر والتقوى ؛ وكان اليهود يشترون حمايتهم بالمال ، وكان الحكام كلما وقعوا فى أزمات مالية لجأوا إلى اليهود فأمدوهم بالمساعدات الإجبارية نظير ما يلقون من حمايتهم وتأمينهم ، وكانوا فى بعض الممالك يعتبرون كالسلع تباع وتشترى، ففى ألمانيا كانوا ملكا للامبراطور أو للأمراء وقد بيعوا أكثر من مرة .

وكانوا معتبرين خارج دائرة الحقوق العامة وكانت قرارات المجالس وأوامر الحكام تكرر دائما عدم أهليتهم للتمتع بالحقوق المدنية ، كما كانوا محرومين من مزاولة أى عمل حكومى أو الالتحاق بأية هيئة أو الانتماء إلى أية جماعة أو الاندماج بالناس . أما إقامتهم فكانت فى أقسام منعزلة من المدن ، أقسام قذرة ترتع فيها الأوبئة وكان يتحتم عليهم وضع علامات معينة على ملابسهم لتميزهم عن غيرهم ففى روما مثلا كانوا يسكنون حيا قذرا من المدينة يقال له (الجيتو) وكانوا يقفلون أبوابه عليهم فى الليل ويشدون الأبواب بسلاسل من الحديد ، وكان على اليهودى إذا أراد الانتقال إلى بعض جهات مملكة روما ليمكث بها عشرة أيام أن يأخذ تصريحا بذلك من السلطة الكهنوتية . وكان محرما عليهم أن يتخذوا هناك بيعا أو أديرة أو أن يتحدوا مع المسيحيين أو يصاحبوهم . وقد نص فى الأمر الذى صدر سنة ١٨٦٥ على معاقبة مخالفى ذلك بالحبس مع غرامة خمسة ريالات .

وليت الأمر اقتصر على هذا فقد كانوا يمنعون من دخول بعض المدن كما حدد عددهم فى المدن الأخرى ، ومنعوا من الزواج إلا بقيود تحدد من نسلهم وعددهم ، وكان محرما عليهم اتخاذ خدم من المسيحيين .

ولما فتح نابليون ألمانيا بدأوا يتنسمون الحرية ولكنهم فقدوا ما اكتسبوه عندما تراجع الفرنسيون ، وفرضت عليهم القيود القديمة فالضريبة التى كانت تجبى من اليهودى كلما عبر حدود مدينة أو مقاطعة مهما صغرت حتى ولو دخل أو خرج عشرين مرة فى اليوم لم تلغ فى بروسيا إلا سنة ١٧٩٠ وفى الولايات الألمانية الأخرى إلا سنة ١٨٠٣ .

وفى سنة ١٣٩١ - ١٤٣١ عمت شبه جزيرة ايبيريا موجة من الذبح لليهود حيث وجد كثير منهم مأوى فى اعتناق المسيحية . ولما استولى فرديناند وإيزابلا على الأندلس وطردا المسلمين منها طاردا اليهود كما تطارد الوحوش الكاسرة ، وفى ٣١ مارس سنة ١٤٩٢ صدر قرار بطردهم من أسبانيا وصقلية وسردينيا اللتين كانتا مملوكتين فى ذلك الوقت لملك أراجون ، فذهب بعضهم إلى هولندا والبعض الآخر إلى سواحل إيطاليا وقد قلدت البرتغال أسبانيا سنة ١٤٩٦ ثم طبق ذلك فى نافارسنة ١٤٩٨ ولم يسمح لهم بالعودة إلى أسبانيا إلا بعد سنة ١٨٨١ . أما فى إيطاليا فقد طردوا من نابلى سنة ١٥١٠ وتم إجلاؤهم التام عنها سنة ١٥٤٨ وطردوا من دوقية ميلان سنة ١٥٩٧ بعد الاحتلال الأسبانى ، وأما فى فرنسا فقد تناولهم الطرد والتغريم عندما استولت أسرة الكارولونجين على العرش ، وفى سنة ١٢٩٥ طردوا من جنوب فرنسا ولكن فى سنة ١٥٥٥ سمح لهم بالاقامة فى بوردو وباتون .

وتعتبر انجلترا أول مملكة خلصت نفسها من اليهود كلية ، ففى عهد إدوارد الأول طردوا من المملكة سنة ١٢٩٠ م ولم يسمح لهم بدخولها إلا فى عهد الجمهورية حوالى منتصف القرن السابع عشر . وأما فى النمسا فقد طردوا من فينا وحولت بيعهم إلى كنائس ولم يعودوا إليها إلا فى عهد فردناند الأول ولما صدر قرار سنة ١٧٤٤ بنفيهم توسطوا فى إلغائه نظير دفعهم ثلاثة ملايين

فلورن سنويا لمدة عشر سنين كما فرض عليهم أيضاً دفع ضريبة قدرها أربعون ألف فلورن لتوريد ليمون لولاية (عيد المظلات) .

وأما يهود المجر فقد حل بهم ما حل بإخوانهم في النمسا من الطرد ثم العودة وفي أثناء ثورة سنة ١٨٤٨ قاسى اليهود الأهوال في هنغاريا (المجر) وقد منحوا الحرية المدنية والسياسية في النمسا والمجر سنة ١٨٦٧ ولكن ديانتهم لم يعترف بها إلا في سنتي ١٨٩٥ و ١٨٩٦ .

وأما في روسيا فقد طردوا منها مرارا وظلوا مضطهدين إلى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وكانوا ممنوعين من الانتقال ومحرومين من الحقوق العامة ولا يزال التاريخ يذكر المذابح العظيمة التي لحقت بهم في (نجني نوفوجراد) الواقعة على نهر الفلجا سنة ١٨٨٢ وفي ولاية بسارابيا وفي أماكن أخرى سنة ١٩٠٣ .

وأما في رومانيا فقد كانوا معتبرين غرباء على الرغم من نشأتهم فيها وظلوا كذلك إلى نهاية الحرب العالمية الأولى ولما وضعت الحرب أوزارها أعطوا حريتهم تقريبا وأخذت الحكومة تتدخل لوضع حد للثورات ضدهم وتحسين أحوال مدنهم . وأما في بولندا فقد زادت حالتهم سوءاً أثناء الحرب عندما تابع الوطنيون البولنديون انتقاماتهم من اليهود وعاودوا مقاطعتهم لهم تلك المقاطعة التي بدأت في (وارسو) سنة ١٩١٢ وقد بلغ بؤس اليهود درجة استثارت عطف الحكومة الروسية فسمحت لهم بحرية السكن في المدن الروسية ما عدا بعض الأماكن مثل موسكو وبتروجراد .

وتبع الهدنة في بولندا سلسلة من الأعمال العنيفة ضد اليهود ففي السنة التي أعقبت الحرب قتل ٣٤٨ يهودياً وجرح عدد يفوق هذا بكثير ، وكان اليهود يقاسون في جميع أنحاء المملكة مقاطعة البولنديين لهم ، أما أكثر الأمكنة التي ذاقوا فيها الأمرين فهي جنوب روسيا فقد أخذ الفلاحون الأكرانيون يذبحون اليهود بفظاعة لا مثيل لها ، وفي سنة ١٩٢٢ أعادت الحكومة السوفيتية بعض النظام فوقفت المذابح ولكن حل محلها الجوع والوباء في سنة ١٩٢٣

كان هناك مائة ألف يهودى بلا مأوى فى أوكرانيا وبلغت نسبة موت اليهود (فى أوديسا) ٢٠٠ فى الألف .

ولما انتشرت النازية فى ألمانيا أعلنت لهم العداوة الصريحة بل اعتبرتهم أعدى أعدائها ونظرت اليهم كوباء يجب استئصاله فقد أعلن زعيمها أن الغرض الأساسى من حركته هو تخليص أوربا من اليهود بقوله : « إن العالم سائر نحو ثورة عظيمة والسؤال الذى نحن بصدده هو هل ستؤدى هذه الثورة إلى تخليص الحضارة الآرية من شوائبها أو أنها ستكون خطوة أخرى يزداد بها نفوذ اليهودى الأبدى » .

ولم تقتصر النازية على اضطهاد اليهود فى داخل ألمانيا ومصادرة أملاكهم وسومهم سوء العذاب بل تتبعتهم فى الأقاليم التى سيطرت عليها ، تتبعتهم فى بولندا وفرنسا وفى بلجيكا وهولندا وفى اليونان ويوجوسلافيا وفى النرويج وروسيا وفى رومانيا وبلغاريا وصبت عليهم أعظم الكوارث التى شاهدها تاريخهم فلم يبق من الـ ٥ ر ٣ مليون يهودى فى بولندا سوى ٦٠٠ ألف ، ومن ٩٠٠ ألف يهودى فى ألمـــانيا سوى بضعة آلاف لا تكاد تتجاوز أصابع اليد الواحدة ، ولم يبق من مائتى ألف يهودى فى بلجيكا وهولندا سوى عشرة آلاف ، ومن ١٥٠ ألف يهودى فى النمسا سوى ٧ آلاف فقط ، ولم يبق على قيد الحياة أحد من الثمانين ألف يهودى فى يوجوسلافيا .

وكان فى اليونان قبل الحرب ٩٠ ألف يهودى لم يبق منهم الآن غير ثمانية آلاف أما الباقون وهم اثنان وثمانون ألفا فقد قتلوا رميا بالرصاص أو ماتوا بسبب الاضطهاد والتعذيب أو أرسلوا إلى معسكرات العمل الإلزامى فى بولونيا وخسرت أثينا نفسها ١٢ ٪ من اليهودى الذين كانوا فيها ولكن هناك مدنا يونانية أخرى بلغت خسارة اليهود فيها ٨٠ ٪ أما كريت ورودس فلم يبق فيهما يهودى واحد .

١١٤ — وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَـٰجِدَ اللهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِى خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ لَهُمْ فِى الدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ

١١٥ — وَلِلهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ

١١٦ — وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحَـٰنَهُ بَل لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَٰتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَـٰنِتُونَ

١١٧ — بَدِيعُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ

١١٨ — وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَـٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ

١١٩ — إِنَّا أَرْسَلْنَـٰكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلاَ تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ الْجَحِيمِ.

١٢٠ — وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَـٰرَىٰ حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِىٍّ وَلاَ نَصِيرٍ

١٢١ — الَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ الْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَـٰسِرُونَ

ثمانى آيات من كتاب الله الحكيم تضمنت من طعن أهل الكتاب من اليهود والنصارى على الله ودينه الحق ما تضمنت .

ويشير الله عز وجل فى الآية الأولى إلى ماوقع من تيتوس الرومانى إذ دخل بيت المقدس بعد موت المسيح بنحو سبعين سنة وخربها حتى لم يبق منها حجراً على حجر ، وهدم هيكل سليمان عليه السلام حتى لم يترك إلا بعض جدران مبعثرة ، وأحرق بعض نسخ التوراة ، وكان المسيح قد أنذر اليهود بذلك . وكان هذا بإيعاز وتحريض من المسيحيين انتقاما منهم إذ أخرجوهم من ديارهم ، وتحقيقاً لوعيد المسيح فقد ظلوا لواذاً على قتلهم حتى وصلوا إلى رومية فحرضوا تيتوس على غزوهم فى بلادهم وكان له هوى لذلك ؛ فأجابهم إلى ماطلبوا وكان منه ما علمت . وقوله تعالى : « ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها » أى وأى امرىء أشد تعديا وجرأة على الله ومخالفة لأمره ، من امرىء منع من العبادة فى المساجد ، وسعى فى خرابها بهدمها أو تعطيل شعائر الدين فيها ، لما فى ذلك من انتهاك حرمة الأديان المؤدى إلى نسيان الخالق ، ونشو المنكرات بين الناس ونشر الفساد فى الأرض ، وهدم الدين ، والعمـــل على الرجوع بالإنسانية إلى عصور الشرك والضلال . « أولئك » أى المانعون « ما كان لهم أن يدخلوها » أى ما كان لهم أن يدخلوا مساجد الله « إلا خائفين » أى على التهيب وارتعاد الفرائص من المؤمنين أن يبطشوا به فضلا أن يستولوا عليها أو يخربوها أو يمنع النبى صلى الله عليه وسلم عنها ، وقيل . نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ألا لا يحجن بعد هذا العام مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان ، وقيل : إن هذا خبر بمعنى الأمر أى أخيفوهم بالجهاد فلا يدخلها أحد آمنا ، واختلف فى جواز دخول الكافر المسجد : فجوزه أبو حنيفة ومنعه مالك وفرق الشافعى بين المسجد الحرام وغيره فمنع من الأول وجوز فى الثانى بشرط إذن المسلم . « لهم فى الدنيا خزى » أى هوان بالقتل والسبى والجزية « ولهم فى الآخرة فى عذاب عظيم » بكفرهم وظلمهم ، وهو النار .

ولما عيرت اليهود المؤمنين فى نسخ القبلة وقالوا ليست لهم ملة معلومة فتارة يستقبلون هذا وتارة هذا نزلت الآية الثانية أو أنها نزلت فى صلاة النافلة على الراحلة فى السفر حيث ما توجهت به راحلته ، قال تعـالى : « ولله المشرق والمغرب » أى ناحية الأرض كلها لا يختص به مكان دون مكان، فإن منعتم أن تصلوا فى المسجد الحرام والأقصى فقد جعلت لكم الأرض كلها مسجدا « فأينما تولوا » وجوهكم « فثم » أى هناك « وجه الله » أى قبلته كما قال مجاهد وقال الكلبي فثم الله يعلم ويرى ، والوجه زائد كقوله تعالى : « كل شيء هالك إلا وجهه » أى إلا هو « إن الله واسع » أى غنى يعطى من السعة يسع فضله كل شيء « عليم » بتدبير خلقه .

ولما قالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقال مشركو العرب الملائكة بنات الله ، نزلت الآية الثالثة الكريمة وهى : « وقالوا اتخذ الله ولدا » ، قال الله تعالى ردا عليهم « سبحانه » تنزيها له عن ذلك فإنه يقتضى التشبيه والحاجة وسرعة الفناء ، بل له ما فى السموات والأرض » ملكا وخلقا ومن جملة ذلك العزير والمسيح والملائكة ، والملكية تنافى الولدية وعبر بما تغليبا لما لا يعقل لكثرته « كل له قانتون » أى منقادون كل بما يراد منه لا يمتنعون عن مشيئته وتكوينه وفى ذلك تغليب العاقل لشرفه. والآية مشعرة بفساد ما قالوا من ثلاثة أوجه . الأول قوله « سبحانه » والثانى « بل له ما فى السموات والأرض » والثالث « كل له قانتون » .

والآية الرابعة منها تشير الى تنزيه الله وقدرته الخارقة « بديع السموات والأرض » أى موجدهما لا على مثال سبق وهذا وجه رابع يشعر بفساد ما قالوه أيضا ، فالله سبحانه وتعالى مبدع الأشياء كلها وهو فاعل على الإطلاق منزه عن الصفات فلا يكون ولدا « وإذا قضى أمرا » أى أراد إيجاد شيء ، وأصل القضاء إتمام الشيء قولا كان كقوله تعالى : « وقضى ربك » أو فعلا كقوله تعالى : « فقضاهن سبع سموات » وأطلق على تعليق الإرادة الإلهية بوجود الشيء من حيث إنه يوجبه .. « فإنما يقول له كن فيكون » هذا مجاز

من الكلام وتمثيل وإنما المعنى إن ماقضاه من الأمور وأراد كونه فإنما يكون ويدخل تحت الوجود من غير امتناع ولا توقف كما أن المأمور المطيع الذى يؤمر فيمتثل لا يتوقف ولا يمتنع ولا يكون منه الإباء ، وفيه تقرير لمعنى الإبداع دائما . وهذا وجه خامس يشعر بفساد ما قالوه أيضا لأن اتخاذ الولد مما يكون بأطوار ومهلة وفعله تعالى يستغنى عن ذلك . ويكون : بالنصب جوابا بالأمر والباقون بالرفع على معنى فهو يكون ، فإن قيل المعدوم لا يخاطب : أجيب بأنه لما قدر وجوده وهو كأن لا محالة كان كالموجود فصح خطابه .

والآية الخامسة تشير إلى صنيع آخر لليهود مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وهى : « وقال الذين لا يعلمون » للنبى صلى الله عليه وسلم وهم اليهود كما قاله ابن عباس ، أو النصارى كما قاله مجـــاهد أومشركو العرب كما قال قتادة ، ونفى عنهم العلم لأنهم لم يعملوا به «لولا» أى هلا «يكلمنا الله» كما يكلم الملائكة أو يوحى إلينا بأنك رسوله « أو تأتينا آية » أى علامة مما اقترحناه على صدقك .. « كذلك » كما قال هؤلاء « قال الذين من قبلهم » من كفار الأمم الماضية لأنبيائهم « مثل قولهم » من التعنت وطلب الآيات . فقالوا أرنا الله جهرة وهل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء « تشابهت قلوبهم » أى قلوب هؤلاء ومن قبلهم فى الكفر والعناد ، وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم « قد بينا الآيات لقوم يوقنون » الحقائق ولا يعتريهم شبهة ولا عناد ، وفيه إشارة إلى أنهم قالوا ذلك لا لخفاء فى الآيات أو لطلب مزيد يقين ، وإنما قالوه عتوا وعنادا .

وفى الآية السادسة رد بليغ عليهم ، يقول الله تعالى « إنا أرسلناك » أى يا محمد « بالحق » أى القرآن قاله ابن عباس ، كما قال تعالى : « بل كذبوا بالحق لما جاءهم » أو الإسلام وشرائعه كما قال ابن كيسان قال تعالى : « وقل جاء الحق » ، « بشيرا » أى مبشرا من أجاب إلى ذلك بالجنة « ونذيرا » أى منذرا من لم يجب إليه بالنار أى إنا أرسلناك لأن تبشر وتنذر لا لتجبر الناس على الإيمان وهذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه كان يغتم ويضيق صدره لإصرارهم وتصميمهم على

الكفر ، ولا تسئل أصحاب الجحيم ، أى النار وهم الكفار مالهم لم يؤمنوا بعد أن بينت لهم وبلغت جهدك فى دعوتهم ، كقوله تعالى : « فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب » ، وقرىء « تسأل » بفتح التاء وسكون اللام على النهى ، والمختار أنها نزلت فى كفار أهل الكتاب ، والقراءة المشهورة بضم التاء واللام على النفى ، أى ولست بمسئول .

والآية السابعة تشير إلى حرب اليهود والنصارى للإسلام ، قال تعالى : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » أى دينهم « أى لن ترضى عنك اليهود إلا باليهودية ولا النصارى إلا بالنصرانية وفى هذا مبالغة فى إقناطه صلى الله عليه وسلم عن إسلامهم وذلك أنهم كانوا يسألونه الهدنة ويطمعونه أنه إن امهلهم اتبعوه فأنزل الله تعالى هذه الآية ، فانهم إذا لم يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم فكيف يتبعون ملته « قل » تعليما للجواب « إن هدى الله » الذى هو الإسلام « هو الهدى » أى هو الذى يصح أن يسمى هدى ، وهو الهدى كله ليس وراءه هدى وما يدعون إلى اتباعه ما هو بهدى إنما هو أهواء ، ألا ترى إلى قوله تعالى « ولئن » اللام لام القسم « اتبعت أهواءهم » أى آراءهم الزائفة التى يدعونك إليها والخطاب معه صلى الله عليه وسلم والمراد أمته كقوله تعالى : « لئن اشركت ليحبطن عملك » . . . « بعد الذى جاءك من العلم » أى من الدين المعلوم صحته بالبراهين الصحيحة ، مالك من الله ولى « يحفظك » « ولا نصير » يمنعك منه .

والآية الثامنة نزلت فى جماعة من أهل الكتاب قدموا من الحبشة وأسلموا « الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته » أى يعرفونه كما أنزل لا يحرفونه ولا يغيرون ما فيه من نعت محمد صلى الله عليه وسلم « أولئك يؤمنون به » أى بكتابهم دون المحرفين « ومن يكفر به » أى بالكتاب بان يحرفوه « فأولئك هم الخاسرون » لمصيرهم إلى النار المؤبدة عليهم .

وفى الآية إيماء إلى أن الذين يتلون الكتاب دون أن يتدبروا معانيه ، لا حظ لهم من الإيمان ، لأنهم لا يفقهون هداية الله فيه ، ولا تصل العظة إلى أفئدتهم بتلاوته .

وفى هذا عبرة لنا كما قال تعالى « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » فينبغى أن يكون ذلك حافزا لنا على تدبر القرآن وفهمه لا قراءته لمجرد التلاوة كما قال تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » وقال : « ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب » . ولكن وا أسفا إن كل هذه الآيات والعبر لم تحل بين هذه الأمة وتقليدها من قبلها وحذوها حذوهم شبرا فشبرا وباعافباعا ، والقرآن حجة عليها كما جاء فى الحديث « والقرآن حجة لك أو عليك » . ومن يتله وهو معرض عن تدبره والتأمل فى العبرة منه يكن كالمستهزىء بربه ، وما مثله إلا مثل من يرسل كتابا إلى آخر لغرض خاص فيقرؤه المرسل إليه مثنى وثلاث ورباع ويترنم به ولا يلتفت إلى معناه ولا يكلف نفسه إجابة ما طلب فيه ، أيرضى المرسل بمثل هذا ويكتفى به عن إجابة طلبه أم يعده استهزاء به ؟ .

فعلى المؤمن فى كل زمان ومكان أن يتلو القرآن بالتدبر والفهم والعمل بما فيه فان كان أميا أو أعجميا فانه ينبغى أن يطلب من أهل الذكر أن يفهموه معناه ويشرحوا له مغزاه

١٢٢ — يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ الَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَٰلَمِينَ

١٢٣ — وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ

هاتان الآيتان الكريمتان هما مما قصه الله عز وجل من قصص فى أحوال اليهود وصنيعهم مع أنبيائهم ومع رسولنا الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم . وهما خطاب لليهود الذين كانوا فى عصر النبوة ونزول القرآن الكريم ، وتذكير لهم بما سلف من نعمة الله على آبائهم بانقاذهم من أيدى عدوهم وإنزال المن والسلوى لهم ، والتمكين لهم فى البلاد بعد أن كانوا أذلاء مقهورين ، وإرسال الرسل منهم ، وتفضيلهم على غيرهم ممن كانوا بين ظهرانيهم ، وذلك حين كانوا مطيعين لرسلهم ، ومصدقين لما جاءهم من عند ربهم .

ومن أعظم ما أنعم الله عز وجل به عليهم التوراة التي نزلت على رسولهم موسى عليه السلام .

ومن الرائع العجيب أن الله عز وجل بدأ في أواخر الربع الثاني من هذه السورة بذكر صنيع اليهود وقصصهم العجيب الغريب ، وكان بدء ذكر أحوالهم بالآية الكريمة (١) « يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم . وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم ، وإياى فارهبون » ثم كرر ذلك بعد ست آيات فقال عز وجل (٢) : « يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين ، واتقوا يوما لا تجزى نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون » . .

وفى هذا المقام ذكر الله تعالى هاتين الآيتين الكريمتين أيضا مع بعض التغاير فى الآية الثانية . فقال : اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وهذا امتنان عليهم بصنيع الله عز وجل مع آبائهم مما سبق ذكره ، أو أن النعمة التى أنعم بها عليهم هى حياتهم حتى أدركوا عصر الرسالة ونزول القرآن وما يكون للمؤمن به من أجر عظيم ومثوبة كريمة عند الله والناس « وأنى فضلتكم على العالمين » أى فضلت آباءكم على عالمى زمانهم ، وأهل عصرهم . . « واتقوا يوما » أى خافوه واحذروه واعملوا من أجله وهو يوم القيامة ، يوم النشور والجزاء والحساب « لا تجزى » أى لا تغنى « نفس » أى مؤمنة « عن نفس » أى كافرة ، « شيئا » التنكير هنا للتقليل أى شيئا قليلا ، أى تغنى غناء يسيراً فضلا عن الكبير ، « ولا يقبل منها عدل » أى فداء « ولا تنفعها شفاعة » أى استشفاع بأحد الصالحين الذين شملهم رضاء الله ورضوانه « ولاهم ينصرون » أى فى معركة يوم القيامة ، وفى هذا من التأكيد ما فيه بتقديم النفى وإيلائه الضمير ، وتكرار الإسناد وبناء الفعل للمجهول للقطع بأن أحدا ما كبيراً أو صغيراً لا يستطيع نصرهم وتغيير حظهم الذى قدره لهم فى الآخرة أى لا يأتيهم ناصر ينصرهم ويمنع عنهم عذاب الله إذا أنزل بهم .

وفى هذه القصص التى ذكرها الله عز وجل كرر ذكر عبادة بنى إسرائيل للعجل (٥١ و ٥٤ و ٩٢ و ٩٣ سورة البقرة) ، وكرر ذكر رفع الطور فوق بنى إسرائيل (آية ٦٣ و ٩٣ البقرة) ، ولكنه التكرار المفيد البليغ الذى يأتى لسد حاجة

---

(١) ٤٠ سورة البقرة . (٢) ٤٧ و ٤٨ البقرة .

النفس من البيان ، ولتفصيل الرد على ما يرد على الفعل من شبهات . وبهذا ينتهى الربع السابع من سورة البقرة وقد تضمن ذكر الشبهات التى أثارها أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن شابههم من المشركين على الإسلام ، وتضمن كذلك الرد عليهم بأبلغ بيان وأوضح عبارة ، وقد ختم هذا الربع بدعوة اليهود إلى شكر نعمة الله عليهم بالإيمان بمحمد عليه السلام وبالقرآن كتاب البشرية الحكيم .

١٢٤ — وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ

١٢٥ — وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ

١٢٦ — وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ

١٢٧ — وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

١٢٨ — رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ

١٢٩ — رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

١٣٠ — وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَـٰهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّـٰلِحِينَ

١٣١ — إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَـٰلَمِينَ

١٣٢ — وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ

١٣٣ — أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَائِكَ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ

١٣٤ — تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ

إحدى عشرة آية اشتمل عليها الربع الثامن من سورة البقرة ، واشتملت على ذكر جهاد أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام في إقرار عقيدة التوحيد في الأرض ، ورفع مناراته في العالم ، وبناء البيت العتيق ليكون مصدر الإشعاع الروحي في الدنيا على اختلاف العصور والأجيال . . .

وقبل أن نشرح هذه الآيات الكريمة نبدأ بذكر شيء قليل من تاريخ إبراهيم عليه السلام ودعوته إلى التوحيد في الأرض ، وقصة أحفاده إلى يوسف عليه السلام . يقول صاحب كتاب « قصص من القرآن » :

إن إبراهيم أبا الأنبياء : ولد بأرض بابل من بلاد العراق منذ آلاف السنين في قرية اسمها « قدام أرام » وكان أهل تلك البلاد ينعمون بالعيش الرغيد في ظل ملك مطاع وهو الملك نمروذ بن كنعان ولكنهم كانوا في ضلال مبين ، يعبدون

الأوثان فينحتونها بأيديهم ثم يتخذونها أربابا من دون الله . وكان آزر والد إبراهيم ينحت لقومه الأوثان ويتولى خدمتها وحراستها ويدعو الناس لتقديسها وعبادتها ، أما نمروذ ملك الديار فكان مطلق اليدين في أمته لشدة سطوته وسلطانه وجهل الناس وغوايتهم ، فأمرهم بأن يتخذوه إلها يعبدونه من دون الله لخضعوا لجبروته

ونشأ إبراهيم سليم الفطرة طاهر النفس فنفر بفطرته من تلك الأوثان التي زحمته في بيت أبيه وبيوت الأهل وعند الناس أجمعين . وساءه عكوف الناس على عبادتها مع أنها من صنع أيديهم ولا تغني شيئا ، وتعاهد مع نفسه على أن يحارب تلك العبادة وأن يرد الناس إلى الله الواحد الأحد . فلما بلغ مبلغ الرجال اختاره الله رسولا نبيا ليعلم الناس جميعا أنهم عباد الله وأنهم بعد موتهم مبعوثون ليوم عظيم وأنهم محاسبون في الآخرة على أعمالهم . ولما حمل إبراهيم عليه السلام عبء النبوة وجلال الرسالة رأى أول ما رأى أن يدعو أباه إلى توحيد الله لأنه امس الناس به رحما وأقربهم مودة . . ولقد اشتد به الحزن منذ رأى أباه أكبر الداعين لعبادة الأوثان فاذا هو استجاب لدعوته كان فوزه عظيما فأعد للحديث معه قولا لينا ودعاء هينا ، فلما خلا به قال له ما هذه الأصنام التي أنتم لها عاكفون ؟ فقال أبوه لقد وجدنا آباءنا لها عابدين : فقال : يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا ، يا أبت إني قد جاءني من العلم مالم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا ، يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشياطين وليا .

فابى آزر أن يستمع إلى ولده وأصر على عناده وكفره وقال له : أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لا رجمنك . وثابر إبراهيم على دعوته لأبيه ولم يخالطه اليأس من هدايته ، وقال يا أبت سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا . فقال أبوه لست بتابع ملتك فاهجرني مليا ، فحزن إبراهيم ويئس من هداية أبيه وقال له وهو مزمع فراقه إني براء مما تعبد .

وخرج على قومه يدعوهم لعبادة الله ويبذل لهم من النصح والإرشاد ما بذل لأبيه . ولكنهم ناوا بجوانبهم وقالوا له . أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين . قال بل ربكم رب السموات والأرض وأنا على ذلك من الشاهدين .

وكما يئس إبراهيم من هداية أبيه امتد إليه اليأس من هداية قومه فقد ظلوا عاكفين على عبادة الأوثان ، فطوعت له نفسه أن يحطم أصنامهم ، وهمس فيهم وهو منصرف عنهم : تالله لأكيدن أصنامكم . وجاء يوم العيد وخرج الناس من المدينة لم يتخلف منهم أحد إلا إبراهيم ، فلما خلا له الجو دلف إلى بيت العبادة حيث التماثيل والأوثان على الأرائك قائمة فانهال عليها ينكسها ويحطمها حتى جعلها جذاذا إلا كبيراً لهم ، وعادوا من عيدهم ودخلوا بيت الآلهة فراعهم ما حل بها من هوان وتحطيم فقالوا : من فعل هذا بآلهتنا ؟ . إنه لمن الظالمين ، فقال لهم بعض من سمع همسات إبراهيم : إنا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم . قالوا : فائتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون . وحمل إبراهيم إلى بيت الآلهة حيث جمع له أشراف المدينة وقالوا له : أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم . قال : بل فعله كبيرهم هذا فسألوهم إن كانوا ينطقون .

فثاب الناس إلى رشدهم ولاحت لهم الحقيقة سافرة . فإن الأوثان لا تنطق ولا تعقل وواجهوا إبراهيم باللائمة والتقريع فقال : اتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ، وعلى الرغم من تلك الحجة البالغة فإنهم اصروا على كفرهم وعنادهم وائتمروا فيما بينهم على الثأر لآلهتهم وتنادوا بالشر والعدوان وصاحوا في صوت واحد: احرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين .

فاجتمعوا حول حظيرة فسيحة وكدسوا بها أحطابا كثيرة ثم أوقدوا النار فيها حتى اشتد لهيبها وحملوا إبراهيم فوق آلة وقذفوه في أتونها وظنوا أن النار قد أتت عليه ولكن الله كان يرعاه ، وخرج من وقدة النار وحدها سليما معافى وأصبحت الجحيم التي أججوها لإحراقه بردا وسلاما على إبراهيم ، فهال الناس ذلك الإعجاز البالغ وقرع عقولهم حتى كادوا يؤمنون بإله إبراهيم لولا ما سبق في غيب الله من إلحادهم وكفرهم .

وذاعت روعة المعجزة البالغة حتى نفذت إلى نمروذ الملك في قصره فأمر بإبراهيم أن يحمل إليه . فلما مثل بين يديه أنكر عليه خروجه على إجماع قومه الذين يعبدونه من دون الله . ومحاولته الدعوة لعبادة إله آخر مع أن بيده ملكوت كل شيء ، وسأله من هو ربه الذي يؤمن به ويدعو الناس لعبادته ، فقال له إبراهيم :

وبي الذي يحيي ويميت ، فقال الملك أنا أحيي وأميت فصدمه إبراهيم بالحجة الحاسمة ، وقال ، إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الملك وألجم وألجئته الحجة ، وخرج إبراهيم من مجلس الملك خائفا يترقب وأحاطت به عيون الرقباء وتربصوا به السوء . فعقد العزم على الهجرة من وطنه والفرار من وجه ذلك الملك الطاغية ومن قومه المفتونين ، وتجهز هو وزوجه سارة وفي غفلة من عيون نمروذ فر من المدينة فاخترق الصحراء إلى سوريا وحط رحاله في أرض كنعان وهي فلسطين ، ولبث بين أهلها حقبة من الزمن يدعو لعبادة ربه وينفر الناس من تلك الأوثان التي عكفوا عليها .

ثم نزل الغلاء بالقحط بالناس فرحل إبراهيم وزوجه إلى مصر حيث الرخاء والرزق الموسع ، وكان حكام مصر من ملوك الرعاة وجعل إبراهيم يطوف المدينة بزوجته ساره ، وكانت فائقة الحسن فأعجب بها الناس ونقلوا خبرها إلى الملك ، فدعا الملك إبراهيم إلى قصره وسأله عن سارة فقال : إنها أخته وقد أدرك ما يرمى إليه الملك من الرغبة فيها ولو كان صدقه بأنها أهله لبادر الملك بالفتك به لتخلص له زوجه ، فزعم أنها أخته فأمر بها الملك فحملت إلى القصر وأفاضوا عليهما زينة الثياب والجوهر النفيس والقلائد وبسطوا لها الفرش الموطاة والأرائك من خالص الذهب فلم يفتنها ذلك النعيم المقيم ولا أنساها الوفاء لزوجها والبقاء على طهرها وعفتها وعصمها الله من الملك ، فلما أقبل عليها فتن بما لمس من ملاحتها وجمالها وأراد أن يمد يده إلى ناحيتها فاحس برجفة في بدنه وسرى إليه وهم قاتل فكف يده عنها فلما استعاد سكينته وسلامة يديه هم بها مرة ثانية فتصلبت أنامله وتمشت الرجفة في بدنه إلى أقصى فؤاده ، فتبين أنها قد عصمت منه بسياج من العفة والتقى لا يستطيع اجتيازه فكف عنها ، فلما جن عليه الليل رأى في المنام من هتف به ليخلي سبيلها ويكف عنها ، فلما أصبح سرحها إلى زوجها ووهبها جارية من سرايا القصر هي هاجر أم إسماعيل . ولبث إبراهيم بمصر فترة من الدهر فكانت له أنعام يرعاها ويعيش بنعمتها حتى بدا له أن يعود إلى أرض كنعان .

واستقر إبراهيم بفلسطين ومعه زوجه سارة وجاريتها هاجر ، فطال المدى بهم وبلغوا من الكبر مبلغه ولم ترزق سارة ذرية ، وكانت ترجو الولد رحمة بزوجها الذي تقدمت به السن وطال عليه الأمل في الولد ، فوهبته جاريتها هاجر على أن تنجب له الولد المنشود فاستجاب الله لهذا البيت الطاهر ورزق إبراهيم وهو في

السادسة والثمانين غلاما نجيبا من جاريته هاجر فدعاه إسماعيل وقرت به عينه وشاركته فى سروره زوجه سارة . ولبثت سارة فى نشوة السرور بالغلام الوليد فترة من أيامها ، ثم لحقتها نزعة الغيرة فبرمت بالغلام وأمه وأصبحت لا تطيق العيش بجانبهما وفاتحت إبراهيم فى ذلك وسألته أن يحملهما إلى مكان قصى من نواحى الدنيا فلا تراهما ولا تسمعهما ، وكان قدراً محتوما فأوحى الله إلى إبراهيم أن يحمل هاجر وإسماعيل إلى البرية البعيدة ، إلى جنوب كنعان حيث مقر بيت الله وكعبته الموعودة ، فركب دابته وحمل الطفل وأمه واخترق بهما الفيافى المقفرة والوديان القاصية يحدوه إلهام الله تعالى ويقود زمامه الوحى الكريم ويثبت أقدامه سلامة العقيدة وصدق الظنون فى تلك الرحلة المضنية حتى وقف به الترحال عند مكان بيت الله الحرام .

وما كان أحد قبل إبراهيم قد جاس تلك البقاع الظاهرة فأنزل ولده وأمه فى الصحراء . وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء . ثم ولى إبراهيم منطلقا فتبعته أم إسماعيل ، وقالت يا إبراهيم : أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس به أنيس ولا شىء . . قالت له ذلك مرارا وهو لا يلتفت إليها ، فقالت له . هل أمرك الله بهذا ؟ قال : نعم : قالت : إذا لا يضيعنا الله . ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذ كان عند العقبة من الجبل حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت الحرام ثم رفع يديه يناجى ربه وقال ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون

وجعلت هاجر ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه وهو يتلوى ، فانطلقت كراهة أن تنظر إليه فوجدت الصفا ، أقرب جبل من الأرض يليها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا فلم تر أحداً ، ففعلت ذلك سبع مرات ومن ثم كانت حكمة الصفا والمروة فى مناسك الحج .

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت : صه .. تريد نفسها . ثم تسمعت فسمعت أيضا فقالت : أسمعت فأغثنى ، فاذا هى بالملك عند موضع زمزم فبحث

بجناحه حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوضه ثم أخذت تغرف منه فى سقائها وهو يفور بعدما تغرف فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك : لا تخافوا الضيعة فان هاهنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه .

وكان البيت الحرام مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله ، كان كذلك حتى مرت بهم قافلة من اليمن هى أهل بيت من قبيلة جرهم مقبلين من أعلى مكة فنزلوا فى أسفل مكة فرأوا طائرا يتردد على الماء ويحوم حوله ولا يتحول عنه فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء فأرسلوا رسولا أو رسولين فاذا هما بالماء فرجعا فأخبراهم بالماء فاقبلوا وكانت أم إسماعيل عند الماء فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك فقالت : نعم ولكن لا حق لكم فى الماء قالوا لها ، نعم فاطمأنت بهم أم اسماعيل ووجدت فيهم الأنيس الذى يحميها فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم وكان فيهم أهل بيان فشب إسماعيل وتعلم العربية منهم فأحبوه وأعجبوا به حين كبر .

واعتاد إبراهيم أن يزوره ليطمئن عليه ، وذات ليلة رأى فى المنام أن الله يأمره بذبح ولده اسماعيل فامتثل لأمر ربه وسارع الى طاعته وسافر اليه وكان قد راهق ونما عوده فقال له : يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ فاطاع الغلام أمر ربه وأجاب أباه قائلا : يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين فأوثق يديه ومد يده ليذبحه فناداه ربه يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين ، ونزل من السماء ملك وبيده ذبح عظيم فذبحه ابراهيم : وأصبحت تلك الشعيرة سنة موروثة اتبعها المسلمون فى عيد الأضحى فيذبحون ضحاياهم فداء لإسماعيل ، وشب اسماعيل حتى بلغ أشده وتعلم العربية من قبيلة جرهم ثم زوجوه امرأة منهم وماتت أمه هاجر .

وزاره إبراهيم ، وكان اسماعيل قد تزوج ، فلم يجده فسأل امرأته عنه فقالت خرج يبتغى لنا الرزق ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت نحن بشر عيش نحن فى ضيق وشدة قال : فاذا جاء زوجك فاقرئيه السلام وقولى له يغير عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل كأنه أبصر شيئا لم يعهده فقال ، هل جاءكم من أحد ؟ قالت ، نعم جاءنا شيخ صفته كذا وكذا فسألنى عنك فاخبرته وسألنى كيف عيشنا فاخبرته أننا فى جهد وشدة ، قال : فهل أوصاك بشىء قالت نعم أمرنى ان أقرئك السلام ويقول غير عتبة بابك ، قال اسماعيل ، ذاك أبى وقد أمرنى أن أفارقك فالحقى باهلك ،

فطلقها وتزوج من امرأة أخرى ، وغاب عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجد إسماعيل فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت خرج يبتغي لنا الرزق قال كيف أنتم وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت نحن بخير وسعة وأثنت على الله فقال ما طعامكم قالت اللحم قال ما شرابكم قالت الماء ، قال . اللهم بارك لهم في اللحم والماء . قال فاذا جاء زوجك فاقرئيه السلام ومريه يثبت عتبة بابه . فلما جاء إسماعيل قال : هل أتاكم من أحد ؟ قالت . نعم أتانا شيخ حسن الهيئة ، وأثنت عليه ، فسألني عنك فاخبرته فسألني كيف عيشنا فاخبرته أنا بخير قال : فأوصاك بشيء قالت . نعم هو يقرئك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك . قال . ذاك أبي وأنت العتبة أمرني أن أمسكك

ولبث إبراهيم بعيداً عنهم ماشاء الله ثم جاء وكان إسماعيل يبري نبلا له تحت دوحة قريبا من زمزم فلما رآه قام اليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ، ثم قال يا إسماعيل إن الله أمرني بامر قال ، فاصنع ما أمرك ربك ، قال : وتعينني ، قال وأعينك ، قال : فان الله أمرني أن ابني هاهنا بيتا وأشار إلى أكمة مرتفعة عالية فعند ذلك رفعا القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء إسماعيل بالحجر الأسود فوضعه فقام عليه إبراهيم وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وطفق الاثنان يبتهلان إلى الله قائلين : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ، وعاش إسماعيل مائة وسبعاً وثلاثين سنة .

وشاخ إبراهيم عليه السلام وزوجه سارة ولم يرزقا ذرية حتى كانت البشارة باسحاق من الملائكة لإبراهيم وسارة حين قدموا على إبراهيم وقالوا له سلاما ، فقال سلام ، فما لبث أن جاء بعجل حنيذ . فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلناك إلى قوم لوط وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ، قالت ياويلتنا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا ؟ إن هذا لشيء عجيب ، قالوا : أتعجبين من أمر الله ورحمة وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ، وكان عمر إبراهيم حين ولد له إسحاق مائة سنة .

لما قبض الله تعالى إبراهيم سكن ولده إسماعيل الحرم بمكة وأقام ولده إسحاق

بمدين و بلاد الشام ومعه بقية أولاد ابراهيم أبيه ثم بعث الله اسحاق نبيا ورسولا بالأرض المقدسة ، فأقام بها ثمانين عاما حتى كف بصره ورزق على الكبر غلامين توأمين هما عيص و يعقوب وكان عيص أحبهما الى أبيه و يعقوب أحبهما إلى أمه فلما كبر إسحاق وكف بصره ، قال لولده عيص : يا بنى أريد منك أن تطعمنى لحم صيد واقترب منى أدع لك بدعاء دعا به أبى ، فخرج عيص يطلب الصيد وسمعت أمه كلام إسحاق فقالت ليعقوب : يا بنى اذهب إلى الغنم فاذبح منها شاة ثم اشوها وقدمها إلى أبيك وقل له أنا ولدك عيص ففعل يعقوب ذلك وقال يا أبتاه كل . قال من أنت . قال أنا ولدك عيص ، فمسه إسحاق وقال المس مس عيص والريح ريح يعقوب ، فقالت أمه هو ابنك عيص فادع له . قال : قدم طعامك فقدمه فأكل منه ثم قال له ادن منى فدنا منه فدعا له ان يجعل الله فى ذريته الأنبياء والملوك . وقام يعقوب وجاء عيص فقال لأبيه قد جئتك بالصيد الذى أمرتنى به فقال يا بنى قد سبقك أخوك يعقوب ، فغضب عيص و توعد أخاه بالقتل فقال له أبوه يا بنى قد بقيت لك دعوة فهلم أدع لك بها فدعا له فقال له تكون ذريتك عدداً كثيراً كالتراب ولا يملكهم أحد غيرهم ، وخافت أم يعقوب عليه من غوائل أخيه عيص وقالت له يا بنى الحق بخالك وكن فى كنفه ثم وصاه أبوه بالحذر من أخيه عيص وقال له يا بنى ارحل إلى العراق ، إلى قرية فدان أرام حيث يقيم خالك عسى أن يزوجك من إحدى بناته فتنال الامن والعز والشرف وإنى لارجو لك عيشا خيراً من عيش أخيك وذرية صالحة خيراً من نسله .

وقام يعقوب برحلته المضنية مخترقا صحراء سوريا إلى أرض العراق فكان يسير الليل ويقيم بالنهار ، ونام فى الطريق إلى جانب صخرة فرأى فى المنام معراجا منصوبا من السماء إلى الأرض وإذا الملائكة يصعدون فيه وينزلون وإذا بالوحى يهبط عليه من قبل الله تعالى بأن الله سيباركه وذريته وقد جعل هذه الأرض لعقبه من بعده فلما أفاق من نومه فرح بما رأى ونذر لله لئن رجع إلى أهله سالما ليبنين فى هذا الموضع معبداً لله عز وجل وان كل ما يرزقه من شىء فله عشره ، وسمى ذلك الموضع الذى بات فيه بيت ايل أى بيت الله وهو موضع بيت المقدس الذى بناه يعقوب بعد ذلك .

وأتم يعقوب رحلته فبلغ موطن آبائه وهى أرض إبراهيم التى تبينت فيها نبوته ورسالته ، بها أرض خاله والتقى يعقوب بخاله فأحله من نفسه محلا كريما ، وبقى

قضى أيام ضيافته سأله يعقوب أن يزوجه ابنته راحيل فانعم واستجاب ، ولكن يعقوب كان معدما لا مال له فعرض عليه لابان أن يرعى غنمه سبع سنوات ليكون من ذلك صداق ابنته فرضى بذلك يعقوب وانصرف إلى خدمة خاله ورعاية غنمه حتى انقضى الأجل فزف لابان إليه ابنته الكبرى « ليا » فقال يعقوب إنما أردت راحيل فاجابه بأنهم لا يزوجون الصغرى من البنات قبل الكبرى فان أردت الزواج براحيل فارع لنا أغنامنا سبعة أعوام أخرى ، فقبل يعقوب واندرج فى عمله حتى انقضى الأجل فزوجه من راحيل لجمع يعقوب بين الأختين وكان ذلك مباحا فى شرائعهم .

ورزق يعقوب عددا من البنين من زوجته ليا - وأبطا الحظ براحيل وطال عليها أمد العقم فلجات إلى ربها تدعوه وتتوسل إليه أن يهبها غلاما فسمع الله دعاءها واستجاب لها فولدت ليعقوب غلاما جميل الوجه عظيم القدر فسمته يوسف فاشتد به فرح يعقوب وآثره على بقية إخوته وأطال المقام عند خاله ست سنوات فاكمل بذلك عشرين عاما بارض بابل ثم بدا له أن يعود الى قومه فقد طالت هجرته فكاشف خاله بشأنه فقال له لقد بارك الله لى فى مالى بسببك فسلنى من النعم والشاء ما شئت وأعطاه من الغنم والمعز والبقر والإبل فارضاه وهم يعقوب بالرحيل فلحق به خاله فى الطريق وعاتبه على الرحيل قبل أن يودع ابنتيه وأولادهما . ثم استانف يعقوب رحلته الطويلة حتى قرب من وطنه فارسل رسله إلى أخيه عيص يترفق له ويتواضع فعادت اليه الرسل بان أخاه عيص قد خف لاستقباله فى حشد كبير من عبيده وغلمانه فخشى يعقوب غوائل أخيه عيص أن يبطش به وتضرع الى الله وناشده عهده ووعده وسأله أن يكشف عنه شر أخيه .

وأعد لأخيه هدية من الغنم والبقر والإبل والحمر فلما دنا من موطن قومه تبدى له من السماء ملك فى سمة رجل فمشى اليه وساله عن اسمه . فقال له اسمى يعقوب فقال له . لا ينبغى لك أن تدعى بعد اليوم إلا إسرائيل .

وأقبل أخوه عيص فى جمعه وحاشيته فلما رآه يعقوب سجد له سبع مرات وكانت هذه تحيتهم فى ذلك الزمان يراها الناس عملا مشروعا لهم ، وذلك كما سجدت الملائكة لآدم تحية له وكما سجد اخوة يوسف وأبواه له - فلما رآه عيص احتضنه وقبله وبكى ثم سجدت نساء يعقوب وأولاده لأخيه عيص وعرض يعقوب هديته

على أخيه فتقبلها ، فلما بلغ يعقوب ناحية ساحور ابتنى لنفسه وأهله بيتا وأقام العرائش لدوابه وأنعامه ، ثم مر على أورشليم فاشترى بها مزرعة وضرب فسطاطه وابتنى مذبحا أسماه بيت إيل وهو بيت المقدس ، وقد جدده سليمان بعد ذلك .

وحملت راحيل بولدها الثانى ثم وضعته وسمته بنيامين ، ثم ماتت فى أيام نفاسها وصار ليعقوب من البنين اثنا عشر ولدا ذكرا .

هذا ولم تتناول التوراة حياة إبراهيم بين الكلدانيين ومجهوداته لاقناعهم بوجود إله واحد ومحاولته نشر دعوته وتحطيم أصنامهم وقذفهم به فى النار ونجاته منها ولم تتناول علاقته بوالده وما دار بينهما كما لم تتكلم عن إعادة بناء إسماعيل للبيت الحرام . بينما تناول القرآن الكريم هذه الحقائق التاريخية بالإيضاح والتقرير .

وقوله تعالى فى الآية الأولى ، «وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن» . الابتلاء الاختبار أى معرفة حال المختبر بتعريضه لأمر يشق عليه فعله أو تركه ، والكلمات واحدها كلمة وتطلق على اللفظ المفرد وعلى الكلام المفيد . والمراد هنا معناها من أمر ونهى ، وأتمهن أى قام بهن خير قيام وأداهن أحسن التأدية بلا تفريط ولا توان ، وإماما أى رسولا .

فبعد أن حاج الله سبحانه أهل الكتاب وبين كفرهم بالنبى الذى كانوا ينتظرونه لبشارة كتبهم به ، ذكر هنا الأساس الذى بنى عليه الإسلام والنسب الذى يمت به ويحترمه أهل الكتاب ومشركو العرب . وهو ملة إبراهيم ونسبه ، فلا فضل إذا لليهود على العرب بأنهم يمتون بالنسب إلى إبراهيم ودين إبراهيم . إذ النسب واحد والملة واحدة .

فالقرآن حاج أهل الكتاب الذين جاء لإصلاح دينهم بما أدخلوه عليه من تحريف لبعضه ونسيان لبعضه الآخر ، وأثبت التوحيد والتنزيه لله تعالى ، وحاج أهل الشرك والوثنية التى جاء لمحوها ، تارة بالبراهين العقلية وتارة بالأدلة الكونية فى كثير من السور ولا سيما السور المكية .

ومعنى . «وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن» أى واذكر لقومك المشركين وغيرهم حين اختبر إبراهيم ربه ببعض الأوامر والنواهى عليه فأداها خير الأداء وأتى بها على وجه الكمال كما قال . «وإبراهيم الذى وفى» ، والمراد من ذكر

الوقت ذكر ما وقع فيه من الحوادث ، لأن الوقت محتو عليها ، فاذا استحضر كانت حاضرة بتفاصيلها كأنها مشاهدة عيانا . والقرآن الكريم لم يعين الكلمات ، ومن ثم اختلفوا فيها فقيل هي مناسك الحج ، وقيل : إنها الكواكب والشمس والقمر التي رآها واستدل بأفولها على وحدانية الله تعالى . وقيل هي الأوامر والنواهي التي جاءت بها شريعته ، وقال عكرمة رواية عن ابن عباس . الكلمات ثلاثون من شرائع الإسلام ، عشرة في براءة وهي « التائبون الخ » . وعشرة في الأحزاب وهي « ان المسلمين والمسلمات الخ » ، وعشرة في سورة المؤمنين إلى قوله تعالى « والذين هم على صلواتهم يحـــافظون » وفي سورة سال سائل ، إلى قوله تعالى « والذين هم بشهاداتهم قائمون » .

والضمير في « ربه » لإبراهيم لتقدمه « فأتمهن » أي أداهن تامات وقام بها حق القيام كقوله . . « وإبراهيم الذي وفى » ، « إني جاعلك للناس إماما » يقتدى بك في الخير ، والإمام اسم من يؤتم به وإمامة إبراهيم عامة مؤبدة إذ لم يبعث من بعده نبي إلا كان من ذريته ومأموراً باتباعه « قال » ابراهيم صلى الله عليه وسلم « ومن ذريتي » أي أولادي اجعل أئمة يقتدى بهم في الخير « قال » الله تعالى . « لا ينال » أي لا يصيب « عهدي » بالإمامة « الظالمين » منهم ففي ذلك اجابة الى مطلوب وتنبيه على أنه قد يكون من ذريته ظلمة وأنهم لا ينالون الإمامة لأنها امامة من الله تعالى وعهد والظالم لا يصلح لها ، وانما ينالها البررة ، والأتقياء منهم ، وفيه دليل على عصمة الأنبياء من الكبائر قبل النبوة وأن الفاسق لا يصلح للإمامة .

والآية الثانية هي قوله تعالى « وإذ جعلنا البيت » أي واذكر إذ جعلنا الكعبة « مثابة » أي مرجعا « للناس » من الحجاج والعمار وغيرهم يثوبون إليه من كل جانب « وأمنا » أي مأمنا لهم من الظلم وإيذاء المشركين والإغارة لوقعه في غيره قال تعالى . « أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم » ، كان الجاني يأوي إليه فلا يتعرض له حتى يخرج وهذا على طريق الحكم لا على وجه الخبر فقط فلا ينافي ذلك الوقوع ، ووصف البيت بالأمن ، والمراد الحرم كله لأنه لا يذبح في الكعبة ولا في المسجد الحرام . « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » هذا أمر استحباب ، وكان إبراهيم يقوم عليه عند بناء البيت أو عند دعاء الناس

إلى الحج . روى أنه عليه الصلاة والسلام أخذ بيد عمر ، فقال . هذا مقام إبراهيم فقال عمر : أفلا نتخذه مصلى فقال : لم أومر بذلك ، فلم تغب الشمس حتى نزلت .

وعن ابن عباس أنه قال ، قال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، وافقت الله فى ثلاث ووافقنى ربى فى ثلاث ، قلت يارسول الله لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى فأنزل الله هذه الآية ، وقلت يارسول الله يدخل عليك البر والفاجر لو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله آية الحجاب ، قال وبلغنى معاتبة النبى صلى الله عليه وسلم فدخلت عليهن وقلت لهن إن انتهيتن أو ليبدلن لرسوله خيراً منكن فأنزل الله تعالى : « عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن » . وقيل المراد باتخذوا من مقام إبراهيم مصلى الأمر بركعتى الطواف ، لما روى جابر أنه عليه الصلاة والسلام لما فرغ من طوافه عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين وقرأ « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » ، وللشافعى فى وجوبها قولان أرجحهما عدم الوجوب ، وقيل مقام إبراهيم الحرم كله ، وقيل مواقف الحج واتخاذها مصلى أن يدعى فيها ويتقرب إلى الله تعالى . « وعهدنا » أى أمرنا « إبراهيم وإسماعيل « أن » أى بان « طهر بيتى » من الأوثان والانجاس ومالا يليق به وأخلصناه « للطائفين » حوله « والعاكفين » المقيمين عنده أو المعتكفين فيه « والركع والسجود » جمع راكع وساجد وهم المصلون .

والآية الثالثة هى قوله تعالى . « و » أى واذكر « إذ قال إبراهيم رب اجعل هذا » أى مكة أو الحرم « بلداً آمناً » أى ذا أمن كقوله تعالى فى عيشة راضية » أو آمناً أهله كقول القائل ليل نائم « وارزق أهله من الثمرات » إنما دعى بذلك لأنه كان بواد غير ذى زرع ، وقوله تعالى . « من آمن منهم بالله واليوم الاخر » بدل من أهله ، قاس إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه الرزق على الامامة حيث قيده بالمؤمن كما قيدت به قال تعالى . « و » ارزق « من كفر » لأن الرزق رحمة دنيوية تعم المؤمن والكافر بخلاف الامامة والتقدم فى الدين (فامتعه) فى الدنيا بالرزق (قليلا) أى مدة حياته ، والكفر وإن لم يسبب التمتع لكنه يسبب تقليله بان يجعله مقصوراً بحظوظ الدنيا غير متوسل به إلى نيل الثواب ولذلك عطف عليه (ثم أضطره) أى ألجئه فى الاخرة (إلى عذاب النار) فلا يجد عنها محيصا (وبئس المصير) أى المرجع والمخصوص بالذم محذوف وهو العذاب .

وفى الآية الرابعة يذكر الله عز وجل قصة بناء البيت الشريف بيد إبراهيم وإسماعيل «و» اذكر «إذ يرفع إبراهيم القواعد» أى الأسس أو الجدر «من البيت» . هذا حكاية حال ماضية كأنه قال : إذ كان يرفع ، وفى إبهام القواعد وتبيينها بعد الإبهام ما ليس فى إضافتها من الإيضاح بعد الإبهام من تفخيم شأن البيت . «وإسماعيل» عطف على إبراهيم ، يقولان يا «ربنا تقبل منا» أى بناءنا «إنك أنت السميع» للقول فتسمع دعاءنا «العليم» أى عليم ببنياننا . روى أن الله تعالى أمر إبراهيم بعد ما ولد له إسماعيل وإسحاق ببناء بيت يذكر فيه اسمه تعالى فسأل الله عز وجل أن يبين له موضعه قال ابن عباس : فبعث الله له سحابة على قدر الكعبة فجعلت تسير وإبراهيم يمشى فى ظلها إلى أن وافت به مكة ووقفت على موضع البيت فنودى منها إبراهيم أن ابن على ظلها ولا تزد ولا تنقص وقيل : أرسل الله تعالى جبريل ليدله على موضع البيت فذلك قوله تعالى : «وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت» ، فبنى إبراهيم وإسماعيل البيت ، فكان ابراهيم يبنيه وإسماعيل يناوله الحجارة ، ولما كان له مدخل فى البناء عطف عليه ، وقيل كانا يبنيان فى طرفين أو على التناوب ، وبنيا قواعده من جبل حراء وهو جبل بمكة ، فلما انتهى إبراهيم إلى موضع الحجر قال لإسماعيل : ائتنى بحجر حسن يكون للناس علما فأتاه بحجر فقال ائتنى بحجر أحسن من هذا فمضى اسماعيل يطلبه فأخذه من أبى قبيس فأخذ الحجر الأسود فوضعه مكانه ، وقيل أول من بنى الكعبة آدم ثم اندرس البناء زمن الطوفان ، ثم أظهره الله تعالى لإبراهيم حتى بناه ، وقيل بنته الملائكة قبل آدم وقد بنى الى يومنا هذا سبع مرات المرة الأولى بناء الملائكة أو آدم ثم ابراهيم ، ثم العمالقة ، ثم جرهم ثم قريش ، وقد حضر النبى صلى الله عليه وسلم هذا البناء ، وكان ينقل معهم الحجارة ، ثم ابن الزبير فى خلافته ثم الحجاج الثقفى وهو الموجود اليوم .

والآية الخامسة هى قوله تعالى : ربنا واجعلنا مسلمين ، أى منقادين مخلصين خاضعين «لك» ، والمراد طلب الزيادة فى الإخلاص والإذعان ، «و» اجعل «من ذريتنا» أى أولادنا «أمة» أى جماعة «مسلمة» خاضعة منقادة «لك» ، ومن للتبعيض أى واجعل بعض ذريتنا ، وإنما خصا الذرية بالدعاء لأنهم أحق بالشفقة ولأن أولاد الأنبياء إذا صلحوا صلح بهم الأتباع ألا ترى أن المتقدمين من

العلماء والكبراء إذا كانوا على السداد كيف يتسببون فى سداد من وراءهم وخصا بعضهم لتقدم قوله تعالى : « لا ينال عهدى الظالمين » فعلما أن فى ذريتهما ظلمة وأن الحكمة الإلهية لا تقتضى اتفاق الناس كلهم على الإخلاص لله تعالى . ويصح أن يكون من النبيين كقوله تعالى « وعد الله الذين آمنوا منكم » وقيل، أراد بالأمة أمة محمد صلى الله عليه وسلم .. « وأرنا مناسكنا » أى شرائع ديننا وأعلام حجنا والنسك فى الأصل غاية العبادة وشاع فى الحج لما فيه من الكلفة والبعد عن المعتاد كالصيد والتمتع باللباس وغيره والناسك العابد ، فأجاب الله دعاءهما وبعث لهما جبريل فأراهما المناسك فى يوم عرفة فلما بلغ عرفات قال : عرفت يا ابراهيم؟ قال نعم فسمى الموقف عرفة والموضع عرفات « وتب علينا » سأله التوبة مع عصمتهما هضما لأنفسهما وإرشادا لذريتهما أو لما سلف منهما سهوا قبل النبوة « إنك أنت التواب » لمن تاب « الرحيم » به.

والآية السادسة دعاء وبشارة برسالة محمد عليه السلام .. « ربنا وابعث فيهم » أى الأمة « من أنفسهم » روى أنه قيل له قد استجيب لك وهو فى آخر الزمان ، فبعث الله فيهم محمدا صلى الله عليه وسلم اذ لم يبعث من ذريتهما غير محمد صلى الله عليه وسلم . ، فلم يأت نبى من ولد اسماعيل الا النبى صلى الله عليه وسلم والكل من ولد اسحاق فهو المجاب به دعوتهما كما قال عليه الصلاة والسلام : انى عبد الله مكتوب خاتم النبيين وان آدم لمنجدل فى طينته وساخبركم بأول أمرى أنى دعوة أبى ابراهيم وبشرى عيسى ورؤيا أمى التى رأت حين وضعتنى وقد خرج لها نور أضاءت له قصور الشام ، وأراد بدعوة ابراهيم هذا . قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : كل الأنبياء من بنى اسرائيل الا عشرة : نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب ومحمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين : « يتلو » أى يقرأ « عليهم آياتك » أى القرآن ويبلغهم ما يوحى اليه من دلائل التوحيد والنبوة .. « ويعلمهم الكتاب » أى القرآن « والحكمة » أى ما تكمل به نفوسهم من المعارف والأحكام . وقال ابن قتيبة : هى العلم والعمل ولا يكون الرجل حكيما حتى يجمعهما ، وقال أبو بكر بن دريد : كل كلمة وعظتك أو دعتك إلى مكرمة ونهتك عن قبيح فهى حكمة وقيل السنة « ويزكيهم » أى يطهرهم من الشرك وقيل: يشهد لهم يوم القيامة بالعدالة والخير « إنك أنت العزيز » الذى لا يقهر ولا

يغلب على ما يريد ، وقيل : هو الذى لا يوجد مثله ، وقيل هو المنيع الذى لا تناله الأيدى ولا يصل إليه شيء . ، « الحكيم » أى فى صنعه .

والآية السابعة تدل على أن شريعة إبراهيم هى شريعة الحق والدين والعقل ولا يتركها إلا سفيه ظالم لنفسه « ومن يرغب » أى لا يرغب أحد عن ملة إبراهيم فيتركها لظهورها ووضوحها « إلا من سفه نفسه » أى جهل أنها مخلوقة لله تعالى يجب عليه عبادته ، وذلك أن عبدالله بن سلام دعا ابنى أخيه سلمة ومهاجر إلى الإسلام فقال لهما : قد علمتما أن الله عز وجل قال فى التوراة إنى باعث من ولد إسماعيل نبيا اسمه أحمد فمن آمن به فقد اهتدى ومن لم يؤمن به فهو ملعون فأسلم سلمة وأبى مهاجر أن يسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وقد جاء : من عرف نفسه فقد عرف ربه ، وفى الأخبار : إن الله أوحى إلى داود عليه السلام . اعرف نفسك واعرفنى فقال : يارب كيف أعرف نفسى وأعرفك ؟ فأوحى الله تعالى إليه : أعرف نفسك بالضعف والعجز والفناء واعرفنى بالقوة والبقاء . وهذا معنى قوله ومن عرف نفسه فقد عرف ربه . . « ولقد اصطفيناه » أى اخترناه « فى الدنيا » بالرسالة « وإنه فى الآخرة لمن الصالحين » الذين لهم الدرجات العلى ، وفى هذا حجة وبيان لخطأ من رغب عن ملته ، لأن من جمع الكرامة عندالله فى الدارين وكان مشهوداً له بالاستقامة والصلاح يوم القيامة كان حقيقا بالاتباع لا يرغب عنه إلا سفيه أو متسفه أذل نفسه بالجهل وأعرض عن النظر .

والآية الثامنة هى قوله تعالى : « إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين » . إذ ظرف لاصطفيناه أى اخترناه فى ذلك الوقت أو منصوبة باضمار (اذكر) كأنه قال اذكر ذلك الوقت ليعلم انه المصطفى الصالح المستحق الإمامة والتقدم ، وأنه نال ما نال بالمبادرة إلى الاذعان وإخلاص السر حين دعاه فكأنه قال له - كما قال عطاء - أسلم نفسك إلى الله عز وجل وفوض أمرك إليه . قال أسلمت أى فوضت ، قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وقد حقق إبراهيم ذلك حيث لم يستعن بأحد من الملائكة حين ألقى فى النار .

والآية التاسعة ، ترشد إلى أن عقيدة التوحيد التى دعا إليها إبراهيم التزمها بنوه ودعوا إليها « ووصى بها » أى بالملة المتقدم ذكرها ، وقيل بكلمة الإخلاص وهى

لا إله إلا الله ، إبراهيم بنيه ، قال مقاتل وهم أربعة . إسماعيل وإسحاق ومدين ومدان . وقد ذكر غير مقاتل أنهم ثمانية وقيل أربعة عشر ، ووصى بها أيضا ، يعقوب ، بنيه وهم اثناعشر ، وسمى بذلك لأنه والعيص كانا توأمين فتقدم عيص وقوله تعالى ، ويا بنى ، على إضمار القول عند البصريين أو متعلق بوصى عند الكوفيين ، إن الله اصطفى لكم الدين ، أى دين الإسلام الذى هو صفوة الأديان لقوله تعالى ، فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، ، نهى عن ترك الإسلام وأمر بالثبات عليه إلى مصادفة الموت . وعن الفضيل بن عياض أنه قال إلا وانتم مسلمون أى محسنون بربكم الظن ، لما روى جابر رضى الله عنه أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل موته بثلاثة أيام يقول : لا يموتن أحد إلا وهو يحسن الظن بربه .

والآية العاشرة نزلت حين قال اليهود للنبى صلى الله عليه وسلم : ألست تعلم أن يعقوب يوم مات وصى بنيه باليهودية ؟ ، أم كنتم شهداء ، جمع شهيد بمعنى الحاضر وأم منقطعة أى ما كنتم حاضرين ، إذ حضر يعقوب الموت ، أى حين ذلك ، إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ، أى بعد موتى أى شىء تعبدونه أراد بهم تقريرهم على التوحيد والإسلام وأخذ ميثاقهم على الثبات فليس الاستفهام على حقيقته قيل ان الله تعالى لم يقبض نبيا حتى يخيره بين الموت والحياة ، فلما خير يعقوب قال أنظرنى حتى أسأل ولدى وأوصيهم ففعل الله ذلك فجمع ولده وولد ولده وقال لهم قد حضر أجلى فما تعبدون من بعدى ؟ ، قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك ، وقوله تعالى ، إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، عطف بيان لآبائك وجعل إسماعيل وهو عمه من جملة آبائه تغليبا للأب اسحاق والجد ابراهيم ، أو لأن العم أب والخالة أم لا نخراطهما فى سلك واحد وهو الأخوة لا تفاوت بينهما ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام ، عم الرجل صنو أبيه ، أى لا تفاوت بينهما كما لا تفاوت بين صنو النخلة ، وقال فى العباس هذا بقية آبائى . وقال ردوا على أبى فانى أخشى ان تفعل بى قريش ما فعلت ثقيف بعروة بن مسعود وقوله تعالى . ، إلها واحدا ، بدل من إله آبائك كقوله تعالى . بالناصية ناصية كاذبة . . وقوله . ، ونحن له مسلمون ، حال من فاعل نعبد أو من مفعوله أو منهما . والخطاب لليهود المنكرين الإسلام ، والمعنى أن اليهود لم يكونوا حاضرين وقت موت يعقوب فكيف ينسبون إليه ما لا يليق به ، أو الخطاب للمؤمنين بمعنى . ما شهدتم وإنما حصل لكم العلم به من طريق الوحى .

وقد أرشدت الآية الكريمة إلى أن دين الله واحد فى كل أمة وعلى لسان كل نبى. وروحه التوحيد والاستسلام لله والإذعان لهدى الأنبياء، وبهذا كان يوصى النبيون أممهم كما قال: «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه». فالقرآن يحث الناس على الاتفاق فى الدين الذى أساسه أمران: أولهما التوحيد والبراءة من الشرك بأنواعه، وثانيهما الاستسلام لله والخضوع له فى جميع الأعمال، فمن لم يتصف بذلك فليس بالمسلم أى ليس على الدين القيم الذى كان عليه الأنبياء، والناس يطلقون الإسلام اليوم لقبا على طوائف من الناس لهم ميزات دينية وعادات تميزهم من سائر الناس الذين يلقبون بألقاب دينية أخرى، وقد يكون من بعض أهله من لم يكن مستسلما مخلصا لله فى أعماله، بل قد يكون مبتدعا ما ليس منه، أو فاسقا عنه قد اتخذ إلهه هواه. والإسلام الذى دعا إليه القرآن هو الذى دعا إليه النبى صلى الله عليه وسلم.

والآية الحادية عشرة «تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون» معناها أن سنة الله فى عباده ألا يجزى أحد إلا بكسبه وعمله، ولا يسأل إلا عن كسبه وعمله كما جاء فى قوله: «أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وإبراهيم الذى وفى، ألا تزر وازرة وزر أخرى»، وجاء فى الحديث: «يا بنى هاشم لا يأتينى الناس بأعمالهم وتأتونى بأنسابكم». وقال الغزالى: إذا كان الجائع يشبع إذا أكل والده دونه، والظمآن يروى بشرب والده وإن لم يشرب، فالعاصى ينجو بصلاح والده.

١٣٥ — وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

١٣٦ — قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِىَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ

١٣٧ — فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

١٣٨ — صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَـٰبِدُونَ

١٣٩ — قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ

١٤٠ — أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُ مِنَ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

١٤١ — تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ

سبع آيات كريمة ينتهى بها الربع الثامن من سورة البقرة ، وينتهى بانتهائها الجزء الأول من القرآن الكريم ، وهى كلها فى الرد على أهل الكتاب الذين يتعصبون لشريعتهم ويحاجون فى الإسلام ، وقد بين الله عز وجل دون ما لبس أو خفاء أنهم لا يكونون مهتدين حتى يؤمنوا بكتاب الله ودينه وشريعته ، وأن الإسلام هو فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وأن جدل اليهود والنصارى فى الله مردود عليهم ، وأن زعمهم أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق والأسباط كانوا يهودا أو نصارى كذب على الحق وعلى الدين والتاريخ ، فهم رواد الإنسانية ودعاة لشريعة التوحيد ، والإسلام من قبل أن يبعث رسول الإسلام .

والآية الأولى من هذه الآيات السبع هى الآية الخامسة والثلاثون بعد المائة من سورة البقرة ، وقد سبقتها آية أخرى فى معناها ، وهى قوله تعالى : « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى الخ » . ومعنى هذه الآية الأولى « وقالوا » أى أهل الكتاب . كونوا هودا أو نصارى أى قالت اليهود كونوا هودا ، وقالت النصارى كونوا نصارى ، فاو للتفصيل ، قال ابن عباس رضى الله تعالى عنه : نزلت فى رؤس يهود المدينة وفى نصارى نجران وذلك أنهم خاصموا المسلمين فى الدين كل فرقة تزعم أنهم أحق بدين الهدى ، فقالت اليهود : نبينا موسى أفضل الأنبياء وكتابنا التوراة أفضل الكتب ودينا أفضل الأديان ، وكفرت بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ، وقالت النصارى مثل ذلك ، وقال

كل من الفريقين للمؤمنين : كونوا على ديننا فلا دين إلا ذاك ، وقوله تعالى : «تهتدوا» جواب الأمر وهو كونوا ، قال الله تعالى . « قل » لهم يا محمد « بل نتبع « ملة إبراهيم حنيفا » أي مائلا عن كل دين باطل إلى دين الحق وقوله تعالى : « وما كان من المشركين » تعريض باهل الكتاب وغيرهم لأن كل فريق منهم يدعى اتباع إبراهيم وهو على الشرك بالله .

والآية الثانية دعوة لليهود والنصارى إلى الإيمان بالإسلام ، وهي دعوة صريحة ليس فيها لبس أو خفاء ، قال الله تعالى : « قولوا آمنا بالله » وهو خطاب لأهل الكتاب والمشركين ، أو خطاب للمؤمنين ، قال الكشاف . ويجوز أن يكون خطابا للكافرين ، أي قولوا لتكونوا على الحق وإلا فانتم على الباطل ، وكذلك قوله تعالى : « قل بل ملة إبراهيم » يجوز أن يكون على تاويل اتبعوا ملة إبراهيم أو كونوا أهل ملته . . . « وما أنزل إلينا » أي من القرآن ، وإنما قدم ذكره لأنه أول الكتب بالنسبة إلينا ، أو لأنه سبب الإيمان بغيره « وما أنزل إلى إبراهيم » من الصحف العشرة « وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط » جمع سبط وهو الحافد ، وكان الحسن والحسين رضى الله تعالى عنهما سبطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمراد حفدة يعقوب أو أبناؤهم وذراريهم فانهم حفدة إبراهيم وإسحاق ، فان قيل الصحف إنما أنزلت على إبراهيم ، أجيب بانهم لما كانوا متعبدين بتفصيلها داخلين تحت أحكامها كانت أيضا منزلة عليهم كاأن القرآن منزل إلينا (وما أوتى موسى) من التوراة وما أوتى (عيسى) من الإنجيل ، ولم يقل والأسباط وموسى وعيسى ، لأن أمرهما بالإضافة إلى موسى وعيسى مغاير لما سبق والنزاع وقع فيهما فلهذا أفردا بالذكر (وما أوتى) أى أعطى (النبيون) أي المذكورون (من ربهم) من الكتب والآيات .. (لا نفرق بين أحد منهم (كاليهود والنصارى فنؤمن ببعض ونكفر ببعض بل نؤمن بجميعهم (نحن له) أي لله (مسلمون) أي مذعنون مخلصون ، روى عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا — الآية .

والآية الثالثة دعوة لهم إلى الإيمان بالإسلام بعد أن شرح القرآن الكريم حقيقة الإسلام في الآية السابقة ، قال تعالى . « فان آمنوا » أي اليهود والنصارى (بمثل

ما آمنتم به فقد اهتدوا » من باب التعجيز والتبكيت ، كقوله تعالى « فأتوا بسورة من مثله » ، لأن دين الحق واحد لا مثل له ، وهو دين الإسلام ، قال تعالى « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه » ، أو المعنى آمنوا بما آمنتم به ومثل زائدة كقوله تعالى ليس كمثله شيء ، وكما فى قوله تعالى « وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله » أى عليه ، وقيل الباء زائدة كما فى قوله تعالى . « وهزى إليك بجذع النخلة وقيل معناه فان آمنوا بكتابكم كما آمنتم بكتابهم فقد اهتدوا . « وإن تولوا » أى أعرضوا عن الايمان به « فإنما هم فى شقاق » أى فى خلاف ومنازعة معكم يقال شاق مشاقة إذا خالف . كأن كل واحد من المتخالفين يحرص على ما يشق على صاحبه « فسيكفيكهم الله » يا محمد ، فى ذلك تسلية وتسكين للمؤمنين ووعد لهم بالحفظ والنصر على من عاداهم ، وقد كفاه إياهم بقتل بنى قريظة ونفى بنى النضير وضرب الجزية على اليهود والنصارى ، وقوله تعالى : « وهو السميع العليم » إما من تمام الوعد بمعنى أنه يسمع أقوالهم ويعلم اخلاصكم وهو مجازيكم لا محالة ، وإما وعيد للمعرضين بمعنى أنه يسمع ما يبدون ويعلم ما يخفون وهو معاقبهم عليه ، ولا مانع من حمل الكلام على الوعد والوعيد معا .

والآية الرابعة ترشد إلى أن الإسلام هو دين الإنسانية ودين الله الحق لأنه دين الفطرة الإنسانية السليمة ، (صبغة الله) أى دينه الذى فطر الناس عليه لظهور أثره على صاحبه كالصبغ الثوب أو للشاكلة فان النصارى كانوا وإذا ولد لهم ولد وأتى عليه سبعة أيام غمسوه فى ماء لهم أصفر يقال له المعمودية ويقولون هو تطهير لهم مكان الختان فاذا فعلوا به ذلك قالوا الآن صار نصرانيا حقا فأمر المسلمون بأن يقولوا لهم قولوا آمنا بالله وصبغنا الله بالإيمان صبغة مثل صبغتنا وطهرنا تطهيراً ولا مثل تطهرنا . أو يقول المسلمون صبغنا الله بالإيمان صبغة ولا نصبغ صبغتكم (ومن) أى لا أحد (أحسن من الله صبغة) أى لا صبغة أحسن من صبغته أى لا دين أحسن من دينه ، وقوله تعالى : (ونحن له عابدون) عطف على آمنا بالله وصبغة الله منصوب على المصدر المؤكد أو بتقدير فعل محذوف تقديره الزموا على الإغراء . ولما قالت اليهود للمسلمين نحن أهل الكتاب الاول وقبلتنا أقدم ولم تكن الأنبياء من العرب لأنهم عبدة الأوثان ولو كان محمد نبيا لكان منا لأننا أهل الكتاب .. نزلت الآية الخامسة وهى قوله تعالى : (قل أتحاجوننا)

أى تجادلوننا أو تخاصموننا (فى الله) أى فى شأنه أن الله اصطفى النبى صلى الله عليه وسلم من العرب دونكم وتقولون لو أنزل الله على أحد لانزل علينا ، وترون أنكم أحق بالنبوة منا (وهو ربنا وربكم) نشترك جميعا فى أننا عباده وهو يصيب برحمته وكرامته من يشاء من عباده (ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم) نجازى وتجازون بها ، وآثار أعمالنا عائدة علينا وآثار أعمالكم عائدة عليكم (ونحن له مخلصون) فى الدين والعمل دونكم فنحن أولى بالاصطفاء فلا تستبعدوا أن يؤهل أهل أخلاصه لكرامته بالنبوة والهمزة للإنكار .

والآية السادسة نفى لما زعمه اليهود أو النصارى من أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا على اليهودية أو النصرانية (أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا او نصارى قل) لهم يا محمد (أأنتم أعلم أم الله) أعلم ، وقد نفى الله الأمرين عن إبراهيم بقوله تعالى : (ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما) واحتج الله تعالى على ذلك بقوله تعالى : (وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده) والمذكورون معه أهله وفى دينه فهم أتباعه فى الدين وفاقا (ومن) أى لا أحد (أظلم ممن كتم) أى أخفى عن الناس (شهادة عنده) كائنة (من الله) أى شهادة الله لإبراهيم بالحنيفية والبراءة عن اليهودية والنصرانية وهم أهل الكتاب لأنهم كتموا هذه الشهادة وكتموا شهادة الله لنبينا بالنبوة فى كتبهم وغيرها (وما الله بغافل عما تعملون) أى أن الله لا يترك أمركم سدى ، بل يعذبكم أشد العذاب ، وهو محيط بما تأتون وما تذرون . ولا يخفى ما فى هذا من الوعيد والتهديد عقب التقريع والتوبيخ .

والآية الأخيرة (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون) معناها أن جماعة الأنبياء قد مضت بالموت ، ولها ما كسبت من الأعمال ولكم ما كسبتم منها ولا يسأل أحد عن عمل غيره ، بل يسأل عن عمل نفسه ويجازى به ، فلا يضره ولا ينفعه سواه ، وهذه قاعدة أقرتها الأديان جميعا وأيدها العقل كما قال تعالى : (أن لا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) وهذا التكرار للمبالغة فى التحذير والزجر عما استحكم فى الطباع من الافتخار بالآباء والاتكال عليهم ، وقيل الخطاب فى جميع ما سبق

لهم ، وفى هذه الآية تحذير لنا من اقتداء المسلمين بهم ، وقيل : المراد بالأمة فى الأول الأنبياء ، وفى الثانى أسلاف اليهود والنصارى .

ومن هنا تعلم هذه الأصول الرفيعة التى اشتمل عليها هذا الربع الثامن من سورة البقرة . وفى مقدمة هذه الأصول وحدة الدين وتكامله وسموه وانبناء العقيدة الإلهية على التوحيد الخالص . وعلى الصفاء الكامل ، وعلى الإخلاص لله رب العالمين ، وفى هذا الربع نص صريح واضح كامل مفصل بأن أهل الكتاب من اليهود والنصارى لا يكونون مؤمنين حقا ومهتدين صدقا إلا إذا آمنوا أيضا بشريعة الإسلام ، وأن من يريد النجاة منهم فليؤمن بمحمد وبالقرآن مع إيمانه بعيسى والإنجيل أو بموسى والتوراة ويشير ذلك كله إلى أن الإسلام هو شريعة الله والإنسانية الكاملة ، وأنه هو الدين الذى يجب أن تعتنقه الشعوب لتسير فى طريق التقدم والرقى والنهضة ، لأنه جدير بأن يؤيد كفاح الشعوب لتسير فى طريق الرقى والتحرر والعمل من أجل تقدم الإنسان ، لأن الإيمان بالمسيحية أو باليهودية وحدهما لم يعد كافيا ، لفقدان كل منهما الاصول التى انبنت عليها شريعة الاسلام المثلى الكاملة ويستلزم ذلك وجوب الاعتقاد بأن دين الاسلام هو خاتم الديانات ومتممها ومكملها . ومادام الإسلام واجبا على كل إنسان كتابيا أو مشركا فليس معنى ذلك سيادة طبقة أو طائفة على غيرهم من الناس ، بل السيادة إنما هى لله ولرسوله والدين الحق وحده ، وأتباع هذا الدين الحق يعيشون فى وئام ووحـــدة وإخاء ، بصرف النظر عن شعوبهم وأجناسهم وعقائدهم الأخرى ، فالسيادة حينئذ ليست لجماعة ولا لجنس إنما هى للانسانية ولفكرة السلام التى جاء بها القرآن ودين الاسلام ، والسيادة للمؤمنين بمثالية الاسلام وآدابه وأهدافه وأصوله .

وهكذا يقودنا التفكير فى أسرار الله تعالى فى هذا الربع من الكتاب الكريم والفرقان الحكيم ، إلى ما تضمنه من ذكر توحيد إبراهيم وحنيفيته البيضاء . وما يقابل هذه الحنيفية وذلك التوحيد من شرك المشركين وعصيان الكتابيين وتحريفهم وكذبهم وخروجهم على الدين الحق ، وفى مقدمة هؤلاء الكتابيين اليهود ، الذين ضلوا وأضلوا عن سبيل الله ودين الحق وشريعة محمد عليه السلام .. وإلى أن الاسلام قائم على التوحيد الذى قامت عليه شريعة إبراهيم ، فالمؤمنون بشريعة محمد قد استقاموا على طريقة إبراهيم ، والقائمون على حنيفية إبراهيم يجب أن يؤمنوا بالإسلام والقرآن

ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ، ولقد اصطفاه الله فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . ويؤكد الله عز وجل وحدة العقيدة بين الأديان كافة ، وأن الايمان واجب بالله وبالقرآن وبشريعة إبراهيم والأنبياء من بعده ، فالجميع هدفهم واحد ورسالتهم واحدة والايمان بهم ضرورى لكل مؤمن موحد بالله : إن الايمان بشرائع الرسل والأنبياء كافة حتم مفروض على كل إنسان ، فليس من الايمان أن يفرق المؤمن بين أحد من الأنبياء والرسل ، ولا أن يؤمن ببعض هذه الشرائع . ويدع الايمان ببعضها الآخر .

وفى هذا الربع يذكر الله عز وجل أن الايمان برسالة محمد واجب على الكتابيين والمشركين على السواء لأنها خاتمة الرسالات ، ولأن الايمان لا يتم إلا بها ، ولأن الاعتقاد فى شريعة موسى أو عيسى يجب أن يصحبه لمن يريد النجاة فى الدنيا والآخرة الايمان بالقرآن والاسلام وشريعة محمد عليه السلام ، ومن يريد النجاة والفوز والهدى فليؤمن بما يؤمن به المسلمون ، فشريعة الاسلام هى دين الفطرة الإنسانية ودين البشرية الرشيدة المهذبة الرفيعة ، وهى بما تضمنته من أصول ومبادىء التوحيد الخالص متفقة مع حنيفية إبراهيم وطهر رسالته عليه السلام ، ولقد كان ابراهيم رسول الوحيد . ونبى الصفاء الروحى والداعى إلى الله وإلى الحق وطريق مستقيم .

وبعد فدين إبراهيم دين الحنيفية البيضاء وشريعته هى الشريعة المطهرة التى دعا اليها الأنبياء بعده ، ولقد عاش إبراهيم عظيما ، ومات كريما وترك ذرية طيبة تعبد الله فى الأرض ، وكان من نسله الكثير من الأنبياء والمرسلين حتى لقب « بأبى الأنبياء » ، ولقد تلقى ابراهيم عن ربه كلمات الدين والتوحيد فأتمهن ، وبلغها للناس تامات ووفى بعهد ربه ونشر كلمة الإيمان فى الآفاق وذهب راضيا مرضيا، « وتركنا عليه فى الآخرين : سلام على ابراهيم ، كذلك نجزى المحسنين » .

ثم ورث محمد صلوات الله عليه عنه هذا الميراث الالهى العظيم ، وجاء بعده بأجيال ليحقق للانسانية السعادة والأمن والسلام .

نظرة عامة فى الجزء الأول

(١)

الجزء الأول من القرآن الكريم هو أول سورة البقرة ، وهى من السور المدنية الطوال التى اشتملت على محاجة اليهود ، وعلى كثير من تشريعات الإسلام، وليس هذا الجزء أول القرآن نزولا ، بل هو أوله ترتيبا ، وسورة البقرة هى السورة الثانية من القرآن الكريم فى الترتيب لا فى النزول وآياتها ست وثمانون ومائتا آية ، وقال على رضى الله عنه : إنها أول سورة نزلت بالمدينة وهى ذروة القرآن الكريم ، بل سنامه كما يقول الحديث الشريف ، وعن النبى صلى الله عليه وسلم : أعطيت سورة البقرة من الذكر الأول ، وأعطيت طه والطواسين من ألواح موسى ، وأعطيت فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش والآية الشريفة الحادية والثمانون بعد المائتين من هذه السورة نزلت بمنى فى حجة الوداع .

(٢)

وتبتدئ هذه السورة بتعظيم القرآن الكريم وتمجيده ، لأنه معجزة محمد الخالدة ودليله على صدق نبوته ، وأحقية رسالته ، وقد سبق أن أفضنا فى ذكر التحدى بالقرآن الكريم . ومن ينظر إلى ما اشتمل عليه القرآن من الآراء العلمية فى الحياة والسماء والأرض وكل شىء يعتقد أنه معجزة صادقة ودليل إلهى حق لا ريب فيه على صدق رسالته ونبوته صلى الله عليه وسلم ، وحسبكم الآية الكريمة . «كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب» ، فهى دليل لا ريب فيه على نفى ما يدعيه بعض الجاحدين من أن محمدا عبقرى وأن القرآن كلامه ، إذ كيف يصل عقل بشرى منذ نحو أربعة عشر قرنا من الزمان إلى أن الجلد والمنطقة المحيطة به هى مركز الإحساس والأعصاب ، وما وراء ذلك لا يشعر بشىء ولا يحس بشىء ، فعندما تحترق منطقة الإحساس من شدة عذاب النار ، يعيدها الله من جديد ، ليذوقوا العذاب ويحسوا به ويشعروا بشدته ، ويعرفوا أن ما صنعوه فى الدنيا لم يكن نسيا منسيا عند الله . وكلمة (ليذوقوا) ترشد إلى هذا الإعجاز العلمى البليغ ، ومعناها ليحسوا بالعقاب إحساسا شديداً بليغا قويا لا وهن فيه

ولا ضعف.

ثم يلي هذا الابتداء الرائع ذكر المتقين وصفاتهم لأنهم هم الذين ينتفعون بالقرآن الكريم، وتظهر عليهم آثاره، وقد خصهم من بين صفاتهم، بالإيمان بالغيب وإقامة الصلاة وإنفاق المال على سبيل الصدقة والإحسان والزكاة. وإقامة الصلاة تطهير روحي دائم للمسلم، والسخاء وإيتاء الزكاة دليل على يقظة المسلم وشعوره بواجبه نحو مجتمعه، أما الإيمان بالغيب وما تلاه مما ذكره القرآن الكريم من الإيمان برسالة محمد، ورسالة الأنبياء والرسل قبله، ومن الإيقان بالآخرة، فهو الجانب الغيبي في الاسلام، وبدونه لا يكون الانسان مسلما، فيجب على الإنسان المسلم أن يؤمن بالملائكة والجنة والنار والبعث والنشور والحساب والعقاب، وأن يؤمن قبل ذلك كله بوجود الله مصدر الحياة ومفيضها على الناس. وبدون الايمان بالله وبرسالة محمد والرسل من قبله لا يكون الانسان ذا شعور حي بالحياة، ولا يكون مسلما مصدقا برسالة خاتم الأنبياء. لذلك حاججنا ونحاجج دائما المذهب المادي الذي يقيم كل شيء على أسس مادية واهية ويفسر الحياة والوجود تفسيراً ماديا صرفا، ينتهي به إلى جحود وجود الله، وأنه مخدر للشعوب، إلى آخر ما يقوله الجاحدون والكافرون، تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً

ومن ثم فقد وصل الله عز وجل ذكر المؤمنين بذكر الكافرين: مبينا أنه قد ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة، وأن لهم عذابا عظيما ينتظرهم يوم الدين.

ويفيض القرآن الكريم في ذكر صفات المنافقين، الذين يعيشون بين هؤلاء وهؤلاء، لا يؤمنون، ويتظاهرون بالإيمان، ويعيشون على الافساد ويدعون أنهم هم المصلحون: إنهم هم الذين اشتروا الضلالة بالهدى، ولن تربح تجارتهم عند الله والناس، وما كانوا مهتدين، ثم مثل الحق جل جلاله هؤلاء المنافقين من اليهود ومن على شاكلتهم برجل يسير في الظلام دامس لا يرى شيئا، فاستوقد نارا ليبصر الطريق، فلما اشتعلت وأضاءت ما حوله فأبصر الطريق، وظهرت له معالم التحقيق أطفأ الله تلك النار وأذهب نورها ولم يبق إلا جمرها وحرها، كذلك شأن هؤلاء المنافقين كانوا في ظلمات الكفر ينتظرون ظهور النبي ويطلبونه، فلما بعثه الله كفروا بالهدى الذي جاء به، فأذهب الله عنهم نوره، وتركهم في ظلمات الكفر

والنفاق والشك لا يبصرون ولا يهتدون ، ومثلهم أيضا في تحيرهم واضطرابهم بأصحاب مطر غزير ، فيه ظلمات ورعد وبرق ، فاذا زمجر الرعد وعظم صوته جعلوا أصابعهم في آذانهم من الهول والخوف وإذا لمع البرق كاد أن يخطف أبصارهم فاذا أضاء أبصروا الطريق ومشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم ظلوا في حيرة وخوف وعذاب ما بعده من عذاب .

(٣)

فاذا ما انتهى القرآن الكريم من ذكر المؤمنين والكافرين والمنافقين، عاد إلى دعوة الناس جميعا إلى الإيمان وإلى عبادة الله وحده ، وعلل هذه الدعوة تعليلا عقليا قويا لا يمترى فيه عاقل ، فالله الذى أمرنا بعبادته وطاعته والإيمان به هو خالق الإنسان وخالق الحياة على الأرض حيث جعل الأرض فراشا والسماء بناء ، وأنزل المطر من السحاب فأخرج به الزرع والنبات والفواكه والأشجار وكل ما هو رزق ومتاع الإنسان .

ومعنى كون الأرض فراشا أنها مهدت أمام الإنسان للحياة والمشى والسعى فيها هذا التمهيد العجيب الغريب ، وقد أودع الله عز وجل بحكمته وقدرته الحياة على الأرض وخلق الإنسان كامل النمو والتكوين ليكون خليفته فى أرضه .

ومعنى كون السماء بناء أنها كون عجيب بما يشتمل عليه من نجوم وكواكب وشهب وسواها ، ومن بين الكواكب التى تسير فى السماء ، فى هذا الفضاء الذى ليست له حدود : عطارد ، والزهرة : والمريخ ، والقمر ، والشمس ، وسواها ، ويبدوا كل نجم أو كوكب وكأنه مصباح موضوع فى فضاء طويل لا نهاية له .

وبعد ما خلق الله الأرض والسماء خلق الحياة على ظهر الأرض ، فأنزل المطر من السحاب ، وأخرج به النبات من باطن الأرض ، فكيف لا يعبد هذا الإله الخالق العظيم ؟ .

إن خلق السموات والأرض من آيات الله الكونية الدالة على وجوده وقدرته ورحمته وعلمه الواسع ، وفيه آيات بينات يبهر الناظرين بعض ظواهرها ، فكيف حال من اطلع على ما فيها من عجائب كشف العلم عن بعضها ، ودل ما عرف على

مالم يعرف ، وهو لا نهاية له .

والأجرام السماوية طوائف يبعد بعضها عن بعض بعداً شاسعا ، ولكل طائفة منها نظام عام ، وأقرب تلك الطوائف إلينا ما يسمى النظام الشمسي ، نسبة إلى الشمس التي يفيض نورها فيكون سببا للحياة في الأرض ، ويتبع الشمس كواكب مختلفة في أبعادها ومقاديرها ، كل كوكب منها قد استقر في موضعه ومداره وحفظت النسبة بينه وبين غيره من الكواكب .. كل ذلك بسنن إلهية أوجدها القادر الحكيم ولولا هذه السنن لتفتتت هذه الكواكب السابحة في الفضاء . وصدم بعضها بعضا وهلك العالم جميعا .

والمراد بالسموات والأرض هو الموجودات . وقد تطلق السموات على مادون العرش من العالم العلوي وخاصة إذا وصفت بالسبع كما هنا في سورة البقرة ويذكر الله عز وجل في بعض الآيات . كما في سورة الحديد . أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام : وقال في آية أخرى : « قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ، ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها اقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات في يومين . وأوحى في كل سماء أمرها . وزينا السماء الدنيا بمصابيح . وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم » . ففي هذه الآية الأخيرة تفصيل لما أجمل في آية الحديد حيث جعل للسموات يومين . وجعل لخلق الأرض يومين . ثم أوجد الرواسي فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في يومين . فيكون مجموع ما أخذته الأرض وما فيها أربعة أيام . وجملة ما أخذته السماء يومين : « فقضاهن سبع سموات في يومين ، وأوحى في كل سماء أمرها » . وهذه الأيام الستة ليست من جنس أيامنا . فان هذه الأيام وجدت بعد خلق الأرض . ولا بد أن تكون من أيام الله التي يعلمها هو وقد قال في يوم القيامة : « في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » . وقال في آية أخرى : « وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » . وقد تكون السنة سنة نورية فالأيام مقادير لأطوار مرت على الخليقة يعلمها الله سبحانه وتعالى ، ويجب أن نقف عن تحديدها فانها لم تحدد باخبار صحيحة ، والله سبحانه يقول : « ما أشهدتهم

خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم » .

وقد روى عن أبى هريرة ما يدل على أن الأيام من أيامنا ، وتكلم فيه البخارى وغيره من الحفاظ ، وجعلوه من رواية أبى هريرة عن كعب الأحبار ، ولم يجعلوه مرفوعا . والذى قاله البخارى هو الذى يجب التعويل عليه . وفى الإسرائيليات شىء كثير ، وفيها بيان لما صنع فى أيام الأسبوع ولو كانت هناك أية فائدة فى بيان جنس الأيام وفى بيان ما صنع فى الأيام لأخبرنا الله سبحانه بذلك فهو الجواد ، والعبرة إنما هى فى الخلق وفى جعله أطواراً . وقد أرشد الله سبحانه فى آية فصلت إلى أنه استوى إلى السماء وهى دخان ، وقال فى سورة الأنبياء : « أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما . وجعلنا من الماء كل شىء حى ، أفلا يؤمنون ؟ » ، وهذا يدل على أن السموات والأرض كانتا مادة واحدة متصلة وفصل بعضها عن بعض ، وهى مادة تشبه الدخان ، ومن هذه المادة خلق السموات ، بدليل « ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها » ، ويدل على أن مادة الدخان بعد الفصل تحول جزء منها إلى ماء ، وبعد ذلك تكونت اليابسة والرواسى ، وبعد ذلك ظهرت الحياة والأقوات . فالأطوار التى مرت على الأرض : الدخان ، ثم الماء ، ثم اليابسة ثم الأحياء والأقوات .

ونحن نؤمن بأن الله خلق السموات والأرض فى ستة أطوار يعلمها هو ، ونؤمن بأن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقهما ، ونؤمن بأن خلق السموات فى يومين ، وخلق الأرض وما فيها فى أربعة ، ونؤمن بأنه كل شىء حى فمن الماء خلقه ، ، وأن كل شىء خلقه بقدر ، وما انزل شيئا إلا بقدر معلوم . وإذا كشف العلماء عن تفاصيل فى مادة الخلق وأطواره لا تنافى ما قرره القرآن فلنا أن نقبلها . وما قيل حتى الآن لا يخرج عن دائرة الظنون والفروض ، فلا يجوز لنا أن نرد به شيئا من القرآن .

ومعنى استوائه إلى السماء قصده لها ، وفى آيات كثيرة « ثم استوى على العرش » كما فى سورة الحديد ، وقد سئل مالك كيف استوى على العرش ؟ فوجد وجدا شديداً وأخذته الرحضاء ، ولما سرى عنه قال : الكيف غير معقول ، والاستواء منه غير مجهول . والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة وأخاف أن تكون ضالا ، وأمر به فاخرج وروى عنه أنه قال له : استوى كما وصف نفسه ، وأنت رجل سوء صاحب بدعة ... واستواؤه على العرش مما نؤمن به إيمانا

جازما لأنه ورد فى القرآن الكريم ، وإن كان عرشه تعالى مما لا يعلمه ولا يحيط به البشر ، وليس العرش حاملا لله تعالى كما يتوهمه بعض العامة من الناس . وإلا لكان الله تعالى محمولا أو فى جهة أو حيز ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً ، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، والقرآن يدل على أن العرش لم يزل مستعليا منذ وجد بدليل قوله تعالى . « وكان عرشه على الماء » ، وأقرب ما يقال فى الاستواء أنه التصرف فى الموجودات والتمكن من تدبير أمرها مع عدم المنازع والمغالب ، وقد عبر عن ذلك المعنى بما يفهمه الناس من استواء الملك على عرشه وتمكنه من التدبير والتصرف والملك والسلطان فى شئون رعيته ، والقرآن قد نزل وفق أساليب العرب ومناحى بلاغتها ، وفيه أسلوب المجاز وأسلوب الكناية ، والعقل أو القرائن هى التى تصرف الألفاظ عن ظاهرها إلى ما يليق بجلال الله وعزته ، وإن كان السلف يقولون . الاستواء معلوم ومعناه مجهول ، فاستواء الله عندهم حقيقة وإن كنا لا نعلم كيفيته ، ولكن ذلك مما يوقع الناس فى التجسيم ولوازم التجسيم . وعلى هـــذا التأويل يكون معنى استواء الله إلى السماء أنه قصد إليها بالتدبير والتصرف ، وأنه متمكن من التدبير فيهما ، وأنه جل جلاله أراد أن يعمل هذا العمل العظيم الذى لا يقدر عليه أحد فقصد إلى السماء بالسلطان والقوة ، وسواها سبع سموات ، وهو عليم بكل شىء ، وبالأشياء كلها ، ومن تمام علمه أنه فعل ذلك لما يعلمه من أن خلقه محتاجون فى حياتهم إلى ذلك التقسيم والتنظيم العجيب .

وإنما قال . « فسواهن » ، ولم يقل « فسواها » لما يشعر به ذلك من أن السماء ليست شيئا واحدا ، ولا جرما ضيقا . بل هى ملايين من الكواكب والنجوم والسدم ، وهى آفاق واسعة رحيبة لا نهاية لها عند مرأى البصر ، وقال تعالى فى سورة فصلت : « فقضاهن سبع سموات » بعد أن قال « ثم استوى إلى السماء » ، ثم قال عقيب ذلك « ذلك تقدير العزيز العليم » وهذه الفقرة الكريمة من آية فصلت تفسر قوله تعالى فى سورة البقرة « وهو بكل شىء عليم » . وتقديم الأرض فى الذكر على السماء فى سورة البقرة حيث قال تعالى : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء » لأمرين :

الأول : أن خلق الأرض تم فى أربعة أيام ، وخلقها وتهيئة الحياة البشرية فيها أعجب وأغرب ، والثانى : أن الأرض هى موضع النفع والفائدة للعباد فبدأ

بما هو الأهم ، وهو ذكر الأرض ، ثم أعقب ذلك بذكر السماء .

إن النظرية التي تنادى بالتطور وتقيم الحياة على أساس المصادفة هي نظرية واهية لا تقوم أمام البحث العلمى النزيه ، وهي نظرية تتنافى مع الإيمان بالله وقدرته ، ومع ما يقصه علينا القرآن الكريم والكتب السماوية من أن الحياة قامت على الأرض بإرادة الله وقدرته ، إننا إذا فكرنا في الفضاء الذى لا يفتأ يمتد أمامنا ، وفى الزمن الذى يكاد أن لا يكون له بداية أو نهاية . وفى الطاقة المقيدة والمحبوسة فى الذرة . وفى الكون الذى لا حد له بعوالمه التى لا تحصى ، ونجومه التى لا تعد ، وفى الاهتزازات التى نسميها الضوء والحرارة والكهرباء والمغناطيسية ، وفى النشاط المستمر للنجوم ، وفى الجاذبية وسيطرة القوانين الطبيعية على العالم ، إذا فكرنا فى ذلك كله أدركنا أننا لابد أن نؤمن بوجود الله وقدرته وحكمته ، وأنه المدبر الأعلى لكل هذه المعجزات التى تحيط بنا . والتى هى من حولنا . وفى المزمور ١٢٩ — ١١ : ١٦ من مزامير داود يقول الإنسان : « سأثنى عليك لأنى خلقت بشكل رائع عجيب ، إن أعمالك مدهشة وإن روحى لتعرف ذلك حق المعرفة ، إن جوهرى لم يخف عليك حين خلقت فى الخفاء ، صنعت بشكل عجيب ، من أدنى أجزاء الأرض ، وقد رأت عيناك جوهرى حين كنت لا أزال ناقصا . وفى كتابك كتبت لى أعضائى ، التى اطرد تشكيلها حين لم يكن هناك واحد منها » ، وفى الكتاب المقدس ما نصه : « فى البدء خلق الله السموات والأرض ، وكانت الأرض خربة وخالية ، على وجه الغمر ظلمة . وروح الله يرف على وجه المياه ، وقال الله ليكن نور فكان نور ، وقال الله ليكن جلد فى وسط المياه ، وقال الله لتنبت الأرض عشبا وبقلا يبزر بزرا ، وعمل الله النورين العظيمين والنجوم ، وقال الله لتفض المياه زحافات ، ذات نفس حية ، وليطر طير فوق الأرض على جلد السماء ، وقال الله لتخرج ذوات أنفس حية كجنسها ، بهائم ودابات ووحوش أرض كأجناسها ، وكان كذلك ، وقال الله إنى قد أعطيتكم كل بقل يبزر بزرا على وجه كل الأرض ، وكل شجر فيه ثمر يبزر بزرا لكم يكون طعاما » .

إن الإيمان بالله ضرورى لفهم الحيـــاة ولتقدمها أيضا ، فتقدم الإنسان من الوجهة الخلقية وشعوره بالواجب إنما هما أثر من آثار الإيمان بالله

والاعتقاد بالخلود . وإن غريزة التدين تكشف عن روح الإنسان ، وترقمه خطوة خطوة ، حتى يشعر بالاتصال بالله ، ودعاء الانسان الغريزى لله بأن يكون فى عونه هو أمر طبيعى ، وما الصلاة إلا مدعاة للسمو بالانسان ليكون قريبا من خالقه .

وجميع الأخلاق الكريمة لا تنبعث عن الإلحاد ، وبدون الإيمان كانت المدنية تسير إلى الإفلاس ، وكانت الحياة تسعى إلى الانقراض ، وكان النظام ينقلب إلى فوضى ، وكان الشر يسود العالم ، والظلام يخيم على الحياة والأحياء .

وفى إنجيل مرقس ما نصه : « إن أول كل الوصايا هى : اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد .

(٤)

وبعد ذلك العرض الرائع البليغ العظيم يتحدى الله عز وجل الناس عامة بالقرآن الكريم ، ويعلن عجزهم عن الوصول إلى مثل سمو القرآن وبلاغته وإعجازه : ويجعل ذلك كله قاعدة لوجوب الإيمان برسالة محمد ، لينجو المسلم بهذا الإيمان من عذاب النار ، ولينال المؤمن العامل ثمرة إيمانه وعمله جنات تجرى من تحتها الأنهار فى الآخرة بكل ما تشتمل عليه هذه الجنات من نعيم ومتعة وسعادة .

(٥)

ويعود القرآن الكريم إلى جدال الذين يحاجون محمدا ويطعنون على القرآن لأنه اشتمل على ذكر صغار مخلوقات الله ، من البعوض والذباب والنمل والعنكبوت فيقول الله تعالى : إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ ويرد الله عز وجل على هؤلاء الشاكين المتسائلين .

فيقول : يضل به (١) كثيراً ويهدى به كثيرا ، وما يضل به إلا الفاسقين ، وفصل الله عز وجل صفات هؤلاء الفاسقين من نقضهم لعهدهم الأبدى مع الله هذا العهد الذى أخذه عليهم بالإيمان برسالة الرسل وبالأنبياء ، ومن قطعهم لما أمر الله

---

(١) أى بضرب الأمثال بهذه الأشياء المحسوسة .

به أن يوصل من صلة الأرحام وغيره ، ومن إفسادهم في الأرض بالمعاصي والتعويق عن الإيمان ، ومثل هؤلاء هم الخاسرون الكاملون في الخسران .

ويتعجب الله عز وجل إثر ذلك من كفر الكافرين بالله ، من ظهور الأدلة على وجود الله وعلى وجوب الإيمان به ، ومن أظهر هذه الأدلة خلق الحياة على الأرض وخلق الانسان من عدم ، ثم إماتة الإنسان وسلب الله عز وجل للحياة منه ، ثم بعث الإنسان يوم القيامة ، ثم سكناه دار القرار إما إلى الجنة وإما إلى النار ، فهذه الآثار دالة على باهر قدرة الله ، وتمام حكمته ، وجعل البعث من الأدلة الموجبة للايمان بالله وبالدين مع أنه لم يحدث بعد ، لأنه حق لاريب فيه ، ولأنه حدوثه لابد منه .

ولما ذكر الله عز وجل نعمة الأحياء ودلالتها على قدرة الله ووجوده ، أتبع ذلك بذكر الكون الذي يعيش فيه الإنسان ، وما خلقه الله للانسان على الأرض من نعم ، وباستوائه على السموات فسواهن سبع سموات ، فهو عز وجل الذي خلق للناس ولأجلهم كل ما استقر في الأرض جميعا ، ينتفعون به في الظواهر قوتا لأجسامهم وغذاء لأرواحهم ، ودواء لأبدانهم ، ومتعة لأنفسهم ، وينتفعون به في الباطن بالتفكر والاعتبار وزيادة في إيمانهم وقوة ليقينهم ، ثم قصد إلى السماء قصد إرادة لخلقهن سبع سموات مستوية تامة ، ليس فيها تفاوت ولا خلل تظل الناس بجرمها وتضيء عليهم بشمسها وقمرها وكواكبها ، وقد أحاط علمه بالأشياء كلها ، فلذلك خلقها على هذا النمط الغريب ، والإتقان العجيب .

ويقص الله قصة خلق آدم ، وحديث الملائكة حين أراد الله خلقه ، ورد الله جل جلاله عليهم ، وتعليمه الالهي لآدم ، وسكناه الجنة ومعصيته لله وهبوطه إلى الأرض وحياته عليها ، وتشاجر ذريته وخصوماتهم فوق ظهرها ، ويصور الله عز وجل توبة آدم إلى ربه . وأوحى الله عز وجل إلى آدم وذريته أن يسكنوا الأرض ، وأن يؤمنوا برسالات الله إليهم ويعملوا بها ، فالمؤمنون لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وأما الذين يكفرون ويكذبون بآيات الله فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

(٩)

ويفيض القرآن الكريم إثر ذلك في حجاج بني إسرائيل ، وذكر الكثير

عما صنعه الله مع أجدادهم ، وعما أحدثوه من كفر وشرك وضلال .

فيدعوهم إلى الإيمان برسالة محمد ونبذ أخلاقهم الوضيعة وكفرهم وجحودهم الذى ورثوه عن آبائهم وأجدادهم ويصور لهم مدى ما فطرت عليه نفوسهم من ضلال ونفاق وبهتان وخداع وكيف يستبيحون لأنفسهم أن يأمروا الناس بالبر ناسين أنفسهم وهم يتلون التوراة ويعرفون ما فيها من شرائع وأوامر ونواه والعجيب فى اليهود أنهم كانوا إذا استرشدهم أحد من العرب دلوه على الإسلام وقالوا له : دين محمد حق ، وهم يقفون موقف الكافر بهذا الدين الحق ، المحارب له ، الصاد عنه .

ويأمر الله عز وجل بالصبر والصلاة ، والصبر المراد به الصوم أو ملاقاة الأحداث والشدائد بوجه باسم وثغر ضحوك ، دون يأس أو قنوط من فرج الله ، وهذا الأمر أيضا لليهود ، أمرهم بأصول الإسلام ، ثم أمرهم بالفروع . ثم عاد فذكرهم بالنعم وخوفهم بالوعيد على عدم شكرها ، ومن أهم هذه النعم إنجاء الله لهم من فرعون وقومه ، وكيف فرق لهم ولنبيهم موسى البحر فعبروه ، وأغرق فرعون وآله فيه ، وأبعد بنى إسرائيل من الهلاك المحقق والاستئصال الشديد الذى كان فرعون ـ وهو يتبعهم بجيشه ـ قد دبره لهم .

ومن نعم الله عز وجل على اليهود أيضا وعده لموسى بإنزال كتاب سماوى عليه وأمره إياه بالتطهر والصوم أربعين ليلة بأيامها متواصلة ، وهى على ما يروى ذو القعدة وعشر من ذى الحجة ، ولما صامها موسى وذهب لمناجاة ربه كفر اليهود بالله ، وعبدوا التمثال الذى صنعه السامرى لهم على صورة العجل ، ثم عفا الله عنهم بعد توبتهم ، وأنزل الله على موسى التوراة فيها هدى ونور وضياء للمؤمنين .

ومن النعم التى من الله بها عليهم أيضا تظليله لهم بالغمام يقيهم من الحر فى أيام التيه ، وما أنزل عليهم من المن ، وهو عسل كان ينزل على الشجر من الفجر إلى طلوع الشمس ، ومن السلوى وهو طير السمانى الذى كانت تدفعه الريح إليهم فيذبحون ويأكلون لحما طريا . وذلك لما أمرهم الله بجهاد الجبارين فعصوا وقالوا لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، فعاقبهم الله بالتيه أربعين سنة يتيهون فى الأرض ، قيل : تاهوا فى مقدار خمسة فراسخ أو ستة فى صحراء سيناء ، فكانوا يمشون النهار فيبيتون حيث أصبحوا ، ويمشون الليل فيصبحون

حيث أمسوا ، فقالوا لموسى : من لنا بالطعام ؟ فأنزل الله عليهم المن والسلوى ، وقالوا : كيف لنا بحر الشمس ؟ فظلل الله عليهم الغمام وقالوا : بم نستصبح بالليل ؟ فضرب الله لهم عمود نور فى وسط مكانهم ، وقالوا : من لنا بالماء ؟ فأمر موسى عليه السلام بضرب الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا . وحكمة كون التيه أربعين سنة أن هذا الزمن هو مدة جيل كامل ، فقدعذبهم الله بالتيه فى الأرض هذه المدة حتى يفنى جيلهم هذا الذى عصى الله وتمرد على رسوله موسى عليه السلام .

ويذكر الله عز وجل ما آل إليه أمرهم بعد التيه ، حين قال الله تعالى لهم : « ادخلو هذه القرية ، وهى بيت المقدس أو أريحاء بعد أن يجاهدوا أهلها ، فكلوا من خيراتها أكلا رغدا ، لأنها مخصبة . وانووا على الإقامة والحطة فيها والنزول بها أو ادخلوا باب القرية راكعين متواضعين لله شكراً له على نعمته ، أو قولوا فى دخولكم : شأننا حطة وتواضع لله ، فان فعلتم ذلك نغفر لكم خطاياكم ، فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى أمروا به ، فأنزل الله عليهم عذابه من السماء ، قيل : هو الطاعون ، الذى مات به منهم سبعون ألفا فى يوم واحد على ما يروى .

ويذكر الله عز وجل إثر ذلك استسقاء موسى لقومه من الله عز وجل وكيف أمره الله عز وجل بأن يضرب بعصاه الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا .

ويذكر الله عز وجل تعنتهم مع موسى ، وكيف قالوا له : لن نصبر على طعام واحد هو العسل واللحم ، وكيف طالبوه بالعدس والبصل والثوم والبقل ، وقد رد عليهم موسى بان يهبطوا إلى مصر من الأمصار يجدون فيه ما يشتهون ، إذ لا يوجد ذلك إلا فى القرى والأمصار ، أو أن يعودوا إلى مصر التى كانوا فيها أذلاء مستعبدين ليعودوا إلى ما كانوا عليه من الذلة والاستعباد ، لأن الحظوظ والشهوات منوطة بالذل والهوان .

يذكر الله عز وجل طبيعة اليهود ونفسيتهم الخبيثة المضروب عليها الذلة والمسكنة إلى يوم القيامة ، وذلك بسبب عصيانهم وكفرهم وطغيانهم وتمردهم وقتلهم للأنبياء بغير الحق ، واعتدائهم واستمرارهم فى العصيان . وهنا يذكر الله عز وجل أن ضرب الذلة على اليهود سوف يظل دائما أبدا إلا من خرج منهم عن [illegible] يهوديته فآمن بالله ورسوله فلهم الأجر عند الله والأمان من الخوف

والحزن ، ومثلهم فى ذلك الوعد الإلهى الذين يؤمنون برسالة محمد من النصارى والصابئين ، والنصارى أتباع عيسى، سموا بذلك لنصرهم له ، أو لسكناهم الناصرة . . والصابئون هم عبدة الكواكب من السريانيين والبابليين والآشوريين .

ويذكر القرآن الكريم إثر ذلك عصيان اليهود وتمردهم وإباءهم العمل بالتوراة مكرهين ، عفا الله عنهم ، وإن كانوا لم يقلعوا بعد عن العصيان والتمرد .. ويذكر قصة الذين أحلوا الصيد يوم السبت واعتدوا فيه فى زمن داود عليه السلام ، وقد كان محرما عليهم فى هذا اليوم ، فعاقبهم الله على اعتدائهم هذا بالذلة والخسران .

ويفيض القرآن فى ذكر لجاج اليهود مع نبيهم موسى ، وقصة البقرة وصنيعهم مع موسى فى أمرها ، وما آل إليه أمرهم من قساوة قلوبهم وكفرهم وعنادهم وافترائهم على الله . وهنا يلتفت القرآن الكريم التفاتا بليغاً إلى الرسول والمؤمنين ، فينصحهم بأن لا يطمعوا فى إيمان اليهود بالإسلام والقرآن ، وأن ييأسوا من ذلك يأسا تاما ، ويذكر صنيع علمائهم فى تحريف التوراة وجهل العامة من اليهود جهلا شائنا ، وما أعده الله من عذاب لهؤلاء الضالين المضلين المحرفين لكتاب الله وأحكامه .

ويستمر القرآن الكريم فى سرد قصة عناد بنى إسرائيل وتمردهم على شريعة التوراة ، وإعراضهم عن الطاعات والمعروف ، وما آل إليه أمرهم من سفك الدماء ومن الاعتداء على حقوق الآخرين ، وتكذيبهم الأنبياء وقتلهم لبعضهم كزكريا ويحيى عليهما السلام ، ثم كانت الداهية الدهياء منهم ، وهى كفرهم بالقرآن الكريم ، وقد كانوا قبل يستفتحون به فيقولون : اللهم انصرنا عليهم بالنبى المبعوث فى آخر الزمان الذى نجد نعته فى التوراة ، وكانوا يقولون لأعدائهم من المشركين : وقد أظل زمان نبى يخرج بتصديق ما قلنا فنقاتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما ظهر وعرفوه كفروا به .

ويستمر القرآن الكريم فى تفنيد مزاعم اليهود وأكاذيبهم ، وفى الرد عليهم فى طعنهم على جبريل من مثل ابن صوريا وغيره ، حيث قالوا للرسول صلوات الله عليه : من الذى يأتيك بالوحى ؟ فقال جبريل . فقالوا : ذلك عدونا من الملائكة لأنه ينزل بالشدة والعذاب ، ولو كان ميكائيل لآمنا بك ، لأنه ينزل

بالخصب والسلم ، فقال الله تعالى : « قل من كان عدواً لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين » الخ .

وينتهى الله عز وجل إلى ذكر إيثار اليهود للسحر وعملهم به وتفضيلهم له ، وتعلمهم إياه من بقايا السحرة الذين أخذوه ونبغوا فيه وتوارثوه عن أجداد لهم من عهد سليمان . ثم أخذهم للسحر كذلك من البابليين . وكان السحر منتشرا فى العالم القديم عن طريق الكلدانيين والأشوريين والبابليين ، فأخذه اليهود منهم أيام أسرهم ببابل حين تسلط بختنصر عليهم وخرب بيت المقدس وأسر عظماء اليهود وعلماءهم وساقهم إلى العراق . ومن اليهود سرت عدوى السحر إلى العالم كله .

وفى سفر الخروج فى الكتاب المقدس ذكر لقصة بنى إسرائيل كاملة : ففى الإصحاح الأول من سفر الخروج يذكر سبب اضطهاد فرعون لبنى إسرائيل بأنه خاف منهم على عرشه ، وقال لشعبه ، « هوذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا ، هلم نحتال لهم لئلا ينمو فيكون إذ حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكى يذلوهم ، فبنوا لفرعون مدينتى « مخازن فيثوم (الفيوم) ورعمسيس » ولكن بحسبما أذلوهم هكذا نموا وامتدوا فخشوا من بنى إسرائيل ، فاستعبد المصريون بنى إسرائيل بعنف ، ومرروا حياتهم بعبودية قاسية فى الطين واللبن ، وفى كل عمل فى الحقل » وأمر فرعون بقتل أطفالهم الذكور واستبقاء البنات وقت الولادة . ومع ذلك فقد نما الشعب وكثر جداً . وفى الاصحاح الثانى قصة مولد موسى ، ويذكر فى هذا الإصحاح قتل موسى لمصرى وفراره من مصر وسقياه الرعاء لبنات النبى شعيب . وفى الاصحاح الثالث يذكر مناجاة الله لموسى على الجبل ، ورسالته التى حملها نبيه ورسوله موسى ، قال الرب « إنى قد رأيت مذلة شعبى الذى فى مصر وسمعت صراخهم من أجل مسخريهم .. فالآن هلم فأرسلك إلى فرعون . وتخرج شعبى بنى إسرائيل من مصر » . وفى الإصحاح الرابع من سفر الخروج يذكر عصا موسى . ويده البيضاء إذا أدخلها فى جيبه . وشكوى موسى من ثقل فى لسانه ، وإمداد الله بهارون وسفر موسى ببيته إلى مصر . وفى الإصحاح الخامس يذكر حديث موسى وهارون أمام فرعون ، ونتائجه فى زيادة السخرة على بنى إسرائيل لفرعون ، وتجسيم التفاته لشكواهم ، وتضرع موسى وهارون إلى الله . وفى الاصحاح السابع

والثامن والتاسع والعاشر يذكر معجزات موسى وتأييد الله له وإنزاله الجراد والضفادع والبعوض والذباب والدم في مصر ، ونزول الوباء بمواشي المصريين ، وكذلك نزول البرد والصواعق والبرق والظلام بجميع أرض مصر إلى حيث يقيم بنو إسرائيل ، وثار الغبار ، وخربت مصر وصوح زرعها . وفي الإصحاح الثاني عشر يذكر إذن فرعون لموسى وهارون بأن يخرجا ومعهما بنو إسرائيل ليعبدوا الرب في البرية ثلاثة أيام ويذبحوا له ، وكان عددهم نحو ستمائة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد وصعد معهم لفيف كثير ، وكانوا قد استعاروا حلى المصريين وأخذوها معهم وفي الاصحاح الرابع عشر يذكر غضب فرعون لهرب بني إسرائيل وتتبعه لهم وغرقه هو وجيشه في البحر ونجاة بني إسرائيل . وفي الاصحاح السادس عشر يذكر الكتاب المقدس سيرهم في برية سيناء وتذمرهم وقولهم لموسى وهارون : ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر إذ كنا جالسين عند قدرة اللحم نأكل خبزا . وإنزال الله لهم السلوى والمن . وفي الاصحاح السابع عشر يذكر الكتاب المقدس صراخ بني إسرائيل وتذمرهم وطلبهم الماء ، وضرب موسى الصخرة بعصاه وخروج الماء من الصخرة ليشرب الشعب .

وفي الاصحاح ١٩ — ٢٣ يذكر مناجاة الله لموسى على الجبل ووصايا الله إليه . وفي الاصحاح ٣٢ يذكر الكتاب المقدس أن بني إسرائيل استبطؤا موسى في النزول من الجبل ، فاجتمعوا على هرون وقالوا له : اصنع لنا آلهة تسير أمامنا ، وأنه صنع لهم تمثالا على صورة عجل من الحلي التي استعاروها من المصريين ، وغضب موسى لعبادتهم العجل وتنديده بهرون وبالشعب ، وفي آخر الاصحاح ما نصه : « فضرب الرب الشعب لأنهم صنعوا العجل الذي صنعه هارون . (١) إلى آخر ما في الكتاب المقدس من قصص إسرائيل وعصيانها وتمردها .

(٧)

ويفيض القرآن الكريم في ذكر حسد الكفار من أهل الكتاب والمشركين للمسلمين ، وتمنيهم أن يعود المسلمون كفارا ، حسدا من عند أنفسهم ، وقصرهم الجنة عليهم ، كما قصر النصارى الجنة على أنفسهم كذلك ، واختصام اليهود والنصارى في الدين الحق : أهو دين هؤلاء أم دين هؤلاء . وصنع اليهود من

---

(١) [illegible] الكتاب المقدس [illegible]

صدهم عن المسجد الأقصى وسعيهم فى خرابه . ثم يرد القرآن الكريم على من ادعى من اليهود والنصارى والمشركين بأن لله ولداً ، والإنجيل أيضا يرد على ذلك ، فنى إنجيل متى الاصحاح الخامس : « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء » ، ويعود القرآن الكريم إلى الكشف عن طوية اليهود والنصارى ، وأنهم لا يرضون عن الرسول ورسالته حتى يتبع ملتهم ، ولو حدث ذلك من الرسول لناله عقاب الله وعذابه الشديد ، ولما كان له من الله ومن غضبه ولى ولا نصير يدافع عنه . وهنا ينكشف الأمر وضوحا فى صدق الرسول ، وفى أن القرآن نزل من عند الله ، فلو كان محمد هو صاحب هذا الكلام لما قال على نفسه هذا الكلام ، ولما ذكر هذا التهديد والوعيد ، ولكنه كتاب الله الحكيم ، وبيانه المعظم البليغ .

(٨)

ويذكر الله عز وجل قصة إبراهيم وبناء البيت وأن شريعة التوحيد والإسلام هى الحنيفية البيضاء التى أتى بها إبراهيم ، والتى وصى بها إبراهيم بنيه الأربعة : إسماعيل وإسحاق ، ومدين ومدان .. وكذلك صنع حفيده يعقوب إذ أوصى بشريعة التوحيد بنيه ، وكانوا اثنى عشر . والإسلام هو أصدق شبه بدين إبراهيم من اليهودية والنصرانية ، وهو دين الإنسانية جمعاء ، وخاتم الرسالات على الإطلاق .
ويفيض القرآن الكريم هنا فى جدال اليهود والنصارى الذين لا يرون الدين إلا دينهم . ويدعوهم إلى الإيمان بجملة شرائع الأنبياء ، ويصيح المسلمون فى وجوهم بأعلى صوت وبيان قائلين : آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . إلى آخر هذا الحديث الرائع الذى ورد فى آخر الجزء الأول من القرآن الكريم ، والذى أضفنا فى شرحه فيما سبق .
ويختم الله عز وجل هذا الجزء بقوله تعالى متهكما باليهود والنصارى : « أم تقولون أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى ، قل أأنتم أعلم أم الله ؟ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ؟ وما الله بغافل عما تعملون » تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون » .

خاتمة هذا الجزء

— ١ —

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين . . وبعد . . .

فهذه هي خاتمة الجزء الأول من هذا التفسير ، تفسير القرآن الحكيم ، الذي أرجو أن يكون وافيا بحاجات العصر ومطالبه الفكرية والروحية ، والذي أسير فيه بفضل الله وعونه ، راجيا أن يؤيد الله عز وجل مسعاي الكليل، لإكمال هذه الموسوعة الإسلامية الكبيرة التي سوف تقع بإذن الله في ثلاثين جزءا وفق تقسيم المصحف الشريف .

— ٢ —

ولم يكن غرضي من كتابة هذا التفسير ونشره إضافة كتاب جديد إلى كتب التفسير ، إنما قصدت إضافة منهج جديد في تفسير كتاب الله ، رجاء أن يلم المسلمون إلماما قويا بكتاب الله ، وأن يفهموه حق فهمه ، وفق ما تتطلبه روح العصر الحاضر في التفكير والثقافة والبحث ، ووفق ما جد في الكون من كشوف علمية ضخمة تناولت جميع مظاهر الحياة بالتجديد والتغيير . وليس هناك ريب في أن الأسلوب القديم للعلماء المسلمين ، في مؤلفاتهم القيمة في تفسير كتاب الله ، أصبحت لا تلائم روح العصر الحديث في الكتابة والعرض .

— ٣ —

وإنه لغني عن التنويه في هذا المقام بجهد بذاته ، أو بصنيع في هذا المضمار صنعته . . وأضرع إلى الله خالصا مخلصا ، أسأله الهداية ، والتوفيق ، والإرشاد إلى أقوم طريق ، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب . .

محمد عبد المنعم خفاجي

الفهرست

دار الطباعة المحمدية - درب الأتراك بالأزهر بالقاهرة

٢٦ رمضان ١٣٧٨ - ٤ / ٤ / ١٩٥٩